جامعة الأزهر
كلية أصول الدين والدعوة
بالمنوفية

من
القصص القرآني

الأستاذ الدكتور
شحات حسيب الفيومي
أستاذ التفسير بالكلية
ووكيل الكلية

دار الأندلس للطباعة أمام كلية الهندسة – عمارات الزراعيين – شبين الكوم ٠٤٨/٢٢٢٢٠٩٠

القصص القرآنى

ورد فى كتاب الله تعالى فى مادة (قص) أفعالٌ متعددة، وهى فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٤)، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ (٥).

ومعنى هذا الفعل كما يقول الراغب: (القصص: تتبع الأثر، يقال قصصت أثرَهُ) (٦)، وورد فى القرآن مصدر من مصادر هذا الفعل مُرَادًا بـه الاسم والمعنى الحاصل لهذا المصدر، قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (٧).

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ (٨)، ولقد سميت سورة بهذا الاسم هى سورة القصص، وفى معناه يقول الراغب: (والقصص: الأخبار المتتبَّعة)(٩).

والقصة: الخبر المقصوص بأسلوبها المتضمن للحبكة الفنية والعقدة المحلولة

---

(١) سورة القصص آية رقم : ٢٥.
(٢) سورة الأعراف آية رقم: ٧.
(٣) سورة الأعراف آية رقم: ٣٥.
(٤) سورة الأعراف آية رقم: ١٧٦.
(٥) سورة القصص آية رقم: ١١.
(٦) المفردات ص٤٠٤.
(٧) سورة يوسف آية رقم : ٣.
(٨) سورة يوسف آية رقم: ١١١
(٩) المفردات: ص٤٠٤.

أثناء قصتها أو تركها القارئ، وجمعها قصص بكسر القاف.

تعريف القصص القرآني:

هو إخباره عن الأمم الماضية والأنبياء السابقين والحوادث التى وقعت قبل نزول القرآن بأسلوب متميز عن غيره.

و يتجلى ذلك فيما قصَّه علينا من قصص آدم ونوح وهود وشعيب وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وداود وسليمان وأيوب ويونس وعيسى وغير ذلك من الأنبياء الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم.

الأحداث التى وقعت إبان نزول القرآن ليست من القصص القرآنى:

لقد ذهب بعض العلماء إلى أن الحوادث التى صاحبت نزول القرآن من القصص -كحديث الإفك والغزوات وغيرها- هى فى الحقيقة ليست من القصص فى شيء لأنها عبرت عن مفهوم القصة، بل هى من أسباب النزول ومن الأحكام، يقول أستاذنا الدكتور/ عبد الغنى عوض الراجحى: (وما يجب التنبه له أن الحوادث والكائنات التى حدثت وكانت إبان نزول القرآن وتحدث عنها كغزوات بدر وأُحُد والخندق وتبوك وحوادث أخرى كثيرة عاناها رسول الله ﷺ يُذكره القرآن بها ويأخذ بيده فى بيانها وحل إشكالاتها كحوادث الهجرة والإفك وزواجه بزينب بنت جحش وما شاكل ذَٰلِكَ، كله لا يعتبر فى نظرنا من قصص القرآن فى شيء، والله تعالى يقول فى هذا الصدد: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾)[1].

---

(١) النهج القويم فى دراسة علوم القرآن الكريم ص٥، ٦.

إن القصة الواحدة فى القرآن الكريم تشتمل على أركان القصة، وهى:

١- الحدث: فإن القصة يساق فيها الحدث ويصور وتبرز فيها معالمه.

٢- الشخصيات: وهى الشخصيات التى تجسد الحدث وتظهره.

٣- الحبكة الفنية: وهى التى تميز القصة عن الكلام المسرود.

٤- العُقَدُ: وهى التى يقف القارئ أمامها: يسوق القاصُّ حلها أو يترك حلها للقارئ كما فى قصة موسى عليه السلام ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١).

وهنا عقدة فى إلقائه فى اليم الذى وقع له بعد إلقائه فى اليم؟ يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى، إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى. أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (٢).

الهدف من مجىء القصص فى القرآن:

١- أورد الله القصة فى كتابه العزيز لأن لها تفسيراً نفسياً فى غرس القيم التى أتى بها القرآن فى العقول، ولا غرو فالإنسان بطبيعته إلى القصة أميل، فكأنه مفطور على حبها منذ نعومة أظفاره وصباه، ففى طفولته ينام على صوت أمه تهدهده بها، فإذا انصرفت أمه عنه أتى والده ليقص عليه وهو مضطجع فى مهده فينام سابحاً فى خياله، فإذا جاءت القصة القرآنية بأمور تهدى إلى الطريق السليم المستقيم فإنها تكون مواتية لما هو مغروس فى

(١) سورة القصص آية رقم: ٧.
(٢) سورة طه الآيات: ٣٧ - ٣٩.

النفس البشرية من استرواحها بالقصة وميلها إليها، وحينما يسلك الإنسان هذا المسلك فإنه يكون قد بلغ قمة البلاغة بما له من وجدان البشر وانطباعهم.

٢- يحيا الإنسان أزماناً ثلاثة: ماضية وحاضرة ومستقبلة، فيعيش حاضره وهو امتداد لماضيه وينطلق من حاضره لمستقبله، ولايستطيع الإنسان الانسلاخ عن هذه الأزمان الثلاثة، والبشرية كلها منذ خلق الخليقة قافلة واحدة تقتبس من أمسها لحاضرها ومستقبلها، فلا بد من التفاتها إلى الماضى للنظر فى أحوال الماضين للاعتبار والابتعاد عن المساوئ واجتناب الرذائل التى اتصف بها السابقون واقتباس أعمالهم الصالحة، فالنظر فى القرون الخالية يجعل البشر يحصلون على مقومات الحياة الفاضلة، ومن هذا نشأ علم التاريخ صاحب القيمة الكبيرة فى المجالات الاجتماعية والإنسانية، وكانت القصة فى القرآن تجاوباً مع الاتجاهات الفكرية، فالرسول ﷺ يقول عن القرآن : «فيه نبأ من قبلكم وحكم ما بينكم وخبر ما بعدكم»، ومن ناحية أخرى فإن علم التاريخ يعتمد فى إثبات الحقائق والتنقيب عنها على الرحلة والارتحال والسير فى الأرض إلى مواقع الأحداث، فالقرآن قد لفت النظر إلى البحث والتنقيب عن آثار السابقين فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [1]، وقال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [2].

---

(١) سورة محمد آية رقم: ١٠.

(٢) سورة آل عمران آية رقم: ١٣٧.

٣- القصة فى القرآن ذكرت مشاهد كثيرة من أحوال الأمم الماضية، وبينت فكرهم وأحاديثهم وثقافتهم، وسجلت أموراً خفية لا يطلع عليها البشر بل الذى اطلع عليها وساقها هو الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وهو الذى أوحى بها إلى رسوله، فالقصص القرآنى دليل على صدق الرسول ﷺ لأنه لم يعاصر الأقوام السابقة ولم يعاين أحداثهم، وفى أعقاب بعض القصص أو بعض المشاهد القصصية يذكر بأن هذا القصص وحى من عند الله، قال تعالى فى أعقاب مشهد من قصة نوح: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ، تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]، وقال تعالى فى أعقاب مشهدين من قصة موسى مخاطباً رسوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ، وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ، وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[2].

وقال تعالى فى أعقاب بعض المشاهد من قصة مريم: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ، ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[3].

---

(١) سورة هود الآيتان: ٤٨، ٤٩.

(٢) سورة القصص الآيات: ٤٤ - ٤٦.

(٣) سورة آل عمران الآيات: ٤٢ - ٤٤.

فالقصص القرآني دليل على صدق رسالة الرسول ﷺ، فهو أُمِّيٌّ لم يطّلع على الأمم الماضية، بيد أن بعض المشركين افترى فرية وهي أن هذا القصص تعلمه الرسول ﷺ من غلام نصراني اسمه جبر، فردَّ الله عليهم بعد أن قدم فريتهم ثم دحضها بدليل عقلي: «قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: كان رسول الله ﷺ فيما بلغني كثيرا ما يجلس عند المروة إلى سُبَيْعَة[1] غلام نصرانيٍّ يقال له: جبر عَبْدٌ لبعض بني الحضرمي، فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[2] »[3].

٤- لقد أورد القصص القرآني في بعض مشاهده مشاهد لنهاية عاقبة الكافرين وخسرانهم ونجد ذلك جلياً.

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ، فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ، وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[4]، وقال تعالى عن قوم لوط: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ، إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ، نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ، وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ، وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[5]، فهذه النهايات وأضرابها أفادت سنة اجتماعية لا تختلف وحتميةً تاريخيةً ودينيةً أشبهت في ثبوتها سنن الله في النفس وهي إهلاك الظالمين وإبادتهم بسبب فسقهم

(١) سبيعة: محلة.
(٢) سورة النحل آية رقم: ١٠٣.
(٣) تفسير ابن كثير جـ٤ ص٥٢٣.
(٤) سورة الحاقة الآيات رقم: ٤ -٦.
(٥) سورة القمر الآيات رقم: ٣٣ - ٣٩.

وكفرهم، قال ﷻ عن هذه السنن: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1].

وقال ﷻ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ﴾[2].

٥- لقد ساق القصص القرآني ألواناً من ألوان الاضطهاد وصنوفاً من أصناف الإيذاء صبت من الصادفين المتكبرين المعترضين على الرسل وعلى من آمن معهم، وأبرز القصص القرآني حال المضطهدين المؤمنين الذين صبروا وصابروا وجاهدوا ولم تثنهم الشدائد عن المضى فى طريقهم إلى الله تعالى، كان ذلك كله دافعاً للرسول ﷺ والمؤمنين بأن لا يتزحزحوا عن طريق الله، ويتزودوا بالصبر ويمضوا فى طريق تبليغ الدعوة بحزم وثبات وإلى هذه المعانى تشير آيات كثيرة فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿الم، أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[5].

---

(١) سورة العنكبوت آية رقم: ٤٠.
(٢) سورة الأنفال آية رقم: ٣٨.
(٣) سورة البقرة آية رقم: ٢١٤.
(٤) سورة العنكبوت الآيات رقم: ١ - ٣.
(٥) سورة الأحقاف آية رقم: ٣٥.

ففي ميدان هذه المعاني نجد أن القصص القرآني حقق أهدافاً تتعلق بالمشركين الذين أبَوْا دخول الإسلام، فهو تهديد وإنذار لهم بأن عاقبتهم تشبه عاقبة السابقين، وحقق أهدافاً تتعلق بالمؤمنين فهو تثبيت لهم على إيمانهم وبشرى لهم بالنجاة كإخوانهم السابقين، وحقق لهم أهدافاً تتعلق بالرسول ﷺ وهي تثبيت له وأن الله ناصره، قال تعالى: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

٦- لقد بارز القرآن العرب في القصص لأن في القصة لوناً من ألوان الأدب العربي، فهو قسمان: شعر ونثر، والنثر أنواع: الحِكَمُ والأمثال والخطب والوصايا والمحاروات والمنافرات والقصة، فلقد بارزهم في النثر، ففي الحِكَمِ: القرآن كله حكمة وقائله حكيم، وهو مترع بالأمثال، وفي مراجع علوم القرآن أبواب خاصة بالأمثال، ونجد الوصايا فيه كثيرة كوصية لقمان لولده ووصايا الأنبياء لأقوامهم كمحاورة نوح لقومه ومحاورة النمرود بن كنعان لإبراهيم عليه السلام ومحاورة إبراهيم للملائكة، ومحاورة الأنبياء لأقوامهم ومحاورة مؤمن آل فرعون لقومه بشأن موسى، أمَّا المفاخرة والمنافرة فلا تتفق وخُلُق القرآن، وبارزهم في القصة وأفحمهم فيها أيضاً فهي من مبارزة القرآن لهم في فن من فنون أدبهم يقول الأستاذ الدكتور عبد الغني الراجحي – رحمه الله–: (فقد كانت القصة عند العرب لوناً من ألوان اللَّسَن والأدب والسمر، فجاء القرآن بها والنفس لما ألفت أميل، فكان ذلك مع كونه

---

(١) سورة هود آية رقم : ١٢٠.

تحبيباً لهم في القرآن مجالاً لمباراتهم فيها وبزهم[1] وتعجيزهم في جميع فنون القول) [2]، ولقد قام بمجاراة القصة في القرآن النضرُ بن الحارث، وكان ذلك عبثاً وسفهاً فكان يشتغل بالتجارة ويأتي بقصص الأعاجم ويحدث به قريشاً يقول: إن محمداً يحدثكم عن عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة، وكان يخلف النبي في مجلسه ويقول لقومه: يا معشر قريش أنا أحسن منه حديثاً هلموا أحدثكم، وقال الله تعالى عنه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ، وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [3].

لماذا لم يبارز القرآن العرب في الشعر؟

نعرف جميعاً أن من أغراض الشعر العربي الغزل والمدح والهجاء والرثاء والتشبيب بالنساء والعبث واللهو، وللخمر نصيب وافر من الشعر العربي، والقرآن الكريم لم يبارزهم في الشعر لأن القرآن يعف عن معظم أغراضه وهو كتاب هداية قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ﴾[5]، وقال الله تعالى عن الشعراء: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا

---

(١) بَزّهُ بفتح الباء و تشديد الزاي المفتوحة: غلبه.
(٢) النهج القويم في دراسة علوم القرآن الكريم ص١١.
(٣) سورة لقمان الآيتان رقم: ٦ ، ٧.
(٤) سورة يس آية رقم: ٦٩.
(٥) سورة الحاقة الآيتان رقم : ٤٠، ٤١.

يَفْعَلُونَ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1].

هل القرآن يصادم الشعر:

لا يصادم القرآنُ الشعرَ العربى ولا يبغضه ولا يُنَفِّرُ منه إلاَّ إذا كان مخالفاً لهدى القرآن، ودليل ذلك أن رسول الله ﷺ كان يرد الشعر يراد (عن أبي إسحاق عن البراء ﷺ قال: كان النبي ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه أو غبر بطنه يقول:

والله لولا أنتَ ما اهتدينا ∴ ولا تصدَّقنا ولا صَلَّينا

فأنـزِلَنْ سَكِينَـةً علينا ∴ وثبِّتِ الأقدامَ إنْ لاقينا)[2]

(وعن أنس ﷺ قال: ثم جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة وينقلون التراب على متونهم وهم يقولون:

نحن الذين بايعوا محمدا ∴ على الإسلام ما بقينا أبدا

قال: يقول النبي ﷺ وهو يجيبهم:

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخره ∴ فبارك في الأنصار والمهاجره)[3].

٧- مجيء القرآن بالقصص جعله أقساماً من الكلام، ووجوده يتخلل الأحكام والأوامر والنواهي جعل قارئه يتلوه ويكثر من تلاوته ويوغل فى أعماقه دون ملل أو سأم، والقارئ كبلبل يصدح بكلام ربه ينتقل من غصن إلى غصن ومن زهرة إلى زهرة فلا يبرحه إلى كلام غيره.

فلو كان القرآن كله أحكاماً وأوامر ونواهي لكان أدعى للسآمة والملل.

---

(١) سورة الشعراء الآيات رقم : ٢٢٤ - ٢٢٧.

(٢) صحيح البخارى جـ٥ ص١٣٩، ١٤٠.

(٣) المرجع السابق ص١٧٣.

٨- لقد ساق القرآن القصص وفى أعقابه حقيقة واحدة وهى أن قضية الكفر والضلال والانحراف على مر الأزمان البشرية واحدة فكأن الليلة بنت البارحة ولقد بين القرآن هذه الحقيقة، قال تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [1]، وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ، أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[2]، لقد كشف القصص القرآنى اللثام أثناء عرض جوانبه عن وحدة الرسالات واجتماعها على أصول خمسة وإن تباينت فى فروعها واختلفت، وهذه الأصول الخمسة:

١- الدعوة إلى توحيد الله ﷻ والإيمان به وبرسالته.

٢- إثبات رسالة الرسل؛ لأن الرسل هم الواسطة بين الله وبين خلقه، والإيمان بهم واجب ويجب العمل بما جاءوا به.

٣- إثبات البعث وهو اليوم الآخر وبيان ما فيه من جزاء وثواب وعقاب.

٤- الدعوة إلى عبادة الله تعالى وبيانها وفضلها.

٥- الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة.

هذه الأصول الخمسة هى قطب الرحى فى جميع الديانات السماوية ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [3]، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى

---

(١) سورة يس آية رقم: ٣٠.

(٢) سورة الذاريات الآيتان رقم: ٥٢، ٥٣.

(٣) سورة النساء آية رقم : ١٦٣.

وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [1].

ولما دعا الرسول ﷺ البشر إلى دعوته لم يخرج عن أصول الأنبياء السابقين قال الله تعالى له : ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [2]، ومن جهة أخرى أمر المسلمين أن يؤمنوا بما أنزل على الأنبياء السابقين قال تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ، وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [3].

٩- ومن دراستنا للقصص القرآني نرى المشاهد والأخبار كأنما نراها رأي العين فنؤمن بها فتحصل لنا فضيلة الإيمان بالغيب ويتسنى لنا أن نكون شهداء على النّاس كما قال ﷻ : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [4].

ونستطيع أن نجادل عن رسل الله الأطهار وندفع افتراء من يفتري عليهم، وكان الرسول ﷺ أسوة للمسلمين حين قال: (نحن أحق بالشك من إبراهيم إذا قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ، ويرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو

(١) سورة الشورى آية رقم: ١٣.
(٢) سورة الأحقاف آية رقم: ٩.
(٣) سورة آل عمران الآيتان رقم : ٨٤، ٨٥.
(٤) سورة البقرة آية رقم: ١٤٣.

لبثت في السجن طول لبث يوسف لأجبت الداعي)[1].

١٠- إن فى كل قصة من القصص القرآنى عِبَراً تتناسب مع خصوص المعانى التى سيقت فى خصوص هذه القصة، فلقصة آدم عبرها وأسرارها، ولقصة نوح عبرها وأسرارها، وهكذا دواليك ما من قصة بل ما من آية فى قصة إلا وفيها ميدان تتبارى فيه العقول والأفهام لاستخلاص العبر والعظات كما قال تعالى فى سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى جـ١٥ ص١٢٣.

(٢) سورة يوسف آية رقم: ١١١.

أنواع القصص القرآني باعتبار تناوله للأحداث :

يتنوع القصص القرآني باعتبار تناوله للشخصيات والحوادث إلى أنواع متعددة وهي :

النوع الأول : قصص قرآني يتناول قصص الأنبياء، وهذا النوع تناول فيه القرآن الأنبياء السابقين ودعوتهم إلى أقوامهم ومحاورتهم لهم ومعجزات هؤلاء الأنبياء وموقف المعاندين منها وموقف المؤمنين منها ومراحل دعوة الأنبياء وأساليبها وعاقبة المكذبين في الدنيا والآخرة.

النوع الثاني : قصص قرآني يتعلق بشخصيات مؤمنة أعلنت عصيانها على الكفر وأنواعه، وأظهرت تمردها على الشر وقادته (كمؤمن آل فرعون وذي القرنين وأهل الكهف ومؤمن آل يس).

النوع الثالث : قصص قرآني يتحدث عن شخصيات طغت وكفرت وعصت وأفسدت، وهي : شخصية فرعون وزعمه الألوهية وقصة النمروذ بن كنعان الذي حَاجَّ إبراهيم في ربه وقصة قارون وغيرها.

النوع الرابع : قصص قرآني يتناول شخصيات نسائية مؤمنة تحدث فيها عن إيمانهن وعبادتهن وخوفهن من الله، كقصة مريم وامرأة فرعون وزوجة إبراهيم عليه السلام.

النوع الخامس : قصص يتناول شخصيات نسائية عصت وجحدت وسلكت دروب الشر وحرصت على نصرته كقصة امرأة نوح ولوط.

النوع السادس : قصة تناولت شخصية نسائية طرقت رتاج الشر وتهيأت له وحاكت نسيج الأحداث، فرجعت واعترفت بالحق وهي امرأة العزيز في قصة يوسف عليه السلام .

تنبيه: النوع الثانى والثالث والرابع والخامس والسادس ورد فى ثنايـ قصص الأنبياء ولم يكن مستقلاً عنه، بل هى شخصيات قامت بأدوارها وأظهرت سلوكها فكان لها وجود فى القصص القرآنى.

أنواع القصص باعتبار تكراره وعدمه:

يتنوع القصص باعتبار ما كرر وأعيد وما لم يكرر ولم يذكره القرآن إلاً مرة واحدة إلى نوعين:

النوع الأول: قصص تكررت أحداثه فى صور كثيرة من القرآن الكريم .

النوع الثانى: قصص لم يكرر ولم يذكر إلاً مرة واحدة

السر فى تكرار القصص القرآنى

أولاً: كررت القصة الواحدة فى القرآن فى أكثر من سورة لتوكيد ما تفيده من المعانى الجميلة والأهداف السامية فى نفوس السامعين، فالتكرار يركز الفكرة فى الذهن فلا يكون من السهل نسيانها، وعن طريق التكرار تنتشر الآراء، يقول الدكتور (جوستاف لوبون فى كتابه الآراء والمعتقدات: التوكيد والتكرار عاملان قويان فى تكوين الآراء وانتشارها، وإليهما تستند التربية فى كثير من المسائل وبها يعتنى رجال السياسة والزعماء.

التكرار: هو تنمية التوكيد الضرورى وهو يحول المكرر إلى معتقد)[1].

والتكرار من أقوى وسائل الإقناع ومن أفضل سبلها؛ لأنه يركز الرأى فى العقل فى لين ورفق دون استثارة المخالفة والمشادة.

---

(١) من كتاب النهج الكريم فى دراسة علوم القرآن الكريم ص١٩.

ثانياً: إظهار بلاغة القرآن التى تتضاءل أمامها بلاغة البشر وفصاحتهم، حيث يكون المعنى الأصلى لجانب من جوانب القصة الواحدة، فيكرر بزيادات ومعان ثابتة لا يزاد المكرر بها إلاّ حلاوة وطلاوة على خلاف المعهود فى كلام النَّاس، فإن كلام البلغاء إذا تكرر فى موضوع واحد تفاوت وتهافت على حسب تبدل مزاج البليغ واختلاف قواه وطاقته من وقت لآخر حسب طبيعته البشرية، ولقد كان التكرار مذهباً معروفاً لدى العرب لكنه لم يكن بهذه المتانة والرصانة والقوة والإحكام) [1].

ثالثاً: بيان أن هذا الكتاب معجزة فالمفارقات اللفظية التى ورد عليها القصص المكرر إذا سبر القارئ أغوارها وأحاط بدقائقها وبلاغتها التى أوجبت التقديم تارة والتأخير أخرى والوصل تارة والفصل تارة أخرى وإبدال اللفظ بآخر ليعطى معنى زائداً يراعى فيه مقتضى الحال مع عدم الخلل بالسياق، والآيات يأخذ بعضها برقاب بعض سلسلة متصلة بين السباق واللحاق والإفراد والتركيب فى نفس السورة يكون أعجز البشرية وصار شامخاً يتحدى بلاغة البشر وفصاحتهم ويتحدى قرائحهم، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسورة مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [2].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [3].

---

(١) انظر: المرجع السابق ص٢٠.
(٢) سورة البقرة آية رقم: ٢٣.
(٣) سورة الإسراء آية رقم: ٨٨.

رابعاً: كررت القصة في القرآن الكريم كي لا يثير الكافرون شبهة فيقولون: قد سبق إلى صوغها الممكن فكيف نأتي بمثلها؟ فأعادها القرآن مكررة حتى يقع التحدي بها كسائر آيات القرآن لدحض هذه الشبهة، وكأنه تحداهم بطلب أن يأتوا بمثل بعضه فلم يأتوا به، فأخذ ﷺ يريهم الأمثال كأنه يعلمهم كيف يعارضونه وهو واثق من عجزهم.

خامساً: تكررت القصة في القرآن الكريم وأتت متنوعة من حيث الطول والقصر والتوسط، فكان ذلك أسهل على البشر أن يعارضوه مما لو كان نوعاً واحداً ومع ذلك عجزوا، وكان إبراز إعجاز القرآن الكريم على مستوى واحد في الأساليب الثلاثة، والبلغاء يجيد بعضهم إذا أطنب ويجيد بعضهم إذا أوجز.

سادساً: تكررت القصة في القرآن الكريم في مواضع متباينة فيُذْكَرُ في موضع طَرَفٌ منها، وفي الموضع الآخر طرف آخر، فتكتمل صورة القصة، وبذلك تستوفي أطرافها.

السر في عدم تكرار بعض القصص

أمّا السر في عدم تكرار بعض القصص فهو أن القرآن جاء مشتملاً على طريقة التنويع والتفنن، فقصص وقع فيه تكرار وآخر لم يقع فيه تكرار، وذلك مبالغة في تسفيه العرب وإلقامهم الحجر، فلقد فتح لهم باب المعارضة بتكرير ما لم يتكرر كما صنع القرآن في تكرير ما تكرر، وقد يكون عدم التكرار منوطاً بخصوصية لا تخلو من حكمة وسر، فقصة يوسف عليه السلام نزلت جملة واحدة ولم تكرر؛ لأن في بعض جوانبها مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه وتغليقها الأبواب وخروجها عن طبيعة بنات جنسها، فالمرأة غالباً تكون مطلوبة

ولا تكون طالبة فقالت ليوسف: "هيت لك"، وهذا أمر مبنى على الستر ويجب أن يكون الكلام فيه قليلاً.

أمّا ما كان من عدم التكرير فى غير قصة يوسف فالعبرة كلها سيقت فى الأصل الذى لم يكرر كأصحاب الفيل وكأصحاب الأخدود وأهل الكهف وذى القرنين وولدى آدم وأصحاب الجنة وأصحاب القرية وأهل سبأ ولقمان.

الفرق بين القصص القرآني والقصص البشري:

هناك فروق متعددة بين القصص القرآنى والقصص البشرى، وهى:

أولاً: القصص القرآنى واقعي له واقع فيما سبق، وأحداثه التى ذكرت كان لها واقعها، والشخصيات التي دار حولها القصص كان لها وجود.

أمّا القصص البشرى فجله من خيال البشر، أى: من خيال كاتبه وليس له فى عالم الواقع وجود.

ثانياً: القصص القرآنى يتسم بالعفة والبعد عن إثارة الشهوة أو الغريزة فلا يثير القارئ؛ بل يجعله يقف فى خشوع وسكينة، فهو ينأى بألفاظه عن الألفاظ العارية الفاضحة.

أمّا القصص البشرى فإن مَنْ ألّفوه قد يعمدون إلى ألفاظ تثير الغريزة، وتحرك القارئ، فتجعله مضطرب النفس، وربما بعد القراءة يحاول تقليد أو تطبيق ما قرأه.

ثالثاً: يهدف القصص القرآنى إلى ترسيخ العقيدة وتقويم السلوك والتخلق بالصفات الحميدة والخلال الكريمة والدعوة إلى العفة.

بينما القصص البشرى – فى الأعمّ – لا يهدف إلى تلك الأهداف النبيلة، بل ربما يفتح الأبواب الموصدة أمام القارئ، ويضيء له الطريق إلى جريمة الزنا، وإلى لقاء امرأة يأتيها.

رابعاً: يهدف القصص القرآنى إلى إبراز الأمانة ويرشد إلى الأمن، بينما القصص الإنسانى المتمثل فى القصص البوليسى قد لا يراعى ذلكَ فيسوق أساليب اللصوص المختلفة فى كيفية السرقة والسطو والقتل، فبعض القراء يقوم بتطبيق ذلك عندما يقرأ هذا القصص.

خامساً: الذى يقرأ القصص القرآنى يثاب على قراءته ويكون له فى ميزان حسناته؛ لأنه قرأ كلام ربه، ويكون مع الملائكة، ويكون له أجر كثير.

عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : (الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السَّفَرَةِ الكرام البَرَرَةِ، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع[1] فيه وهو عليه شاق[2] له أجران). متفق عليه

أمَّا قراءة القصص البشرى فهو مضيعة للوقت واستهلاك للعمر فيما لا يفيد، فالأولى أن يوجه هذا الوقت إلى تلاوة القرآن.

سادساً: الذى يقرأ القصص القرآنى ويتبحر فيه ينهل من فيض لغته وبلاغته وفصاحته، فيكون عالماً بلغته لأن القرآن بلغ الذروة فى الفصاحة والبلاغة لا تضارعه فصاحة البشر، ومن حفظه كان عالماً بالنحو والصرف، فالقارئ الذى يقرأ قصة موسى يجد العجب فيه، وفى قوله تعالى فى أول سورة القصص: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [3]، فاشتملت الآية على أمرين ونهيين وبشارتين وخبرين.

ومن قرأ قوله ﷻ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ

---

(١) يتردد عليه فى قراءته.

(٢) وهو ثقيل على اللسان.

(٣) سورة القصص آية رقم: ٧.

عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [1]، المخاطب هنا إبراهيم عليه السلام ولقد جمعت الآية الخبرَ والطلبَ والإثباتَ والنفيَ والتوكيدَ والحذفَ والبشارةَ والنذارةَ والوعدَ والوعيدَ، وتجد أيضاً قمة البلاغة في قوله ﷻ عن نملة سليمان حين مر على واد النمل فتكلمت نملة وقالت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [2].

فهذه الآية جمعت كثيراً من الأساليب البلاغية، وكانت النملة في غاية البلاغة نادت وكنَّت ونبَّهت وسمَّت وأمرت وقصَّت وحذَّرت وخصَّت وعمَّت وأشارت وعَذَرَت . فالنداء: يا، والكناية: أيُّ، والتنبيه: ها، والتسمية: النمل، والأمر: ادخلوا، والقصص: مساكنكم، والتحذير: لا يحطمنكم، والتخصيص: سليمان، والتعميم بعد التخصيص: جنوده، والإشارة : وهم، والعذر: لا يشعرون، فأفادت حقوقاً متعددة حق الله وحق رسوله وحق رعيتها وحق جنود سليمان.

(١) سورة البقرة آية رقم: ١٢٤.
(٢) سورة النمل آية رقم: ١٨.

قصة آدم عليه السلام فى القرآن

أولاً: حديث الله مع الملائكة عن خلق آدم:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (1).

هذا حديث علوى عن قصة استخلاف آدم فى الأرض ومنحه مقاليدها على عهد من الله وشرط إعطائه المعرفة التى يعالج بها هذه الخلافة. وهذا الحديث فى ساحة الملأ الأعلى قصَّه علينا القرآن الكريم.

إشارات ومرامى هذا الحديث:

١- قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾

هذه العبارة ترمى إلى مشيئة الله تعالى التى تريد أن تُسلم لهذا الخليفة زمام هذه الأرض وتُطلق فيها يده وتكِل إليه إبرازَ مشيئة الخالق فى الإبداع والتكوين والتحليل والتركيب والتحوير والتبديل وكشف ما فى هذه الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات، وتسخير هذا كلّه فى المهمة الضخمة التى وكّلها الله إليه، فلقد وهب الله هذا الخليفة من الطاقات الكامنة والاستعدادات المذخورة، ووهب له من القوى الخفيَّة ما يحقق المشيئة الإلهية.

الملائكة الذين خاطبهم:

ذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالملائكة عامة الملائكة فكل الملائكة خوطبوا.

---

(1) سورة البقرة آية ٣٠.

وذهب بعضهم إلى أن المراد بالملائكة الذين حاربوا مع إبليس.

وقال كثير من الصحابة والتابعين: إنهم جماعة من الملائكة، يقول الفخر الرازى: (اختلفوا في أن المراد من قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ كل الملائكة أو بعضهم، فروى الضحاك عن ابن عباس أنه سبحانه وتعالى إنما قال هذا القول للملائكة الذين كانوا محاربين مع إبليس؛ لأن الله تعالى لما أسكن الجن الأرض فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء وقتل بعضهم بعضا بعث الله إبليس في جند من الملائكة فقتلهم إبليس بعسكره حتى أخرجوهم من الأرض وألحقوهم بجزائر البحر، فقال تعالى لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وقال الأكثرون من الصحابة والتابعين: إنه تعالى قال ذلك لجماعة الملائكة من غير تخصيص؛ لأن لفظ الملائكة يفيد العموم فيكون التخصيص خلاف الأصل) [1]

مرامى قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾:

قول الله للملائكة هذا لا يأخذ رأيهم فى إيجاد الخليفة أو يجرى عليه العدم ويستمر فى العدم، كلا ، فالله هو الفعال لما يريد، ولكن أراد أن يعلم العباد المشاورة. واسم الفاعل «جاعل» اسم فاعل بمعنى المستقبل أى: إنى سأجعل فى الأرض خليفة.

معنى الخليفة:

الخليفة هو مَنْ يخلفُ غيرَه ويقوم مقامه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾[3]، والمراد

---

(١) مفاتيح الغيب للإمام الرازى: ١/٥٨٠، ط دار الغد العربى ، العباسية.

(٢) سورة يونس آية ١٤.

(٣) سورة الأعراف آية ٦٩.

بالخليفة قولان: أحدهما: أنه آدم عليه السلام. والثاني: أن المراد ذريته لأن آدم لم يُفسِدْ في الأرض والذين أفسدوا هم الذُّرية. وسماهم الله خليفة لأنهم يخلف بعضهم بعضاً، وسمَّى آدم خليفة لأنه كان خليفة لمن خُلِق قبله وهم الجن، أو سمَّاه خليفة لأنه يخلف اللهَ في الحكم بين المكلَّفين أي: يُجْرى الأحكام وينفِّذ أوامر الله، وهذا هو المعنى في قوله تعالى: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [1].

٢- قال تعالى: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

مرامي هذا القول:

قول الملائكة هذا ليس اعتراضاً على الله ولا طعناً في بني آدم على وجه الغيبة، فإنهم أعلى عن ذلك لما يأتي:

قال تعالى عن الملائكة: ﴿لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[2]، وقال الله عن الملائكة أيضاً: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[3]، وقال الله عنهم أيضاً: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ، لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[4]، فهذه الآية تدل على أنهم لم يكونوا معترضين فهم معصومون. وجمهور العلماء اتفقوا على ذلك.

مصدر معرفة الملائكة على كلامهم أن الخليفة وذريته يفسدون في الأرض،

---

(١) سورة ص آية ٢٦.
(٢) سورة التحريم آية ٦.
(٣) سورة النحل آية ٥٠.
(٤) سورة الأنبياء آية ٢٦ ، ٢٧.

قـــال تعـــالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾،

لقد عرفتْ الملائكةُ أنهم يفسدون ويسفكون الدماء إمَّا بإخبار من الله، أو أنهم عرفوا هذا من صفة هذا الخليفة فى اللوح المحفوظ، أو أنهم قاسُوا هذا المخلوق على الخالق السابق وهم الجن، فهم لا يعرفون الغيب إلاَّ من أطلعه الله منهم عليه.

ومصدر الإفساد من الإنسان لأن فى كل إنسان ثلاث قوى: شهوانية وغضبية وعقلية، فبالأولى والثانية يقع الإفساد، وبالثالثة يقع الضبط للشهوانية والغضبية فيحصل الكمال والفضل، فنظرت الملائكة إلى الشهوانية والغضبية وغفلوا عن الثالثة ، لذلك قالوا قولهم.

وقول الله عن الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ كلام الملائكة هذا: نحن نسبح متلبسين بحمدك أو ننزهك عما لا يليق بجلالك وكمالك وجلالك، فنحن أحق بالاستخلاف منهم.

قال الله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أى: إنى أعلم من المصلحة فى استخلاف آدم، فمن ذريته المطيع والعاصى فيظهر العدل بينهم.

أطوار خلق آدم عليه السلام

مرَّ آدم عليه السلام فى خلقه بأطوار مختلفة: فمادة خلقه الأصلية كانت تراباً قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (١).

---

(١) سورة آل عمران آية ٥٩.

هذه الآية تكشف عن أمر غاب عن البشر فهو أمر غيبي، بيَّن الله أن المادة الأصلية لآدم هي التراب وأتى هذا البيان في معرض الحديث عن نفي بنوة عيسى والتي زعمها النصارى، وقال الله عن هذا الزعم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]،فلما زعموا هذا الزعم دحض الله افتراءهم فقال ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

يقول الحافظ ابن كثير: (﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ﴾ في قدرة الله حيث خلقه من غير أب ﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾ فإن الله تعالى خلقه من غير أب ولا أم بل ﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ فالذي خلق آدم، قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأَوْلى والأحْرَى، وإن جاز ادِّعاء البنوة في عيسى بكونه مخلوقاً من غير أب، فجواز ذلك في آدم بالطريق الأَوْلى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك – أي: بنوة آدم– باطل، فدعواها في عيسى أشدُّ بطلاناً وأظهر فساداً، ولكن الرب جل جلاله أراد أن يُظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، كما خلق بقية البريَّة من ذكر وأنثى، ولهذا قال تعالى في سورة مريم: ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾)[3].

---

(١) سورة البقرة آية ١١٦.

(٢) سورة المائدة آية ١٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم : ٤٠/٢ دار الشعب.

ففى هذا الإطار بين الله تعالى أن آدم خلق من غير أب ولا أم. ومادة خلقه الأصلية هى التراب.

(قد ذكر السدّيّ عن أبي مالك وأبي صالح، عن ابن عبّاس، وعن مُرَّةَ عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: «بَعَثَ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ جِبْرِيلَ فِي الأَرْضِ لِيَأْتِيهِ بِطِينٍ مِنْهَا، فَقَالَتِ الأَرْضُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ أَنْ تَنْقصَ مِنِّي أَوْ تَشِينَنِي، فَرَجَعَ وَلَمْ يَأْخُذْ وَقَالَ: رَبِّ إِنَّهَا عَاذَتْ بِكَ فَأَعَذْتُهَا فَبَعَثَ ميكَائيلَ فعاذت منه فأعاذها فرجعَ فقال كما قال جبريلُ، فبعثَ ملَكَ الموتِ فعاذت منه فقال: وأنا أعوذُ باللّهِ أن أرجعَ ولم أُنَفِّذْ أمرَه، فأخذ من وجهِ الأرضِ وخَلَطَهُ ولم يأخذْ من مكانٍ واحدٍ وأخذ من تربةٍ بيضاءَ وحمراءَ وسوداءَ، فلذلك خرجَ بنو آدم مُخْتَلِفِينَ، فصَعد به فَبَلَّ الترابَ حتى عادَ طيناً» [1].

الطور الثاني: الطين:

لقد بل ملك الموت الترابَ فخلطه بالماء فصار طيناً قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسَانِ مِن طِينٍ﴾ [2].

فالطين هو الطور الثانى فى الأطوار التى مرَّ خلقُ آدم بها، وهذا الطين له خصوصية وهو أنه يلصق باليد وفى شأن ذلك يقول تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾[3] فهذا الطين لازب يلصق باليد، ومعناه أنَّ أصل خلقهم آدم ضعيف فلا يتكبرون وخلق آدم من الطين اللازب وخلقهم من ذكر وأنثى، فلماذا أسند الخلق من الطين لهم؟

لأن لهم نصيباً فى هذا الخلق لأنهم ذريته، فخلقهم كخلقه من هذا الوجه.

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ٨٥/١، ٨٦، ط مكتبة المعارف، بيروت.
(٢) سورة السجدة آية ٧.
(٣) سورة الصافات آية ١٢.

الطور الثالث والرابع: الحَمَأ المسنون والصلصال:

فالحمأ المسنون: هو الطين الذى يترك حتى تتغير رائحته.

والصلصال: هو الطين اليابس الذى يُسمع له صلصلةٌ أى صوت إذا نُقِر. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[1].

فالمراد بالإنسان فى هذه الآية والآية السابقة ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ هو آدم عليه السلام. فأل للعهد وليست للجنس.

معنى اسم آدم:

(آدم: أبُو البَشَر، قيلَ: سُمِّيَ بذلِكَ لكَوْن جَسَدِهِ مِن أدِيمِ الأرض، وَقيلَ: لِسُمْرَةٍ في لَوْنِهِ، يقالُ رَجلٌ آدَمُ نحوُ أسْمَرَ، وقيل سُمِّيَ بذلكَ لكَوْنِهِ مِنْ عَنَاصِرَ مُخْتَلِفَةٍ وَقُوىً مُتَفَرِّقَةٍ، كما قالَ تعالى: ﴿أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ أى: أخلاط وَيقالُ: جعلتُ فُلاناً أُدْمَةَ أَهْلِي أيْ خَلَطْتُهُ بهِمْ، وَقيلَ: سُمِّيَ بذلك لما طُيِّبَ بِهِ مِنَ الرُّوح المَنْفُوخ فيه المذكور في قولِهِ: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ وَجَعَلَ له به العَقْلَ والفَهْمَ وَالرَّوِيَّةَ التي فُضِّلَ بها عَلَى غيرِهِ)[2].

روى الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية: (خلق الله آدم بيده لئلا يتكبّر إبليس عليه، فخلقه بشراً فكان جسداً من طين أربعين سنةً من مقدار يوم الجمعة، فمرّت به الملائكة ففزعوا منه لمّا رأوه، وكان أشدهم منه فزعاً إبليس، فكان يمرّ به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له من صلصلة، فذلك حين يقول: ﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ ويقول-أى إبليس-: لأمر ما خُلقتَ، ودخل مِنْ فِيه وخرج من دبره وقال للملائكة: لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صَمَدٌ وهذا أجوف، لئن سُلِّطت عليه لأهلكنّه.

---

(١) سورة الحجر آية ٢٧.

(٢) المفردات فى غريب القرآن : ص١٤، للراغب الأصفهانى ، ط مصطفى البابى الحلبى.

فلما بلغ الحين الذي يريد الله ﷻ أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة: إذا نفختُ فيه من روحي فاسجدوا له، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس فقالت الملائكة: قل: الحمد لله، فقال: الحمد لله، فقال له الله: رحمك ربك، فلما دخلت الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخلت الروح في جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلان إلى ثمار الجنة. وذلك حين يقول الله تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [1]. وصار الصلصال حيًّا من لحم ودم وعصب وعظم وحركة يتحرك بإرادته.

وهكذا تم خلق آدم. روى الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ: «كان طول آدم، ستين ذراعاً فى سبع أذرع عرضاً».

معالم فى حياة آدم

أولاً: بيان فضل آدم بتعليمه الأسماء كلها:

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [2].

الأسماء: جمع اسم، وهو ما يدل على معنى ولو كان ذاتاً وجرماً وإنساناً وحيواناً وطيراً وكائناً، فالاسم علامة للشيء ودليله الذى يرفعه إلى الذهن أى يوصله إلى الفطنة.

---

(١) البداية والنهاية: ٨٦/١.

(٢) سورة البقرة: الآيات: ٣١ – ٣٣.

فالله ﷻ علَّم آدم أسماءَ المسميات حتى القصعة والحشرة وحتى ما يخرج من جوفه من ريح وغيره، فعلم المسميات مشترك بينه وبين الملائكة، بيد أنه اختص عنهم بمعرفة أسماء المسميات فهم يعرفون ذات المسمى وشكله ولا يعرفون اسمه، أمَّا آدم فأعلمه الله المسميات واسمها، فعرض الله المسميات على آدم والملائكة، فقال للملائكة: أخبرونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين فى أنى لا أخلق أعلمَ منكم وأنكم أحق بالخلافة، قالوا : سبحانك تنزيهاً لك عن الاعتراض عليك. لا علم لنا إلاَّ ما علمتنا إياه إنك أنت العليم الحكيم الذى لا يخرج شىء عن علمه وحكمته، قال الله تعالى: يا آدم أخبر الملائكة بأسماء المسميات التى لم يعرفوها حين عرضت عليهم، فلما أخبرهم آدم بها قال الله تعالى: ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تظهرون من قولكم وما تُسرون؟ فعرف الملائكة فضل آدم عليهم بهذا الاختبار الذى تم فى الملأ الأعلى.

ثانياً: سجود الملائكة :

الهدف من السجود ومعناه :

هذا السجود هو سجود تكريم وليس سجود عبادة؛ لأن الله ﷻ واحد لا شريك له فلا يأمر أحداً بالتوجه بالعبادة إلى سواه، وهذا السجود من حشود الملائكة كان بمثابة الاحتفال بتمام خلق آدم وظهوره بشراً سوياً، يقول الجمل – رحمه الله– فى الفتوحات الإلهية : (السجود فى الأصل تذلل مع تطامن، وفى الشرع وضع الجبهة على الأرض قصد العبادة والمأمور به إمَّا المعنى الشرعى فالمسجود له فى الحقيقة هو الله تعالى، وجُعِل آدمُ قبلةَ سجودهم تعظيماً لشأنه أو سبباً لوجوبه كما جعلت الكعبة قبلة للصلاة والصلاة لله، فمعنى اسجدوا له أى

إليه، وأمَّا المعنى اللغوى وهو التواضع لآدم تحية وتعظيماً له كسجود إخوة يوسف له فى قوله تعالى: ﴿وخرُّوا لَهُ سُجَّدا﴾ فلم يكن فيه وضع الجبهة بالأرض إنما كان الانحناء، فلما جاء الإسلام أبطل ذَٰلِكَ بالسلام. فالسجود لآدم سجود تعظيم ثم نسخ الإسلام هذه التحية وجعل التحية هى السلام) [1].

فالسجود لآدم كان انحناءً من غير وضع الجبهة على الأرض وهذا هو الرأى الذى نراه صحيحاً لأن العرض والحدث لم يكن فى الأرض. ونحن نخالف من ذهب إلى أنه كان بوضع الجبهة على الأرض.

إبليس يشذ عن الملائكة ويابى السجود.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝﴾ [3].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝﴾ [4].

أمر الله الملائكة بالسجود لآدم فأبى إبليس وامتنع عن السجود، وإباء إبليس كان مثار خلاف بين العلماء هل هو من الملائكة أو هو من الجن؟

---

(١) الفتوحات الإلهية : ٤٠/١.
(٢) سورة البقرة آية ٣٤.
(٣) سورة الحجر آية ٢٩ - ٣١.
(٤) سورة الكهف آية ٥٠.

القائلون بأنه من الملائكة :

قال فريق من العلماء بأنه من الملائكة، وذهب إلى هذا كثير من العلماء منهم البغوى والواحدى والقاضى فقالوا: (كان من الملائكة وإلا لم يتناوله أمرهم ولم يصح استثناؤه منهم، قالوا ولا يَرِدُ على ذَٰلِكَ قوله: ﴿إلاَّ إبْليسَ كان من الجن﴾ لجواز أن يقال: كان من الجن فعلاً ومن الملائكة نوعاً، أو لأن الملائكة قد يسمون جناً لاختفائهم، والحاصل أن ما ذكروه محاولة على جعل الاستثناء متصلاً وهو الأصل)[1]، أى أن المستثنى إبليس من جنس المستثنى منه الملائكة.

القائلون بأنه ليس من الملائكة :

وذهب فريق إلى أن الاستثناء منقطع وأنه ليس من جنس الملائكة، فهو من الجن وآية الكهف تبين ذَٰلِكَ، وذهب إلى هذا الجلالان السيوطى والمحلى وغيرهما.

والذى أراه :

أن إبليس ليس من الملائكة لاختلاف طبيعته وطبيعة الملائكة فإن الله فطرهم على طاعته قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ. يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾[3].

---

(١) المرجع السابق : ص٤١.
(٢) سورة التحريم آية ٦.
(٣) سورة الأنبياء آية ١٩، ٢٠.

روى البخاري بسنده عن أبي ذر ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ: إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماء وحق لها أن تئطّ ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله تعالى ساجدا، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفُرُش ولخرجتم إلى الصّعدات تجأرون إلى الله تعالى»[1].

فمن طبيعة المَلَك الفطرية التى خُلِقَ عليها أن ينصاع بفطرته لأمر الله تعالى فلا يخالف أمره، أمّا غير الملائكة فيقع منهم التمرد والمخالفة، كالجن والإنس، ولقد بينت آية الكهف حقيقة إبليس، قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾[2]، وذهب الحسن البصرى إلى أنه (لم يكن من الملائكة طرفة عين وإنه لأصل الجن كما أن آدم أصل البشر. وقال شَهْرُ بنُ حَوْشَبٍ وغيره: كان إبليس من الجنّ الذين طردهم الملائكة، فأسره بعضهم وذهب به إلى السماء. رواه ابن جرير.

قالوا: فلما أراد الله خلق آدم ليكون في الأرض هو وذريته من بعده، وصوّر جثته منها، جعل إبليس وهو رئيس الجان وأكثرهم عبادة إذ ذاك وكان اسمه عزازيل يطيف به، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك. وقال: أما لئن سُلِّطتُ عليك لأهلكنّك، ولئن سلطت عليَّ لأعصينّك فلما أن نفخ الله في آدم من روحه وأمر الملائكة بالسجود له دخل إبليس منه حسد عظيم، وامتنع من السجود له. وقال أنا خير منه، خلقتني من نار وخلقته من طين، فخالف الأمر واعترض على الربّ ﷻ، وأخطأ في قوله وابتعد من رحمة ربّه، وأنزل من مرتبته التي كان

---

(١) رواه البخارى باختصار والترمذى و الحاكم و قال: صحيح الإسناد.

(٢) سورة الكهف آية ٥٠.

قد نالها بعبادته؛ وكان قد تشبّه بالملائكة، ولم يكن من جنسهم لأنه مخلوق من نار وهم من نور، فخانه طبعه في أحوج ما كان إليه، ورجع إلى أصله الناري) [1].

فإبليس من الجن ووصل إلى مرتبة الملائكية بعبادته التى أتقنها وكان حاضراً وقت الأمر فصار مأموراً معهم، ولو لم يكن مأموراً ما عاتبه الله تعالى بقوله : ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[2]، وقوله تعالى : ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾[3]، فيكون الاستثناء منقطعاً أى أن إبليس المستثنى ليس من جنس المستثنى منه ، فإبليس من الجن، أمّا من قال: إنه كان من حيٍّ من الملائكة يقال لهم: الجن، فهذا مستبعد لأن كلمة الجن لم تطلق فى القرآن على الملائكة بل أطلقت كلمة «الجِنَّة» -بكسر الجيم- على الملائكة ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [4].

فالمراد بالجِنَّة هم الملائكة، وقد سمَّاهم مشركو مكة بنات الله وسموا بالجنة لاستتارهم عن الأعين، أمَّا الجن فإنها كلمة خاصة بعالم الجن الذى حدثنا عنه القرآن الكريم فى سورة الأنعام وسورة الأحقاف وسورة الرحمن وسورة الجن، فلا علاقة بين الجن والملائكة من حيث الخلق والماهية.

ثالثاً: خلق حواء من ضلع آدم:

لقد خلق الله حواء من ضلع آدم (ولكن حكى السُّدِّي عن أبي صالح وأبي مالك عن ابن عبّاس وعن مُرَّة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة أنهم قالوا:

---

(١) البداية والنهاية : ١/٥٥، ٥٦.
(٢) سورة الأعراف آية ١٢.
(٣) سورة ص آية ٧٥.
(٤) سورة الصافات آية ١٥٨.

أخرج إبليس من الجنّة وأسكن آدم الجنة فكان يمشي فيها وحيداً ليس له فيها زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه أمرأة قاعدة، خلقها الله من ضلعه، فسألها: من أنت؟ قالت: امرأة. قال: ولم خلقت؟ قالت: لتسكن إليّ، فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه: ما اسمها يا آدم قال: حواء قالوا: ولم كانت حواء؟ قال لأنها خلقت من شيء حي.

وذكر محمد بن إسحاق عن ابن عبّاس أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائم ولأم مكانه لحماً.

ومصداق هذا في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾(١)، وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ (٣))(٤).

فهذا يدل على أن حواء خلقت من جسد آدم بخلاف ما ذهب البعض إلى أن الله خلقها كآدم، أورد فضيلة الشيخ عبد الوهاب النجار هذا القول وعلق عليه فقال: (ومن الجائز أن يكون الله قد خلقها كما خلق آدم وأن يكون قوله تعالى: ﴿وخلق منها زوجها﴾ أى من جنسها وعلى صورتها، وحينئذٍ تكون المادة التى أخذت منها المرأة غير متعرَّض لها. والرأى الأول النفس إليه أميل) (٥).

---

(١) سورة النساء آية ١.
(٢) سورة الأعراف آية ١٨٩.
(٣) سورة الزمر: الآية رقم: ٦.
(٤) البداية و النهاية: ٧٤/١.
(٥) قصص الأنبياء: ص٨، ط دار إحياء التراث العربي، سوريا.

و خلق حواء كان قبل دخول الجنة، وقيل: بعد دخول الجنة واستدلوا برواية السدى السابقة «يمشى وحشى».

سكنى آدم وحواء الجنة وخروجهما منها

ما حقيقة الجنة التى أسكنها الله آدم وحواء ثم خرجا منها؟

أمر الله آدم عليه السلام أن يسكن هو وزوجه الجنة فقال له: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [1].

وقال الله تعالى له ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى، فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى، إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى، وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى﴾ [3].

ولقد اختلف العلماء فى حقيقة هذه الجنة إلى فُرَقاء أربعة:

الفريق الأول: هو جمهور العلماء، قالوا: إنها جنة المأوى وهى فى السماء . فالألف واللام فى لفظ «الجنة» فى الآيات السابقة ليست للجنس ولا لمعهود لفظى، ولكنها تعود على معهود ذهنى وهو المستقر شرعاً من جنة المأوى، كقول موسى عليه السلام لآدم عليه السلام: «علام أخرجتنا ونفسك من الجنة؟» وروى مسلم فى

---

(١) سورة البقرة آية ٣٥.

(٢) سورة الأعراف الآيتان: ١٨، ١٩.

(٣) سورة طه الآيات: ١١٦، ١١٩.

صحيحه بسنده قال: (حَدَّثَنَا أَبُو مَالِكٍ الأَشْجَعِيّ عَنْ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبُو مَالِكٍ عَنْ رِبْعِيَ، عَنْ حُذَيْفَةَ قَالاَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: "يَجْمَعُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلاّ خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ)؟ وذكر الحديث بطوله، وقال ابن كثير وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة فى الدلالة على أنها جنّة المأوى وليست تخلو عن نظر.

الفريق الثانى: الجنة التى أسكنها الله آدم لم تكن جنة الخلد. واستدلوا على ذلِكَ بما يأتى: أنه كُلِّف فيها ألا يأكل من تلك الشجرة، ولأنه نام فيها وأخرج منها، ودخل عليه إبليس فيها وهذا مما ينافى أن تكون جنة المأوى، وهذا محكى عن أُبَيّ بن كعب وعبد الله بن عباس ووهب بن منبِّه وسفيان بن عيينة، واختاره ابن قتيبة والقاضى منذر بن سعيد البلوطى وحكاه عن أبى حنيفة وأصحابه رحمهم الله [(١)].

الفريق الثالث: أنها جنة أعدها الله لآدم وزوجه، وجعلها دار ابتلاء لهما، وليست جنة الخلد التى جعلها دار جزاء، واختلف أصحاب هذا الرأى إلى قولين:

١- أنها فى السماء لأنه أهبطهما منها وهذا قول الحسن.

٢- أنها فى الأرض لأنه امتحنهما فيها بالنهى عن الشجرة التى نُهيا عنها دون غيرها من الثمار [(٢)].

الفريق الرابع: التوقف فى أمر هذه الجنة، فهى جنة قالها الله فنسلم بذلك.

---

(١) انظر: قصص الأنبياء للحافظ ابن كثير: ص١٦، ١٧.

(٢) المرجع السابق.

والذى أراه

أنها جنة المأوى، وما استدل به أصحاب الرأى الثانى على أنها جنة فى الأرض بدليل أن آدم كُلِّف فيها والجنة ليس فيها تكليف، فالله يكلف ما يشاء وفى أى مكان شاء، ولو كان فى الجنة حتى يتحقق إعمار الأرض، وقالوا: الجنة من دخلها لا يخرج منها، ولكن بإرادة الله فإن أراد إخراج أحد منها أخرجه، أمَّا دخول إبليس إليهما وإغواؤهما فيجوز دخوله ويجوز أن تكون الوسوسة من بعيد ولا يحتاج هذا إلى سؤال ونحن فى عصر الإنترنت والمحمول فيقاس على ذلك فمن خارج الجنة وسوس لهما.

الشجرة التى أكل منها آدم وحواء :

اختلف العلماء فى تعيينها، فقال بعضهم: الحنطة، وقال بعضهم : النخلة، وقال بعضهم: التين. وقيل غير ذلك، فالله نهى عن القرب من هذه الشجرة وفيه مبالغة فى النهى عن الأكل منها، وقد أبهم الله ذكر الشجرة وتعيينها لأن ذكرها ليس فيه مصلحة، بل المصلحة فيما ذكر، نسى آدم النهى فأكل هو وزوجه، وليست حواء هى التى دفعته إلى الأكل . قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[2]، وقال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى﴾[4].

---

(١) سورة طه آية ١١٥.
(٢) سورة طه آية ١٢١.
(٣) سورة الأعراف آية ٢٠.
(٤) سورة طه آية ١٢٠.

فهذه الآيات لا تدل على أن لحوّاء دخلاً فى أكلهما من الشجرة كما فى الكتب المحرّفة السابقة، بل الشيطان هو الذى أغواهما وهو المسئول عن ذلك، بل الوسوسة كانت لآدم كما صرحت آية سورة طه، فحواء بعيدة بل وجدت زوجها أكل فأتبعته.

ما قاله إبليس فى وسوسته :

﴿ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى﴾

لقد أغوى إبليسُ آدمَ ووسوس إليه وإلى زوجه وقال لآدم هل أدلك على الشجرة التى تدرأ عنك الفناء والموت وعلى ما يلازم البقاء من الملك؟ فدله على الشجرة التى نهاه الله عنها. وقال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ، وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ، فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾[1]، قول إبليس لهما : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلاّ كراهة أن تكونا مَلِكين على قراءة كسر اللام، أى: كراهة أن تكونا مَلِكين من ملوك الدنيا أو تكونا من الخالدين الذين لا يموتون، وأقسم لهما بالله إنه لهما من الناصحين فى هذا الإرشاد لهما، وآدم لم ينتبه فهو الذى أبى أن يسجد له واحتقر خلقه من طين وزعم أنه أفضل منه.

ثمرة مخالفة الله تعالى واتباع أمر إبليس:

﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا

---

(١) سورة الأعراف الآيات: ٢٠ - ٢٢.

عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[2]، لما أكلا من الشجرة وبمجرد الذوق ووجود طعمها على لسانهما ظهرت عورتهما فظهر من كل واحد منهما قُبُلُه ودبره، وسمى الله عورتهما سوأة لأن انكشافها يسوء صاحبها، وشَرَعَا يلزقان على سوءاتهما من ورق الجنة حتى يستراها بهذا الورق، وناداهما ربهما مستفهماً استفهاماً تقريرياً: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

اعتراف آدم بخطيئته :

لقد أيقظ الاستفهام التقريري الانتباه لدى آدم وزوجه، فاعترفا بالذنب قائلَيْن ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[3]، وبهذا أبدى آدم وحواء ندمهما على ما بدر منهما وتابا إلى الله بعد إقلاعهما عن الذنب والندم عليه، فتاب الله عليه بعد أن ألهمه ولقنَّه الكلمات التى يتوب بها ، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[4]، وهى الكلمات التى سبق ذكرها ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ، وقال تعالى عن قبول التوبة: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [5].

---

(١) سورة الأعراف آية ٢٢.
(٢) سورة طه آية ١٢٣.
(٣) سورة الأعراف آية ٢٣.
(٤) سورة البقرة آية ٣٧.
(٥) سورة طه آية ١٢٣.

إخراج آدم من الجنة :

قال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾(1).

وقال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾(2)، ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أى: نحاهما عن الجنة ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من النعم . ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ أمرهما الله فى الآية الأولى بصيغة المثنى «اهبطا» وهذا الأمر لآدم وحواء. وأمرهما بصيغة الجمع «اهبطوا» أى: اهبطوا بما اشتملتما عليه من ذريتكما بعضكم أى بعض الذرية لبعض عدو، أو أن الأمر بالجمع لآدم وحواء وإبليس، وهذا الأخير لهما عدو.

قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾(3).

أى: اهبطوا إلى الأرض والذرية التى فى ظهر آدم، فإما يأتينكم منى كتاب ورسول فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

أخذ العهد على ذرية آدم :

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا

---

(1) سورة طه : ١٢٤

(2) سورة البقرة آية ٣٦.

(3) سورة البقرة آية: ٣٩.

غَـٰفِلِينَ، أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾[1].

عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عبّاس عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ أَخَذَ المِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنُعْمَانَ يَوْمَ عَرَفَةَ فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَاهَا فَنَثَرَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ. ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قُبُلاً قَالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾»[2].. الخ.

والمعنى: واذكر حين أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم بأن أخرج بعضهم من صلب بعض من صلب آدم نسلاً بعد نسل، ونصب لهم دلائل ربوبيته وركّب فيهم عقلاً، وأشهدهم على أنفسهم: ألستُ بربكم؟ قالوا: بلى. أنت ربنا شهدنا بذلك، والإشهاد بأن لا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا التوحيد غافلين لا نعرفه، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبلنا وكُنَّا ذريَّةً من بعدهم فاقتدينا بهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون من آبائنا بتأسيس الشرك؟ فلا يمكنهم الاحتجاج بذلك مع إشهادهم على أنفسهم بالتوحيد حين أخذوا من صلب آدم.

آدم أول البشر

آدم المذكور فى القرآن الكريم هو أبو البشر وهو الذى خلقه الله بيده، قال تعالى: ﴿قَالَ يَآ إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَـٰالِينَ﴾[3]، وخلقه من تراب ثم من طين وحمأ مسنون ثم صلصال كالفخار، ثم صار إنساناً سويًّا. وقول الله ﷻ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، أى يخلفنى

(١) سورة الأعراف الآيتان: ١٧٢، ١٧٣.
(٢) البداية والنهاية: ٩٠/١.
(٣) سورة ص آية ٧٥.

في تنفيذ أحكامي أو يخلف بعضهم بعضاً. فقوله: إني خالق في الأرض خليفة يقطع لسان «دارون» وفريقه الذين يقولون بنظرية التطور وأن الإنسان أصله قرد، ومن قال: إن هناك أوادم قبل آدم اعتماداً على هذا القول، (قد وجد من البشر في الأزمان الغابرة والحاضرة من يدعون أن آدم كان عبداً من عبيدهم هرب إلى الغرب وجاء بأولاده وإلى هذا يشير المعرّي بقوله:

تَقولُ الهِندُ آدَمُ كانَ قِنّاً ∴ لَنا فَسَرى إِلَيهِ مُخَبِّبوهُ

وإلى القول بوجود أوادم سوى آدم يشير بقوله:

جائِزٌ أَن يَكونَ آدَمُ هَذا ∴ قَبلَهُ آدَمٌ عَلى إِثرِ آدَم

وهناك فريق من النّاس يرجح أنه ليس أول نوعه، ويستأنسون لذلك بقول الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ ويقول هذا الفريق إن الملائكة لم يقولوا ذَٰلِكَ إلاَّ لرؤيتهم مَنْ تقدموا آدم من الخلق الذين على صورته قد فعلوا ذَٰلِكَ، وأن آدم إنما كان خليفة عن بشر كانوا من جنسه وبادوا، وكل هذه الأقوال لا تستند إلى نص قطعي الثبوت والدلالة)[1].

فهؤلاء فسروا قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ على هواهم وقالوا: إن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ لم يقولوا ذَٰلِكَ إلاَّ لرؤيتهم مَنْ تقدموا آدم من الخلق الذين على صورته قد فعلوا ذَٰلِكَ. وهذا رجم بالغيب فالملائكة قالوا ذَٰلِكَ عندما اطلعوا على اللوح المحفوظ فعرفوا منه إفساد وقتل بني آدم، أو أنهم عرفوا طبيعة آدم من حيث الفطرة والغرائز فقالوا ذَٰلِكَ.

(١) قصص الأنبياء، الشيخ عبد الوهاب النجار: ص١١، ١٢.

نبوة آدم ورسالته :

إن الله ﷻ لم يذكر نبوة آدم ضمن منظومة الأنبياء والرسل كنوح وإبراهيم وإسماعيل وموسى وعيسى وغيرهم؛ لأن له خصوصية وهى أنه أول الخلق، ومن المسلمات والحقائق والبديهيات أن الله لم يتركه يواجه مستقبلاً مجهولاً على الأرض بل زوّده برسالة أولية تليق به وبذريته الأقربين فى زمانه وتناسب خَلْقَه وقدراته. والدليل على أنه نبى ورسول ما يأتى:

١- أن الله علمه الأسماء كلها كما مرَّ آنفاً، ومن الضرورى أن يعلمه ما يتعلق من عبادات لله ومن أوامر ونواهٍ فهذا الأساس سيتوالى عليه صرح الرسالات بعد ذلك.

٢- لقد كلّم الله آدم دون واسطة فى مواقف متعددة هى:

أ- قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾[1].

ب- وقال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾[2].

جـ- وقال تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ﴾[3].

د- وقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾[4].

---

(١) سورة البقرة آية: ٣٤.
(٢) سورة البقرة آية ٣٦.
(٣) سورة البقرة آية ٣٧.
(٤) سورة الأعراف آية ٢٢.

٣- كلف الله آدم تكليفاً كالتشريع فى موقفين:

أ- قال تعالى: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾[1]

ب- قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾[2]

لقد كُلِّف آدم بتشريع ليطبقه وتطبقه ذريته، ولقد ذكر فى قصة آدم بعض هذا الذى تفتقر إليه المواقف، وباقى التشريع لم يتحدث عنه القرآن وهو الذى علَّمه الله ضمن ما علمه من الأسماء كلها ، وفى هذا دليل على نبوته ورسالته.

هل معصية آدم تتنافى مع عصمته كرسول؟

معصية آدم ليست منافية للعصمة، وذلِكَ من وجوه:

(الأول: أن يكون ذلِكَ منه على سبيل النسيان[3] ، وإنما سُمِّى ما أتاه ناسياً خطيئة ومعصية وغواية[4] لأن النبى ﷺ لما كان ليس كأحد النَّاس، وكان التنبُّه والحذر من مخالفة الله لازماً له ، فإذا نسى عُدَّ ذلِكَ خطيئة فى حقه وإن كان غير خطيئة إذا صَدَرَ من غيره، وحسنات الأبرار سيئات المقربين.

---

(١) سورة الأعراف آية ١٩.

(٢) سورة البقرة آية ٣٧.

(٣) كما قال تعالى: (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) (طه: ١١٥).

(٤) كما قال تعالى: (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) (طه: ١٢١).

الثاني: أنه تأوّل فيما فعل إذ فهم أن الأمر والنهي ليسا جازمين بحيث يترتب على المخالفة الغضبُ والمجازاة، بل فهمه أمْرَ إرشادٍ فقط ونَهْيَ إرشادٍ، وما كان من هذا القبيل لا تحرم مخالفته كما حمل الفقهاء الأمر بكتابة الدَّيْن على أنه أمر إرشاد ولا إثم بتركه.

الثالث: أن ما حصل من الذنب صغيرة وهذا لا يتأتى إلاَّ على رأى من يقول: إنَّ الأنبياء غير معصومين من الصغائر.

الرابع: أن آدم تأول فى أكله من الشجرة لأن الله أراه الشجرة التى نهاه عن الأكل منها فتأوّل أنه نهاه عن عينها ولم ينهه عن جنسها فأكل من شجرة أخرى من جنسها)[1].

لماذا أدخل الله آدم الجنة وأخرجه منها؟

لقد أدخل الله آدم الجنة وأخرجه منها، وهذا كان درساً له ولذريته حتى يكون سبب العداوة ماثلاً لكل فرد من ذريته، فلا يترك له مجالاً للأمان، ولقد قال الله تعالى عن هذه العداوة: ﴿يَا بَنِى آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[2]،

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾[3]،

(١) قصص الأنبياء للنجار: ص١١.
(٢) سورة الأعراف آية ٢٧.
(٣) سورة الكهف آية ٥٠.

وقال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يا آدَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِىٓ آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ ٱلشَّيطَـٰنَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[2].

من هذا المنطلق ندرك أن البلاء الذى حلَّ بآدم أصبح تجربة مريرة يتعظ بها ذريته فلا يطيعون الشيطان ولا يتخذونه من دون الله وليًّا.

محاجّة آدم لموسى:

روى البخارى ومسلم واللفظ له، بسندهما عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال: (احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَىَ. فَقَالَ مُوسَىَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا. خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ. فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَىَ. اصْطَفَاكَ اللّهُ بِكَلاَمِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَىَ أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟" فَقَالَ النَّبِيِّ ﷺ: "فَحَجَّ آدَمُ مُوسَىَ. فَحَجَّ آدَمُ مُوسَىَ).

موت آدم عليه السلام:

روى الترمذى بسنده عن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال رَسولُ الله ﷺ : "لَمَّا خَلَقَ الله آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَي كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصاً[3] مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، مَنْ هَؤُلاءِ؟ قال: هَؤُلاَءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَرَأَى رَجُلاً مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ ما بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فقال: أَيْ رَبِّ، مَنْ هَذَا؟ فقال: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الأُمَمِ مِن ذُرِّيَّتِكَ

(١) سورة طه آية ١١٧.
(٢) سورة يس آية ٦٠.
(٣) الوبيص: البريق وزناً ومعنى.

يُقَالُ لَهُ دَاوُدِ، قال: رَبِّ وَكَمْ جَعَلْتَ عُمْرَهُ؟ قال: سِتِّينَ سَنَةً، قال: أَيْ رَبِّ، زِدْهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً. فَلَمَّا انْقَضَى عُمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ فقال: أَوَلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قال: أَوَلَمْ تُعْطِهَا لابْنِكَ دَاوُدَ؟ قال: فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذرِّيَّتُهُ وَنَسِيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِيءَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذرِّيَّتُهُ)قال الترمذى: حسن صحيح.

قصة ولدى آدم

قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾(1)،

معالم القصة:

ذكر القرآن قصة ولدى آدم دون أن يذكر اسمهما، فالغرض من القصة العظة والاعتبار وليس الأسماء، ولكن أئمة السلف ذكروا اسمهما وهما قابيل القاتل وهابيل المقتول.

(1) سورة المائدة الآيات ٢٧ - ٣٢.

فعن (ابن عبّاس وعن مُرَّةَ عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الأخرى، وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل، وكان أكبر من هابيل وأخت هابيل أحسن، فأراد هابيل أن يستأثر بها على أخيه، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى فأمرهما أن يقربا قرباناً، فقرب هابيل جذعة[1] سمينة، وكان صاحب غنم، وقرب قابيل حزمة من زرع رديء زرعه، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل[2] وتركت قربان قابيل فغضب وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي، فقال إنما يتقبل الله من المتقين)[3].

(وذكر أبو جعفر الباقر أن آدم كان مباشراً لتقريبهما القربان والتقبّل من هابيل دون قابيل فقال قابيل لآدم: إنما تُقُبِّل منه لأنك دعوت له ولم تدع لي وتوعد أخاه فيما بينه وبينه، فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل في الرعي فبعث آدم أخاه قابيل لينظر ما أبطأ به، فلما ذهب إذا هو به فقال له: تُقُبِّل منك ولم يتقبل مني، فقال: إنما يتقبل الله من المتقين، فغضب قابيل عندها وضربه بحديدة كانت معه فقتله. وقيل: إنه إنما قتله بصخرة رماها على رأسه وهو نائم فشدخته. وقيل: بل خنقه خنقاً شديداً وعضاً كما تفعل السباع فمات. والله أعلم)[4].

ويُفهم من آيات القصة حُسْنُ خلق هابيل وخوفه من الله وتورعه أن يقابل أخاه بالقتل رغم أنه كان أقوى منه، فأعلن لأخيه السلام حين قال له: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ

(١) ولد الشاة في السنة الثانية.

(٢) وهذا دليل قبول قربانه وكان ذلِكَ في كلّ الأمم ما عدا أمتنا.

(٣) البداية والنهاية: ٩٣/١.

(٤) المرجع السابق.

الْعَالَمِينَ ﴾، ولم يحجم قابيل عن قتل أخيه، فكان مجرَّداً من المشاعر والأحاسيس، ولم يرحم مشاعر والده وأمه ففجعهما، فبقتله لأخيه فقد العضد والسند، فحين توجه إلى أخيه بالقتل لم يأخذه على غرة بل أعلنه بالقتل ﴿قال لأقتلنك﴾ ويبدو فى قوله هذا شعور منكر انبعث من قلب مملوء بالحسد والغيظ، ويواجه المعتدَى عليه القتلَ ببراءة ترد الأمر إلى وضعه، وأصله فيه توجيه رقيق للمعتدى أن يتقى الله، وتعريض لطيف لم يصرح بما يخدش حسّاً فى أخيه يزيد من إثارته حتى يهدِّئ نيران حسده ويسكِّن شره ويَنْسِمَ نسمة على أعصاب أخيه المهتاجة فيردَّه إلى جنان الأخوة وبشاشة الإيمان: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ فلما وجد المعتدى عليه أخاه عازماً على إثمه أنذره بقوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ ﴾ أنذره بقوله: إنى أريد أن ترجع بإثم قتلى وآثامك السابقة فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين، وبعد التذكير والإنذار طوّعت للمعتدى نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين، فلقد خسر نفسه فأوردها موارد الهلاك، وخسر أخاه ففقد الناصر والمعين، وخسر دنياه فما تهنأ للقاتل حياة، وخسر آخرته، وعجز القاتل الباطش الفاتك عن أن يستر سوأة أخيه فهى جثةٌ فارقتها الحياة وباتت لحماً يسرى فيه العفن والتحلل تنبعث منه الروائح الكريهة فهى سوأة لا تطيقها النفوس، تسوء إلى كل من يراها وتؤذى كل من يشم رائحتها ﴿فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾، لقد أرسل الله إليه غراباً يحمل جثة غراب ميِّت فشرع يحفر فى الأرض ليريه كيف يفعل بجثة أخيه، فالقاتل لم يكن قد رأى ميتاً يدفن

من قبل، فهو أوَّلُ ميِّت من أبناء آدم، والظاهر من السياق أن ندمه لم يكن ندم توبة وإلاَّ لقبل الله توبته، وإنما كان ندماً ناشئاً من عدم جدوى فعلته وما جرَّت عليه من تعب وعناء وقلق، ويكفى أن له نصيباً فى كل قتل يقع بعده إلى يوم القيامة. روى البخارى بسنده عن عبد الله بن مسعود (عن النبى ﷺ قال: لا تُقتل نفسٌ إلاَّ كان على ابن آدمَ الأول كِفْلٌ منها)، وذكر مجاهد أن قابيل عوجل بالعقوبة يوم قتل أخاه فعلقت ساقه إلى فخذه وجعل وجهه إلى الشمس كيفما دارت.

أمَّا دَمُ المقتول فلقد روى (أن الحافظ ابن عساكر ذكر فى ترجمة أحمد بن كثير - غير الحافظ ابن كثير- أنه رأى النبى ﷺ وأبا بكر وعمر وهابيل وأنه استحلف هابيل أن هذا دمه فحلف له، وذكر أنه سأل الله تعالى أن يجعل هذا المكان يستجاب عنده الدعاء فأجابه إلى ذَٰلِكَ وصدَّقه رسول الله ﷺ وقال: إنَّه وأبا بكر وعمر يزورون هذا المكان كل يوم خميس.

قال الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية: وهذا منام لو صح عن أحمد ابن كثير هذا لم يترتب عليه حكم شرعى. والله أعلم)[1].

حزن آدم على ابنه:

ذكر أهل التاريخ والسير أن آدم حزن على هابيل حزناً شديداً وأنه قال فى ذَٰلِكَ شعراً، فلقد ذكر ابن جرير عن ابن حميد هذا الشِّعر:

تغيَّرتِ البلادُ ومَنْ عليهَا ∴ فَوَجْهُ الأرْض مُغْبَرٌّ قَبِيحْ
تَغَيَّرَ كُلُّ ذِي لَوْنٍ وَطَعْـمٍ ∴ وَقَلَّ بَشَاشَـةُ الوَجْهِ المَلِيحْ

(١) قصص الأنبياء، النجار: ص٢٣.

فأجيب آدم:

أَبَا هَابِيلَ قَدْ قُتِلاَ جَمِيعاً ∴ وَصَارَ الحَيُّ كَالْمَيْتِ الذَّبِيحْ

وَجاء بِشَرَّةٍ قَدْ كَانَ مِنْهَا ∴ عَلَى خَوْفٍ فَجَاءَ بِهَا يَصِيحْ

وورد أن آدم طاف على امرأته فولدت غلاماً ودعت اسمه شيثاً، وقالت: من أجل أنه قد وهب لى خلفاً من هابيل الذى قتله قابيل. وكان عمرُ آدم يوم وُلد له شيث مائة وثلاثين سنة وعاش بعد ذلكَ ثمانمائة)[1].

وفاة آدم:

عن أُبَيِّ بن كعب قال: (إن آدم لمّا حضره الموت قال لبنيه: أي بني إني أشتهي من ثمار الجنة، قال: فذهبوا يطلبون له فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه ومعهم الفؤوس والمساحي والمكاتل. فقالوا لهم: يا بني آدم ما تريدون وما تطلبون؟ أو ما تريدون وأين تطلبون؟ قالوا: أبونا مريض واشتهى من ثمار الجنة، فقالوا لهم: ارجعوا فقد قضى أبوكم. فجاؤوا فلما رأتهم حواء عرفتهم فلاذت بآدم، فقال: إليك عني فإني إنما أتيت من قِبَلَكِ، فخلّي بيني وبين ملائكة ربي عزّ وجلّ، فقبضوه وغسّلوه وكفّنوه وحنّطوه وحفروا له ولحدوه وصلّوا عليه. ثم أدخلوه قبره فوضعوه في قبره، ثم حثوا عليه، ثم قالوا: يا بني آدم هذه سنّتكم. وكبّرت الملائكة على آدم أربعاً)[2].

قال ابن إسحاق: (ولما حضرت آدم الوفاة عهد إلى ابنه شيث وعلّمه ساعات الليل والنهار، وعلّمه عبادات تلك الساعات، وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك.

---

(١) البداية والنهاية: ٩٤/١، ٩٥.

(٢) المرجع السابق: ص٩٨.

قال: ويقال: إن أنساب بني آدم اليوم كلها تنتهي إلى شيث، وسائر أولاد آدم غيره انقرضوا وبادوا. والله أعلم[1].

العبرة من قصة آدم:

أولاً: أن الله ﷻ يستأثر بكثير من علمه وحكمته، فيحجب كثيراً منهما عن خلقه وعن ملائكته المقربين، فحجب سر خلق آدم عن الملائكة حتى تحيَّروا واشتاقوا إلى معرفة الحكمة.

ثانياً: إذا رفع الله شيئاً حقيراً ضعيفاً ألبسه ثياب البهاء والجلال وصيَّره عظيماً ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾[2]، ويترتب على ذلكَ: ومن يعزه الله فلا مُذلّ له. فكذلك خَلَقَ آدم من تراب، وأسجد له الملائكة فهذه مشيئته وقدرته.

ثالثاً: أن رحمة الله تدرك الإنسان إن نسى فعصى أو عصى فباب التوبة مفتوح لا يغلق أبداً إذا تاب العبد ورجع إلى مولاه.

العبرة من قصة ولدى آدم:

أولاً: صراع الخير والشر ولد مع فجر البشرية، وسيظل قائماً إلى أن تقوم الساعة.

ثانياً: قتل ذوى القربى عقابُه عظيم وهو أكثرُ عقاباً من قتل غيرهم.

ثالثاً: الذهاب بحسن الخلق مع ذوى القربى إلى أبعد مدىً.

رابعاً: من بين الخلق جِبلَّةٌ جبلت على الشر لا يردها حسن خلق ولا وداعة كجبلة قابيل.

خامساً: هناك من البشر مَنْ هو سهل مسالم يكره الشر ولا يخطر بخاطره كالوديع الخائف الوَجِل من الله هابيل.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) سورة الحج آية ١٨.

قصة إدريس عليه السلام

معالم القصة :

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ۝٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [1].

وروى البخاري: « ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٢٣ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤ أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ۝١٢٥ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٢٦ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ۝١٢٧ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝١٢٨ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝١٢٩﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ يُذْكَرُ بِخَيْرٍ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ۝١٣٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٣١ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٣٢﴾ [2] يُذْكَرُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ إِلْيَاسَ هُوَ إِدْرِيسُ».

وقول الله تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ هو حي في السماء واختلفت الروايات في حديث الإسراء والمعراج، فبعضها يروى أنه في السماء الرابعة، وبعضها يروى أنه في السادسة، وبعضها يروى أنه في السابعة. وقيل: هو في الجنة أدخلها بعد أن أذيق الموت وأحيي ولم يخرج منها، والله أعلم.

من هو إدريس؟

هو إدريس بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث ابن آدم عليه السلام واسمه في الترجمة العربية «أخنوخ»، وفي التوراة العبرية «خنوخ» [3].

---

(١) سورة مريم الآيتان: ٥٦- ٥٧.

(٢) سورة الصافات: الآيات: ١٢٣ - ١٣٢.

(٣) الشيخ عبد الوهاب النجار في قصص الأنبياء: ص٢٤.

اختلاف الحكماء في مولده ومنشئه :

اختلف الحكماء في مولده ومنشئه، فقالت فرقة: ولد بمصر وسَمَّوْه «هرمس الهرامسة» ومولده بمنف، وقالوا: هو باليونانية «طرميس» ولقد سماه الله في كتابه العربي المبين «إدريس»، وقال هؤلاء: إن معلّمه اسمه الغوثاذيمون، وقيل: أغثاذيمون المصرى، ولم يذكروا من كان هذا الرجل إلا أنهم قالوا: كان أحد الأنبياء اليونانيين والمصريين وسموه «أورين الثانى»، وإدريس عندهم هو «أورين الثالث»، وتفسير «غوثاذيمون» السعيد الجد. وقالوا: خرج «هرمس» أى: إدريس من مصر وجاب الأرض كلّها ثم عاد إليها ورفعه الله إليه بها وذلك بعد اثنتين وثمانين سنة من عمره، وقالت فرقة: إن إدريس ولد ببابل وبها نشأ وإنه أخذ العلم فى أول عمره بعلم شيث بن آدم وهو جد جد أبيه[1].

و لقد ساق الشيخ النجار أقوالاً كثيرة عن إدريس ليست صحيحة بل كلها من كتاب «تاريخ الحكماء» الذى أشار إليه الشيخ، وساق الشيخ ما سنّه لقومه وما أمر به من القرابين، واستقاها من غير الكتاب والسنة. قال ابن كثير عن إدريس: إنه أول من تكلم فى الخط، ويسمونه «هرمس الهرامسة» ويكذبون عليه أشياء كثيرة كما كذبوا على غيره من الأنبياء والعلماء والحكماء والأولياء.

أقوال العلماء المسلمين في إدريس عليه السلام:

قال الحافظ ابن كثير فى «البداية والنهاية»: «وقد قال طائفة من الناس: إنه المشار إليه في حديث معاوية بن الحكم السلمي لما سأل رسول الله ﷺ عن الخط بالرمل فقال: " إنه كان نبي يخط به فمن وافق خطه فذاك ».

(١) المرجع السابق.

معالم رسالة إدريس:

بعد تأمُّلنا فى النص القرآنى السابق، ندرك أن إلياس أو إدريس أتى بدعوة تشتمل على أصول اشتملت عليها رسالات الرسل جميعاً، واشتركوا فى هذه الأصول وهى:

أولاً: الدعوة إلى التوحيد. ثانياً: إثبات رسالة المرسَل.

ثالثاً: الدعوة إلى عبادة الله. رابعاً: إثبات البعث والدعوة إليه والتحذير منه.

خامساً: الدعوة إلى مكارم الأخلاق.

ونجد الحديث عن إدريس تضمن هذه الأصول، ولقد ذهب بعض العلماء إلى أن إلياس ليس هو إدريس (وإلياس قيل: هو ابن أخى هارون أخى موسى، وقيل غيره أرسل إلى قوم ببعلبك ونواحيها)[1].

واتجاهنا إلى أن إدريس هو إلياس اعتماداً على الحديث السابق الذى رواه البخارى عن ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهما.

وما ورد فى النص القرآنى ﴿ سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ﴾ معناه: سلام على آل ياسين، فالسلام شمله وشمل من آمن معه، فالمؤمنون به هم أهله.

(١) تفسير الجلالين: سورة الصافات.

قصة نوح عليه السلام

نسب نوح عليه السلام:

(هو نوح بن لامك بن متوشالح بن أخنوخ – وهو إدريس عليه السلام – بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم أبى البشر عليه السلام. هذا هو الذى ورد فى كتب التاريخ وفى التوراة فى سفر التكوين)[1].

آلهة قوم نوح:

لقد عبد قوم نوح الأصنام المتعددة، واتخذوها آلهة من دون الله، وهاموا بها عشقاً، هذا العشق لتلك الأصنام أعماهم عن عبادة الله تعالى وتوحيده، وأصم آذانهم فلم يسمعوا قول رسولهم، وهذه الأصنام كانت كثيرة ومتعددة ؛ بل هناك أصنام هى أكبر أصنامهم، قال الله عنهم: ﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا، وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾[2]، يقول الشيخ سيد قطب: (﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ بهذه الإضافة: ﴿آلهتكم﴾ – أى إضافة الآلهة إلى قوم نوح – لإثارة النخوة الكاذبة والحمية الآثمة في قلوبهم. وخصصوا من هذه الأصنام أكبرها شأناً فخصوها بالذكر ليهيج ذكرها في قلوب العامة المضللين الحميةَ والاعتزازَ.. ﴿وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.. وهي أكبر آلهتهم التي ظلت تُعبَدُ في الجاهليات بعدهم إلى عهد الرسالة المحمدية .

وهكذا تلك القيادات الضالة المضللة تقيم أصناماً، تختلف أسماؤها وأشكالها، وفق النعرة السائدة في كل جاهلية؛ وتجمع حواليها الأتباع، وتهيج في قلوبهم الحمية لهذه الأصنام، كي توجههم من هذا الخطام إلى حيث تشاء، وتبقيهم على الضلال

---

(١) الشيخ النجار فى «قصص الأنبياء»: ص٣٠.

(٢) سورة نوح آية: ٢٣.

الذي يكفل لها الطاعة والانقياد: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ ككل قيادة ضالة تجمع الناس حول الأصنام.. أصنام الأحجار[1].

معالم دعوة نوح إلى قومه:

أرسل الله نوحاً إلى قوم عكفوا على عبادة الأصنام والأوثان، ولقد اشتملت دعوته على الأصول الخمسة التي اشتملت عليها رسالات الرسل، والتي سبق أن ذكرناها عند الحديث عن نبي الله إدريس عليه السلام، وهي: **الدعوة إلى التوحيد، وإثبات الرسالة، وإثبات البعث، والدعوة إلى عبادة الله، والدعوة إلى مكارم الأخلاق.** ولقد اشتملت رسالة نوح على هذه الأصول:

أولاً: الدعوة إلى التوحيد: قال الله تعالى عنه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾[2]، فقوله: ﴿أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أسلوب قصر بالنفي والاستثناء، وهو قصر العبادة على الله دون غيره.

ثانياً: إثبات الرسالة: في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ فالله أرسله، وتحدث عن نفسه فقال: ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ وتكرر ذلك في كثير من الآيات التي تحدثت عن نوح.

ثالثاً: الدعوة إلى عبادة الله تعالى: ورد ذلك في أكثر من موطن في الحديث عن نوح: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ، أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾[3].

---

(١) في ظلال القرآن: ص٣٧١٦، سورة نوح.
(٢) سورة هود الآيتان: ٢٥ – ٢٦.
(٣) سورة نوح الآيتان: ٢-٣.

رابعاً: إثبات البعث والدعوة له: ورد ذلك فى قوله تعالى: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ (١)،

خامساً: الدعوة إلى مكارم الأخلاق: ورد ذلك فى قوله تعالى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾، فيتقوا الله، ومن ضمن التقوى الدعوة إلى مكارم الأخلاق.

مجادلة قوم نوح له:

اشتعلت نيران المواجهة بين نبىٍ أتى برسالة كلها رحمة، فيها سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم، وهذا فضل من الله عليهم، بَيْدَ أنهم عموا عنها، وعتوا عتوًّا كبيرا، وقاموا بمواجهة نوح وجادلوه بالباطل بشُبَهٍ واهية، ودحضها نوح بحجج دامغة، والذى تولى ذلك من قومه هم الملأ منهم، وهم قادة الضلال، فمكروا مكراً متناهياً فى العظم لإبطال الدعوة وإغلاق الطريق فى وجهها حتى لا تدخل قلوب الناس، قال الله عنهم: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا، وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ (٢)، وهذه شبههم التى أثاروها وورد عليهم نوح مفنداً لها:

أولاً: قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾

ثانياً: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾.

ثالثاً: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾

رابعاً: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٣).

خامساً: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ (٤).

---

(١) سورة هود الآية: ٢٦.
(٢) سورة نوح الآيتان: ٢١- ٢٢.
(٣) سورة هود آية ٢٧.
(٤) سورة هود آية: ٣٥.

دحض هذه الشبهة:

دحض نوح الشبهة الأولى بقوله: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (١)،

قال لهم نوح متلطفاً بهم: «يا قوم» ليشعرهم أنه منهم وأنه يحرص على مصلحتهم ولا يرضى لهم ضرراً. فقال: «أرأيتم»(٢)، ومعناها: أخبرونى إن كنتُ على بيان من ربى وتفضل علىَّ وآتانى النبوة فخفيت عليكم «أنلزمكموها»، أى: أنجبركم على قبولها «وأنتم لها كارهون» لا نقدر على ذلك.

ورد عليهم ردًّا أفحمهم فخاطب عقولهم بقوله: ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ تعطونيه على دعوتكم إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة، فنوح ألقمهم الحجر حيث ترك لهم الاختيار فى العقيدة بقوله « أنلزمكموها» أنجبركم على قبول رسالتنا « وأنتم لها كارهون» لا نقدر على إجباركم عليها.

ثم خاطب عقولهم بعد الحديث عن الاختيار فقال لهم: لا أسألكم على تبليغ الرسالة مالاً فنكلفكم الأجر على قبولها ؛ بل هى منّة من الله عليكم فلن تخسروا فى قبولها شيئاً ، بل ستفوزون بخيرى الدنيا والآخرة، ومع هذا الفضل الذى ليس له أجر، فإن تركتموه فقد خسرتم دنياكم وآخرتكم، ولقد ترك قوم نوح للبشرية قولاً يقولونه للأنبياء فى كل عصر، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ،

---

(١) سورة هود الآيتان: ٢٨، ٢٩.

(٢) الهمزة إذا دخلت على الفعل «رأى» صار معناها: أخبر.

فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[2]،

دحض نوح للشبهة الثانية:

قال تعالى عن نوح: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾[3]، عندما أثاروا شبهتهم: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ ويبدو أنهم لوَّحوا له بطردهم عنه وأرادوا ذلك حتى لا يتساووا بالفقراء فقال لهم: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ، وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ومعنى قوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أظهر وأتى باسم الموصول في موطن الإضمار، فلم يقل: وما أنا بطاردهم، حتى يثير قلوبهم للإيمان، وليشعرهم بعظمة هؤلاء الفقراء وأنهم أعظم من أموالهم وجاههم لأنهم آمنوا بربهم، فالعظمة والجاه الحقيقيان هما عند الله و في الآخرة لا عند الناس ولا في الدنيا الفانية، ومن جهة نوح قال لهم: إن هؤلاء الفقراء الذين دخلوا دوحة الإيمان إنْ طردتهم كما أمرتموني فإنهم ملاقوا ربهم بالبعث فيجازيهم وينتقم لهم ممن ظلمهم وطردهم، وقال لهم: ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ عاقبة أمركم.

ولاطفهم نوح في الخطاب ولمس عقولهم بقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾ أي من يمنعني من عذاب الله إن طردتهم فلا ناصر لي فهلا تتعظون.

---

(١) سورة القمر الآيتان: ٢٣- ٢٤.

(٢) سورة التغابن آية ٦.

(٣) سورة هود آية ٢٩.

دحض نوح للشبهة الثالثة:

قالوا لنوح: ﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾، فرد عليهم ردًا ضمنياً ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ مفهوم قوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يبين أنهم تميزوا بالفضل على هؤلاء الكفرة بإيمانهم، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ فيرفعهم ويثيبهم ويجازى من احتقرهم وطردهم.

دحض الشبهة الرابعة:

قولهم: ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ هذا رجم بالغيب، فكل ما تحدث به نوح يثبت صدقه ويبطل كلامهم.

دحض الشبهة الخامسة:

قال لهم: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[1] أى: إن افتريته فعلىَّ إثمى وأنا برىء فى نسبة الافتراء إلىَّ.

وفى النهاية يعلنون العجز وعدم الاستمرار فى المواجهة ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[2]،

قالوا: يا نوح قد خاصمتنا، فأتنا بما تعدنا به من العذاب إن كنتَ من الصادقين فى ذلك. فقال لهم: إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ تعجيله لكم، فإن أمره إليه لا إلىَّ وما أنتم بفائتين منه.

---

(١) سورة هود آية ٣٥.

(٢) سورة هود الآيتان ٣٢-٣٣.

دعوة نوح عليه السلام لقومه وإعراضهم عنه

انخرط نوح فى دعوته لقومه منكراً ذاته متجرداً من علائق الدنيا متخلقاً بأخلاق الرسالة التى جاء بها قائلاً لهم:

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

فقد قدم لقومه سمات شخصه ورسالته مُجرَّدَيْن عن كل زخرف وعن قيمهم العرضية الدنيوية الزائفة، فلم يدَّع الثراء أو القدرة عليه، ولم يدَّع قدرة ليست للبشر أو صلة بالله غير صلة الرسالة، ولم يدَّع أنه ملك من الملائكة ليرتفع فى أعينهم، ولم ينقص حق المؤمنين الفقراء الذين آمنوا به، فليس له إلا الظاهر من حالهم وحال إيمانهم [illegible] ما فى قلوبهم فالله أعلم به، وحالهم هذا يدعو إلى التكريم وإلى رجاء أن [illegible]هم الله خيراً.

اجتهاد نوح فى دعوته لقومه:

بذل نوح منتهى جهده ولم يدَّخر وُسْعاً فى دعوته لقومه، فلاطفهم مرَّات، وخوفهم عقاب الله إن سدروا فى إعراضهم وطغيانهم ولقد طال الزمن وهو يغاديهم بالنصح ويراوحهم بالعظة سراً وعلانية، وهم لا يزدادون إلا إعراضاً ونأياً عن دعوته، فيكشف لهم عن نعم الله التى يتقلبون فيها، ويصرِّح لهم بنعم الله التى تنتظرهم فى عاجل حياتهم إذا آمنوا واستغفروا ربهم، فإن الله سيرسل لهم المطر لسقياهم وسقيا حرثهم ويبسط لهم فى أرزاقهم ويكثر ذريتهم، ويضرب لهم الأمثال للفت أنظارهم إلى صنع الله تعالى فى الكون، وإلى صنع الله فيهم

---

(١) سورة هود آية ٣١.

بخلقهم أطواراً مختلفة، والذى قدر على ذلك قادر على بعثهم ومجازاتهم، قال تعالى عن نوح:

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾ (١).

لقد انتقل نوح بقومه من دليل إلى دليل آخر على توحيد الله وقدرته وعلمه، فقابلوا حرصه على دعوته وتبليغهم إياها بأساليب مختلفة، ليلاً ونهاراً، جهاراً وإسراراً، فقابلوا نصح نوح لهم وحرصه على سعادتهم الدنيوية والأخروية بالحمق والتبرُّم بنوح، وأوقفوا عمَلَ عقولهم ونأوْا عما ينفعهم، فاستخدموا أساليب الحمقى فى مقابلة نوح عليه السلام، وهى كما قالها نوح شاكياً لله عز وجل منها:

١- قال الله تعالى عن نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾ (٢)، قال نوح شاكياً قومه لربه: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا﴾ لم أهدأ ساعة، فلم تلن قلوبهم، ولم يزدهم دعائى إلا ابتعاداً عن الإيمان.

---

(١) سورة نوح الآيات: ١٠-٢١.

(٢) سورة نوح الآيتان: ٥ - ٦.

٢- قال تعالى عن نوح: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ [1]، فشكا نوح سلوك قومه، فكلما دعاهم ليغفر الله لهم إذا دخلوا في دينه ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ لئلا يسمعوا كلام الله، والمراد بالأصابع هنا الأنامل أي: أطراف أصابعهم، وفي الجملة مجاز مرسل.

٣- قال تعالى عن نوح: ﴿ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ ﴾ فذكر نوح أنه إذا دعاهم غطوا رءوسهم بثيابهم لئلا ينظروا إلى نوح.

٤- قال تعالى: ﴿وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ شكا نوح قومه لربه فقال: إنهم أصروا، أي ثبتوا على كفرهم ولزموا شركهم، وبالغوا في تكبرهم عن الإيمان، والسين والتاء في: ﴿استكبروا﴾ يدلان على المبالغة، فزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، ومجيء المفعول المطلق يدل على التوكيد.

يأس نوح من قومه وما يترتب عليه:

لما قابلوا نوحاً بأساليب الحمقى، وعلم الله أزلاً أنهم لن يؤمنوا، أوحى الله إلى نوح بقوله: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [2]، أوحى الله إلى نوح أنه لن يصدق به من قومه إلا من صدّق وآمن به وآمن قبل ذلك، ونهاه عن الحزن عليهم بسبب شركهم وعدم تركهم الكفر.

---

(١) سورة نوح الآية: ٧.

(٢) سورة هود: ٣٦.

دعاء نوح على قومه:

حين أوحى الله إلى نوح بأن قومه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن ونهاه عن الحزن عليهم، دعا عليهم بقوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[1].

والمعنى: ربِّ لا تترك على الأرض كافرًا نازلاً دارًا، أو أن المعنى: لا تذر على الأرض من الكافرين أحداً، إنك إن تتركهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً.

مدة مكث نوح في قومه:

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾[2].

فهذا النص يبيِّن أن الله أرسل نوحاً إلى قومه وعمره أربعون سنة أو أكثر إلى خمسين عاماً، ومنذ بعثه الله على رأس الأربعين أو الخمسين إلى الألف وهو يدعوهم إلى رسالة الله فلبث يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ولم يكرر المستثنى (سنة) بل ذكر (عاما) كراهة التكرار وهذا من بلاغة القرآن.

أمْرُ الله لنوح بصنع السفينة:

بعد دعاء نوح عليه السلام على قومه، أمره الله بصنع السفينة، قال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا

---

(١) سورة نوح الآيتان: ٢٦-٢٧.

(٢) سورة العنكبوت الآيتان: ١٤-١٥.

كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (١).

لما أخبر الله نوحاً أنهم لا يؤمنون ألبتة عرّفه وجه إهلاكهم وألهمه الأمر الذى يكون به خلاصه وخلاص من آمن معه، أمره بصنع السفينة فقال له: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾، الفلك: هو السفينة، أمر اللهُ نوحاً بعملها وإتقان صنعها، وقال له: ﴿بأعيننا﴾ فَجَمَع الأعينَ للتعظيم لا للتكثير، وتحتمل الأعين معانى متعددة هى:

١- «بأعيننا» أى: بحراستنا وحفظنا لك. ٢- أى: بإرادتنا وقدرتنا.

٣- وقيل: بأعيننا: أى بعلمنا. ٤- وقيل: بأمرنا.

وعبر بالأعين لأنها آلاتُ الرؤية. ومعنى: بوحينا: أى بما أوحيناه إليك من كيفية الصنع.

يصف الحافظ ابن كثير هذه السفينة بآثار ساقها فى تفسيره فقال: (قال بعض السلف: أمره الله تعالى أن يغرز الخشب ويقطِّعه وييبسه، فكان ذلك في مائة سنة، ونَجَرها في مائة سنة أخرى، وقيل: في أربعين سنة، فالله أعلم).

وذكر محمد بن إسحاق عن التوراة: أن الله أمره أن يصنعها من خشب الساج، وأن يجعل طولها ثمانين ذراعاً، وعرضها خمسين ذراعاً. وأن يُطْلَى باطنُها وظاهرها بالقار — بالزِّفت: مادة سوداء تُسيلها السخونة–، وأن يجعل لها جؤجؤا — أى صدراً – أزور — أى: مائلاً – يشق الماء.

وقال قتادة: كان طولها ثلاثمائة ذراع، في عرض خمسين. وعن الحسن: طولها ستمائة ذراع وعرضها ثلاثمائة ذراع. وعنه مع ابن عباس: طولها ألف

---

(١) سورة هود الآيتان: ٣٦- ٣٧.

ومائتا ذراع، في عرض ستمائة. وقيل: طولها ألفا ذراع، وعرضها مائة ذراع، فالله أعلم.

قالوا كلهم: وكان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعا، ثلاث طبقات، كل طبقة عشرة أذرع، فالسفلى للدواب والوحوش: والوسطى للإنس: والعليا للطيور. وكان بابها في عرضها، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها)[1] .

ولقد استقى الحافظ ابن كثير هذه الأوصاف من تفسير الطبرى، ولقد ساق بعض الآثار الأخرى علّق عليها رحمه الله بقوله: وهذا أثر غريب.

«فلما كثر أرواث الدواب، أوحى الله ﷻ إلى نوح عليه السلام أن اغمز ذَنَب الفيل، فغمزه، فوقع منه خنزير وخنزيرة، فأقبلا على الروث، فلما وقع الفأر بخَرَزِ السفينة يقرضه وحبالها، أوحى الله إلى نوح؛ أن اضرب بين عيني الأسد، فخرج من منخره سنَّور وسنَّورة — قط وقطة— فأقبلا على الفأر» ومع أن ابن كثير نقلها عن تفسير الطبرى، فهى من الإسرائيليات التى لا نصدقها ولا نكذبها.

استهزاء القوم بنوح أثناء صنع السفينة:

طفق نوح يصنع السفينة بعد أن أعدّ أخشابها ومساميرها وما تُشَدُّ به ألواحُ الخشب، ولا يصنع لوحاً إلا بالوحي، ولا يدق دساراً[2] إلا بالأمر. قال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾[3]،

---

(١) تفسير ابن كثير، سورة هود: ٢٥٢/٤ — ٢٥٣.

(٢) دسار: على وزن كتاب: المسمار وما يُشَدُّ به.

(٣) سورة هود الآيتان: ٣٨ — ٣٩.

التعبير بالفعل المضارع وهو فعل الحاضر يصور حيوية المشهد فنراه ماثلاً لخيالنا من وراء هذا التعبير. ونرى الجماعات من قومه المتكبرين يمرون به فيسخرون، يسخرون من الرجل الذى جاءهم برسالة من الله ويدعوهم وينصحهم ويجادلهم فيطيل جدالهم، ثم إذا هو ينقلب نجاراً يصنع مركباً، فهم يسخرون لأنهم لا يرون إلا ظاهر الأمر، ولا يعلمون ما وراء ذلك من وحي وأمر. أما نوح فهو واثق عارف استمد معرفته من الله فشرع يبادلهم سخرية بسخرية: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا ﴾ الآن ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ مستقبلاً، لأنكم لا تدركون ما وراء هذا العمل من تدبير الله وما ينتظر من مصير مؤلم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ عذاب يُذل، وعذاب يحلُّ فيدوم ولا يزول.

مشهد التعبئة قبل حلول لحظة الانتقام:

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[1]،

كانت المرحلة الأولى هى صنع السفينة، وتليها المرحلة الثانية وهى مرحلة التعبئة، فقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ أى الأمر بإهلاك القوم وفار التنور أى: الموقد الذى ينضج فيه الخبز وهو — الفُرن — يقول الحافظ ابن كثير: (فعن ابن عباس: التنور: وجه الأرض، أي: صارت الأرض عيونا تفور، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار، صارت تفور ماء، وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: التنور: فَلَق الصبح، وتنوير الفجر، وهو ضياؤه وإشراقه، والأول أظهر. وقال مجاهد والشعبي: كان هذا التنور بالكوفة، وعن ابن عباس: عين بالهند. وعن قتادة:

(١) سورة هود آية: ٤٠.

عين بالجزيرة، يقال لها: عين الوردة)[1].

وقال الشوكاني في هذه الأقوال: (قال النحاس: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة، لأن الله سبحانه قد أخبر بأن الماء قد جاء من السماء والأرض، قال: ﴿فَفَتَحْنَا أبواب السماء بِمَاء مُّنْهَمِر. وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً﴾[2] فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة. هكذا قال، وفيه نظر)[3]. ونأخذ برأي جمهور السلف وعلماء الخلف.

علامة مجيء العذاب:

قال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾، كان التنور علامةً على حلول العذاب، وأمره الله أن يحمل من كل صنف من الحيوانات زوجين ذكراً وأنثى. وأمره أن يحمل أهله إلا من سبق عليه القول منهم ممن لم يؤمن، فكان منهم ابنه «يام» الذى انعزل وحده، وقيل: اسمه كنعان وزوجته فكانت كافرة، وأخطأ من قال: إنها ركبت معه بدليل قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ﴾ [4]، فسبق عليها القول، ولقد ورد عن ابن عباس عددُ من رَكِبَ معه (كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم. وعن كعب الأحبار: كانوا اثنتين وسبعين نفساً. وقيل: كانوا عشرة. وقيل: إنما كانوا نوح وبنوه الثلاثة سام، وحام، ويافث، وكنائِنِه[5] الأربع نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يام)[6].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢٥٤/٤.

(٢) سورة القمر الآيتان: ١١- ١٢.

(٣) فتح القدير: ٦٣٤/٢، ط دار الكتب العلمية، لبنان.

(٤) سورة التحريم آية ١٠.

(٥) زوجات أولاده ومعهن زوجة يام فلقد آمنت به.

(٦) تفسير القرآن العظيم: ٢٥٥/٤.

ابتداء الطوفان:

حين ظهرت الأمارة بالهلاك وفار التنور قال الله تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ. وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ. وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾[1]،

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ قرئ: «فَفَتَحنا» بالتخفيف وقرئ بتشديد التاء، وفى القراءة الثانية مبالغة فى تفتيح أبواب السماء، والتنكير فى (ماء) يدل على التكثير، وكلمة منهمر معناها: منصب انصباباً شديداً. وقوله تعالى: ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ التعبير بكلمة (فجرنا) بدل: أخرجنا، يدل على شدة اندفاع الماء، والتشديد فى (فجرنا) يدل على المبالغة فى انفجار الماء، وأيضاً قوله: ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ فيه مبالغة من القول: وفجرنا عيون الأرض؛ لأن فى هذا القول تكون العيون التى يتدفق منها الماء فى الأرض هى التى يتفجر منها الماء، أما فى قوله تعالى: ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ فالأرض كلها صارت عيوناً يتفجر منها الماء، وفى قوله تعالى هذا تمييز محوَّل عن المفعول وأصله: وفجرنا عيون الأرض.

وقوله: ﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ فالتقى ماء السماء وماء الأرض على حال قُضِى به أزلاً وهو هلاكهم غرقاً.

وصف الطوفان:

حين وجد نوح عليه السلام الماء يزداد قال لأهله المؤمنين ومن آمن معه وللدواب والحيوانات والطيور: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ إِنَّ رَبِّي

---

(١) سورة القمر الآيتان: ١١ – ١٣.

﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝﴾ [1].

أخبر الله عن نبيِّه نوح ﷺ أنه قال للذين أُمِرَ بحملهم معه فى السفينة: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ أى: باسم الله يكون جريها على وجه الماء، وباسم الله يكون منتهى سيرها، وهو رُسُوها، قرئ: مجراها ومرساها بفتح الميمين وألف بعد الراء الأولى، وقرئ بهذه القراءة وبالإمالة فى مجريها، وهى قراءة حفص، وقرئ بضم الميمين «مُجريها ومُرسيها» فأمرهم بالركوب مصحوباً بالتسمية، وبدأت السفينة تجرى بهم، بيد أن هذا الجرى فى الماء قال الله تعالى عنه: ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ وسبق معنى ذلك، فهى تجرى بهم محفوظة بقدرة الله تعالى فى موج كالجبال فى ارتفاعها وعلوها بل رَكِبَ جبالَ الأرض وارتفع عليها بثمانين ميلاً، وقيل: ارتفع عليها بخمسة عشر ذراعاً[2]، قال الله عنه: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ. لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾[3]، فهى تجرى بهم لا ينظرون إلا إلى الماء، لا يظهر لهم شىء، طوفان قد عمَّ، وهلاك قد أطبق، يطبق عليهم هولان: هول الطبيعة الصامت وهول يقتحم النفس البشرية، يلتقيان فى أنفس ركاب السفينة، بيد أن عناية الله ترعاها فتقذف فى قلوبهم الطمأنينة وأملَ السلامة من الغرق.

حوار نوح مع ولده الكافر:

ارتفع الماء، واشتد الموج، وتتابع ولاح الهلاك فى الأفق، وتحركت مشاعر نوح، وخفق قلبه رحمة بابنه «يام» أو «كنعان»، وكان فى معزل عن السفينة،

---

(١) سورة هود الآيتان: ٤١، ٤٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم: سورة هود: ٤/٢٥٦.

(٣) سورة الحاقة الآيتان: ١١- ١٢.

ومع أنه كان كافراً وأبوه يدرك أنه من الهالكين ضمن الكافرين، استيقظت عاطفة الأبوة في كيان الوالد الملهوف فراح يهتف بالولد الآبق الشارد: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ بَيْدَ أن البُنُوَّة العاقة التي تلبس ثوب الفتوة المغرورة لا تعبأ بالأبوة الملهوفة، ويظن العاقُّ أن رأس الجبل سينقذه من الغرق، فقال لوالده: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ ولكن عاطفة نوح تعلو حرارتها خوفاً على ابنه فهو مدرك للهول والخطر، فأرسل النداء الأخير: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ لا جبال ولا مخابئ، ولا حامىَ ولا واقىَ من أمر الله إلا من رحم. وفي لحظات يتغير المشهد فتشتد حركة الأمواج، وتزداد ارتفاعاً فتبتلع كل شيء في سرعة خاطفة راجفة، وينتهي كل شيء، ويختفي صوت الولد العاق في أصوات الأمواج وكأنه لم يكن دعاء ولا جواب، هلك المشركون، ونجا الموحدون، وسكنت العواصف، وهدأت الأمواج، ولفَّ الصمت البسيطة، وقضى الأمر.

ومكثت السفينة تتحرك ما بين المشرق والمغرب واستمرت مائة وخمسين يوماً،(وقال قتادة وغيره: ركبوا في عاشر شهر رجب فساروا مائة وخمسين يوماً، واستقرت بهم على الجودي شهرًا، وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم. وقد ورد نحو هذا في حديث مرفوع رواه ابن جرير)[1].

ذهاب الطوفان:

قال الله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾[2].

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢٥٧/٤.

(٢) سورة هود آية ٤٤.

وجّه الله الخطاب إلى الأرض وإلى السماء بصيغة العاقل، فاستجابتا وانصاعتا للأمر الفاصل، وقُدِّمت الأرضُ على السماءِ لأن عَمَلَها مضاعف فإنها ستتوقف عن تفجير الماء وتبتلع ماءها، وبعد أن ابتلعت الأرض الماءَ وكَفَّت السماءُ عن انصباب الماء. وغيض الماء فابتلعته الأرض في جوفها وغار من سطحها، وقضى الأمر، ونفذ القضاء، واستوت على الجودى، ورست رُسُوَّ استقرار على جبل الجودى، وقيل: بُعداً للقوم الظالمين، أى بعداً لهم من رحمة الله فقد لُعنوا، وبُعداً لهم من الذاكرة فقد انتهوا، وما عادوا يستحقون ذكراً ولا ذكرى.

قال الله تعالى: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾[1].

قيل: يا نوح انزل من السفينة إلى الأرض، أو من الجبل إلى المنخفض من الأرض، فقد بلعت الأرض الماء وجفَّت، اهبط بسلامة وأمن وتحية وبركات أى: نعم ثابتة، وعلى أمم ممن معك، وهم المتشعبون من ذرية من كانوا معه في السفينة، وهذا دليل يدحض قول مَنْ قال: إنَّ مَنْ على الأرض هم ذرية نوح سام وحام ويافث.

سؤال نوح عن مصير ابنه:

قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ

(١) سورة هود آية: ٤٨.

أَكُن مِّنَ ٱلْخَسِرِينَ ﴿٤٧﴾ [1].

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ﴾ دعا نوح ربه قائلاً: ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ هو بعض أهلي الذين وعدتني بنجاتهم من الغرق فقلت: ﴿ احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾.

﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ بنجاة أهلي حق ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ أنت أتقن المتقنين لما يكون به الحكم؛ فلا يتطرق إلى حكمك نقص، فأجابه: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، ثم بيَّن الله له لماذا كان ابنه ليس من أهله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ قرئ عَمَلٌ بالمصدر، وقرئ بالفعل الماضي: (عَمِلَ غير صالح)، وأجمل ما يقال في هذا على القراءة الأولى: المبالغة في ذم الولد كأن الله جعله نفس العمل غير الصالح، أو أن أصله: ذو عمل غير صالح ثم حذف المضاف وجعل نفس العمل، ومعنى القراءة الثانية قراءة الفعل: إنه عَمِل عملاً غير صالح، وهو كفره وتركه دينَ أبيه.

نظرة سقيمة:

ذهب بعض العلماء إلى أن هذا الابن كان ابن زنا، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، وبقوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [2]، أو أنه كان ابن زوجته من رجل آخر، وقالوا كان ابنه مجازاً، والحقيقة أن هذا الاتجاه كلّه مرفوض لما يأتي:

١- أن الله أعلم بكل شيء، وهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فلو لم يكن

(١) سورة هود الآيات: ٤٥-٤٧.
(٢) سورة التحريم آية ١٠.

ابن نوح من صلبه ما قال الله آنفاً: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾، فدل هذا على أن كان من صلبه.

٢- لو كان ابن زوجته أو كان ابن زنا ما استيقظت فطرته وما احترقت عواطفه عندما شعر أنه سيدخل دائرة الخطر وصاح ينادى عليه حتى ينجو.

٣- لو كان ابن زوجته أو ابن زنا ما عاد يسأل الله عنه، لماذا لم يكن من الناجين؟ وظل نوح يتألم عليه حتى سأل الله تعالى.

(عن ابن عباس قال: هو ابنه غير أنه خالفه فى العمل والنية، قال عكرمة فى بعض الحروف: «إنه عمل غير صالح» والخيانة تكون على غير باب)[١].

ولقد فسر ابن عباس قوله: «فخانتاهما» بقوله: (أما وإنه لم يكن بالزنا، ولكن كانت هذه – أى امرأة نوح– تخبر الناس أنه مجنون، وكانت هذه– أى امرأة لوط– تدل على الأضياف. ثم قرأ: ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ قال ابن عيينة: وأخبرني عمار الدُهْني، أنه سأل سعيد بن جبَيْر عن ذلك فقال: كان ابن نوح، إن الله لا يكذب! قال تعالى: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ﴾ قال: وقال بعض العلماء: ما فَجَرَت امرأة نبي قط)[٢].

وممن ذهب إلى أنه ليس ابنه من صلبه الأستاذ/ سيد قطب فى كتابه «فى ظلال القرآن».

لقد رد الله على نوح بقوله: ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (لما بين له بطلان ما اعتقده من كونه من أهله، فرّع على ذلك النهيَ عن السؤال، وهو وإن كان نهياً عاماً بحيث يشمل كل سؤال، لا يعلم صاحبه أن حصول مطلوبه منه صواب، فهو يُدخل تحته سؤاله هذا دخولاً أوّلياً)[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢٥٩/٤.
(٢) المرجع السابق: ص٢٦٠.
(٣) فتح القدير: ٦٤٠/٢.

قضايا متعلقة بالطوفان

الأولى: هل كان الطوفان عامًا على البسيطة؟

أجاب على ذلك المرحوم/ عبد الوهاب النجار فى كتابه «قصص الأنبياء»، فقال: (إن بعض العلماء يميل إلى عمومه، ويقول بعض علماء الجيولوجيا: إننا كلما بحثنا فى أعالى الجبال وجدنا بقايا حيوانية من الأحياء التى لا تعيش إلا فى الماء، وهذا يستدعى وجود طوفان على هذه الجبال، بل عدد من الطوفانات لوجود الاختلاف فى عمر هذه البقايا، فلا مانع من أن يكون طوفان نوح أحدها ويكون قد عم، ويستأنس لذلك بقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ ويميل فريق إلى أن الطوفان لم يكن عاما، بل طغيان الماء كان على الجهة التى كان يسكنها نوح وقومه، وأما بقية بقاع الأرض فلم يعمها هذا الطوفان، ويستأنس لذلك بأن الهند كانوا يزعمون أن عمران بلادهم يمتد فى الماضى إلى تاريخ أبعد من الذى قدرته التوراة لنوح وطوفانه، وأن عمرانهم متصل من أعمق أجيال التاريخ إلى اليوم، وأنتم تعلمون أنى غير واثق من التاريخ الذى تقدره التوراة، وعلى كل حال فالمسألة ليس فيها نص من القرآن.

ثم يقول الشيخ النجار: والذى أميل إليه أن يكون الطوفان خاصاً وأن النوع الإنسانى لم يكن منتشراً فى جميع الكرة الأرضية، بل كانوا منحصرين فى الناحية التى عمها الطوفان وأنهم قد هلكوا وبقى نوح وذريته[1].

الثانية: ما ذنب أطفال قوم نوح حتى أخذوا بجريرة آبائهم الآثمين؟

والجواب على ذلك من وجهين:

١- أن الله أعقم أرحام نساء قوم نوح قبل الطوفان بأربعين سنة فلم يولد لهم فى

(١) قصص الأنبياء: ص٣٦ بتصريف.

تلك الفترة مولود، فيكون جميع قوم نوح مكلفين، فحق عليهم العذاب وحاق بهم الهلاك.

٢- جرت سنة الله بأن نقمة الله لا تهلك الذين ظلموا خاصة، بل تعمهم وأولادهم، وفى ذلك تعذيب للآباء والأمهات، ويعوض الله الأطفال خيراً، فهم يدخلون الجنة يوم القيامة لأنهم لم يُكلَّفوا، وآباؤهم وأمهاتهم يدخلون جهنم جزاءً وفاقاً.

الثالثة: أين الجبل الذى رست عليه سفينة نوح؟

الجواب: لقد ذكر القرآن اسم هذا الجبل، قال تعالى: ﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

يقول الراغب: (جَوَد: قال تعالى: ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ قيل: هو اسم جبل بين الموصل والجزيرة، وهو فى الأصل منسوب إلى الجُود)[1].

و قال صاحب لسان العرب: (والجُوديُّ موضع، وقيل: جبل، وقال الزجاج: هو جبل بآمد، وقيل: جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح على نبينا محمد وعليه الصلاة والسلام، وفي التنزيل العزيز ﴿واستوت على الجوديّ﴾)[2].

الرابعة: هل مَنْ على الأرض منَ البشر من ذرية نوح؟

الجواب: قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا

---

(١) المفردات فى غريب القرآن: ص١٠٢ كتاب الجيم، ط مصطفى الحلبى وأولاده.

(٢) لسان العرب لابن منظور، مادة: جود: ٧٢٢/١، ط دار المعارف.

عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾[1].

بحسب هذه الآيات تكون البشرية من ذرية نوح، وقد سبق أن تعرَّضنا لقوله تعالى: ﴿اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ فهذا يدل على أمم ممن معه في السفينة، ويمكن الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ فنقول:

إن الله جعل بقاء ذرية نوح إلى أن تقوم الساعة، وبقية من كانوا معه صارت ذريتهم أمما ثم بادت، وما تناسل من الثلاثة سام وحام ويافث صاروا أمماً ثم بقيت وتظل إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أنه يُذْكَرُ بخير في كل جيل، فأبقى الله على نوح السلامَ والثناء الحسن، فالأجيال يسلمون عليه.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: هكذا نجزى من أحسن من العباد في طاعة الله، نجعل له لسان صدق يُذْكَرُ به بعد.

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: المصدّقين الموحدين الموقنين، ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ أى: أهلكناهم فلم تبق منهم عين تطرف، ولا ذكر لهم ولا عين ولا أثر، ولا يُعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة.

عذاب قوم نوح دليل عذاب القبر:

قال الله تعالى: ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [2].

---

(١) سورة الصافات الآيات: ٧٥- ٨٢.

(٢) سورة نوح آية ٢٥.

فسر بعض العلماء قوله: ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ أى: أغرقوا بالماء ثم صاروا إلى النار. وهناك تأويل أفضل من هذا وهو أنهم أغرقوا فصاروا بعد الغرق إلى عذاب القبر إلى حُفَر من حُفَر النار، كما قال تعالى عن فرعون وآله: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ. النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[1].

وقال تعالى عن أحوال الناس بعد خروج أرواحهم ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾[2].

فاستخدام الفاء التى تدل على الترتيب والتعقيب بعد خروج أرواح المقربين، واستخدامها بعد خروج أرواح أصحاب اليمين، واستخدامها بعد خروج أرواح المكذبين، كل هذا يدل على نعيم القبر وعذابه، وقال الله عنه: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾.

---

(١) سورة غافر الآيتان: ٤٥ – ٤٦.

(٢) سورة الواقعة الآيات: ٨٣– ٩٦.

قصة هود عليه السلام

نسب نبي الله هود عليه السلام:

هو (هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام.

ويقال: إن هوداً هو عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، ويقال: هود بن عبد الله بن رباح الجارود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام. ذكره ابن جرير)[1].

القوم الذين أرسل إليهم هود عليه السلام:

هم قبيلة من قبائل العرب العاربة[2]، والعرب العاربة هم قبائل عاد وثمود وجُرهم وطُسَم وجُديس وأميم ومدين وعملاق وجاسم وقحطان وبنو يقطن وغيرهم[3].

فقبيلة هود هم قوم عاد، وعاد هو ابن عوص بن سام بن نوح.

موطن قوم عاد:

لقد تحدث القرآن عن موطنهم فقال: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝﴾[4]، فلقد كانوا يسكنون بالأحقاف، وهو واد بأرض اليمن به منازلهم، وكانوا يسكنون البيوت ذوات الأعمدة الضخام، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾[5].

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ص٩٤، ط دار عمر بن الخطاب الإسكندرية.

(٢) العرب العاربة: هى قبائل العرب قبل إسماعيل عليه السلام والعرب المستعربة هم من ولد إسماعيل.

(٣) المرجع السابق.

(٤) سورة الأحقاف آية ٢١.

(٥) سورة الفجر الآيات ٦-٨.

(ذات العماد: أى الطول، يقال رجل معمد إذا كان طويلاً، ونحوه عن ابن عباس ومجاهد، وعن قتادة أيضاً: كانوا عماداً لقومهم، يقال: فلان عماد القوم وعمودهم أى: سيدهم، وعنه أيضاً: قيل لهم ذلك لأنهم كانوا ينتقلون بأبياتهم للانتجاع، فكانوا أهل خيام وأعمدة ينتجعون الغيوث ويطلبون الكلأ ثم يرجعون إلى منازلهم، وقيل: ذات العماد أى: ذات الأبنية المرفوعة على العمد، وكانوا ينصبون الأعمدة فيبنون عليها القصور. قال ابن زيد: ذات العماد يعنى إحكام البنيان بالعمد، وفى الصحاح: والعماد الأبنية الرفيعة تذكّر وتؤنث، والواحدة عمادة، وفلان طويل العماد: إذا كان منزله معلوماً لزائره، وقال الضحاك: ذات العماد: ذات القوة والشدة، مأخوذ من قوة الأعمدة، دليله قوله تعالى: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ وروى عوف عن خالد الربعى أن «إرم ذات العماد» هى دمشق، وهو قول عكرمة وسعيد المقبريّ، وقال محمد بن كعب القرظى: هى الإسكندرية)[1].

والذى أراه أنهم أتقنوا الأبنية وبالغوا فى تشييدها كما قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[2]، فإنهم يبنون بكل مكان مرتفع آية بناء عظيمة.

ولقد ورد فى القرآن ذِكْرُ عادٍ، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى. وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى﴾ [3]، فعاد الأولى: هم قوم عاد إرم — وإرم جَدُّ عاد — وهم قوم هود، وأما عاد الأخرى أو المتأخرة فهم ثمود قوم نبى الله صالح عليه السلام، يقول الحافظ ابن كثير: (ومن زعم أن " إرم " مدينة تدور في الارض، فتارة في الشام، وتارة في اليمن ؛ وتارة في الحجاز، وتارة في غيرها، فقد أبعد النجعة، وقال ما لا دليل

(١) الفتوحات الإلهية: ٥٣٠/٤ — ٥٣١. ط عيسى البابى الحلبى.
(٢) سورة الشعراء الآيتان: ١٢٨ — ١٢٩.
(٣) سورة النجم الآيتان: ٥٠ — ٥١.

عليه، ولا برهان يعول عليه، ولا مستند يركن إليه)(١).

عبادة «عاد»:

هم قوم عبدوا الأصنام، وكانت أصنامهم ثلاثة: صمداً وصموداً وهرًّا، وهم أول من عبدوا الأصنام بعد الطوفان(٢).

دعوة «هود» لقومه:

أرسل الله هوداً عليه السلام برسالة إلى قومه الذين عبدوا غير الله تعالى، وغيَّروا فطرة الله التى فطرهم عليها، وهى فطرة التوحيد والالتجاء إلى الله فى وقت الشدة وذهاب الحوْل والقوة، لقد دعاهم هود عليه السلام إلى الله وقامت دعوته على الأصول الخمسة التى جاءت بها الرسل والتى سبق بيانها فى دعوة نوح عليه السلام.

معالم دعوة هود عليه السلام:

أولاً: دعوته إلى الأصول الخمسة التي أتى بها الرسل:

١- دعوته إلى التوحيد: قال تعالى: ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾(٣).

٢- إثبات رسالته: قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(٤). وقال تعالى: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾(٥).

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ص٩٤.

(٢) انظر المرجع السابق: ص٩٥.

(٣) سورة الأعراف آية: ٦٥.

(٤) سورة الشعراء الآيات: ١٢٣-١٢٥.

(٥) سورة الأعراف الآيتان: ٦٧ - ٦٨.

٣- إثبات البعث: قال تعالى: ﴿ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[١].

٤- الدعوة إلى عبادة الله: قال تعالى: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [٢].

٥- الدعوة إلى مكارم الأخلاق: قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾[٣].

ثانياً: ردُّ القوم على دعوة هود:

لم يقبل القوم رسالة هود ؛ بل رموه بالسفه وهو نقص العقل وخفّته، وأنه افترى على الله كذبا واستبعدوا البعث، قال تعالى عنهم: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٤]،

وأثاروا الشبهة التى حفظها الكفرة فى كل عصر، قال الله عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧)﴾[٥].

ولقد رد هود على اتهامهم له بقوله: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وفى قوله: ﴿ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يدحض

---

(١) سورة الأحقاف آية ٢١.
(٢) سورة الأعراف الآية: ٦٥.
(٣) سورة الشعراء الآيتان: ١٣١ – ١٣٢.
(٤) سورة الأعراف: الآيتان: ٦٦ – ٦٧.
(٥) سورة المؤمنون الآيات: ٣٣ – ٣٧.

كلامهم بأنه افترى على الله كذباً فلا يقول هذا القول كذاب أو مفتر، وكيف يكذب هود على الله وهو يخوفهم من عذاب الله ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

و لقد رد على دعوى بشريته بقوله: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾، والمعنى: أنكرتم دعوتى وعجبتم أن جاء بشر من أنفسكم مرسَلٌ من ربكم أنزل عليه رسالة يبلغها لكم ويخوفكم من عذابه فبشريته لا تدعو إلى العجب لأن هذا هو الأصل فى أن يكون الرسول من جنسكم وليس من جنس آخر.

ثالثاً: محاورة هود لقومه:

قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1]، وقال تعالى على لسان هود: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾[2].

لقد ذكّرهم هود فى سورة الأعراف السابقة ببطش الله بقوم نوح إذ كفروا وأن ما أصابهم سيصيبهم، وذكّرهم بنعم الله التى يتقلبون فيها، فهذه النعم يجب أن يقابلها الشكر، ومن الشكر الاعتراف بتوحيد خالقها وعبادته والانصياع لرسوله، وفى الآيات التى وردت فى سورة الشعراء أنكر عليهم «هود» الترف فى

---

(١) سورة الأعراف آية ٦٩.

(٢) سورة الشعراء الآيات: ١٢٨ – ١٣٥.

البنيان لمجرد التباهى بالمقدرة والإعلان عن الثراء والتكاثر والاستطالة فى البناء فقال: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ فهم كانوا يبنون فوق المرتفعات بنياناً يبدو للناظر من بعد كأنه علامة وكان الغرض من هذا التفاخر، والتطاول بالمقدرة والمهارة، ومن ثم سماه عبثاً، ولو كان لهداية المارة ومعرفة الاتجاه ما قال لهم «تعبثون» فهو توجيه من نبى الله هود إلى إنفاق الجهد والبراعة والمال فيما هو ضرورى ونافع لا في الترف والزينة ومجرد إظهار البراعة والمهارة، وفى الآيات دلالة على أن عاداً كانت قد بلغت من الحضارة الصناعية مبلغاً كبيراً حتى لتتخذ المصانع لنحت الجبال وبناء القصور وتشييد العلامات على المرتفعات، ويمضى هود فى استنكار ما هم عليه فيقول: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ فهم عتاة غلاظ يتجبرون حين يبطشون ولا يتحرجون من القسوة فى البطش شأنهم شأن المتجبرين المعتزين بالقوة المادية التى يملكونها، ثم يردهم هود إلى تقوى الله وطاعة رسوله فيقول: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

رابعاً: رَدُّ القوم على هود:

قال الله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ ﴾[2].

(١) سورة الأعراف الآية ٧٠.
(٢) سورة هود الآيات: ٥٣- ٥٥.

وقال تعالى: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ۝١٣٦ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣٧ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝١٣٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩﴾[1].

فى الآيـة الأولى استنكر القوم دعوة هـود ؛ لأنـه يـدعوهم إلى عبـادة الله الواحد، فقالوا: أجئتنا لنعبد الله وحده ونترك ما كان يعبده آباؤنا فأتنا بما تعدنا به من العذاب إن كنت من الصادقين، وفى الآية الثانيـة يقولـون لـه يـا هـود مـا جئتنا ببرهان على رسالتك، وما نحن بتاركى آلهتنا بسبب قولك ومـا نحـن لـك بمؤمنين، فالجملتان ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يدلان على أنهم لم ينفكوا عن الأصنام ولن يؤمنوا بهود عليه السلام، وقالوا له: إن نقول فى شأنك إلا اعتراك أى: أصابك، بعض آلهتنا بسوء فخبلك لسبِّك إياهـا، فأنـت تهذى، ورد عليهم: إنى أُشْهِدُ اللهَ واشهدوا أنى برئ مما تشركون به ﴿فكيدني جميعاً﴾ فاحتالوا فى إهلاكى أنتم وأصنامكم ثم ﴿لا تنظرون﴾ لا تمهلوني.

وفى الآية الثالثة: قالوا له: سواء علينا وعظك وعدمه، فلن نسمع لك، وما هذا الذى خوفتنا به إلا طبيعـة الأولين وعاداتهم، وما نحن بمعذبين.

هلاك قوم هود:

سلوك القوم قِبَلَ رسالة رسولهم

أبى القوم رسالة هـود التى تـدعوهم إلى نبـذ عبـادة الأصنام والاستمسـاك بعبادة الله سبحانه، وجادلوه بالباطل، واتهموه بالخبل الذى أصابه من قِبَل بعض آلهتهم، وأعلنوا أنَّ وَعْظَه لهم وعدمه سواء، وكان آخر قرارهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) سورة الشعراء الآيات: ١٣٦- ١٣٩.

وقال الله عن استكبارهم: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾[1]، فأرسل الله عليهم العذاب متمثلاً فى الريح الصرصر فى أيام نحسات فأهلكتهم.

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۞ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۞ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۞﴾[2].

روى الإمام الترمذى والنسائى وابن ماجة بسندهم عن الحارث البكرى قال: «خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ، فمررت بالرَبْذة، فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها، فقالت لي: يا عبد الله، إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة، فهل أنت مُبلِّغي إليه؟ قال: فحملتها فأتيت بها المدينة، فإذا المسجد غاصٌّ بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد السيف بين يدي رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها. قال: فجلست، فدخل منزله –أو قال: رحله–فاستأذنت عليه، فأذن لي، فدخلت فسلمت، فقال: "هل كان بينكم وبين تميم شيء؟ قلت: نعم، وكانت لنا الدَّبَرَةُ عليهم، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها فسألتني أن أحملها إليك، وها هي بالباب: فأذن لها فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزا فاجعل الدهناء، فحميت العجوز واستوفزت، وقالت: يا رسول الله، فإلى أين يُضطر مُضطرُك؟ قال: قلت: إن مثلي ما قال الأول: "مِعْزَى

(١) سورة فصلت آية ١٥.
(٢) سورة الحاقة الآيات: ٦–٨.

حَمَلَت حَتْفَها"، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصما، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد. قال: "هيه، وما وافد عاد؟" –وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه –قلت: إن عادًا قحطوا فبعثوا وافدًا لهم يقال له: قَيْلُ، فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهرا يسقيه الخمر وتُغنّيه جاريتان يقال لهما "الجرادتان"، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مَهْرة فقال: اللهم، إنك تعلم أني لم أجئ إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عادا ما كنت تسقيه. فمرت به سحابات سود، فنودي منها: "اختر"، فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها: "خذها رمادًا رمددًا، لا تبقي من عاد أحدا". قال: فما بلغني أنه أرسل عليهم من الريح إلا كقدر ما يجري في خاتمي هذا، حتى هلكوا–قال أبو وائل: وصدق –وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافدًا لهم قالوا: "لا تكن كوافد عاد". رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة)[1].

تفسير بعض الآيات الواردة في قصة هود

١- سورة الأعراف

قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢٧٩/٧ – ٢٧٠.

جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾[1].

بعض المباحث العربية:

قوله: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ الجار والمجرور متعلق بفعل محذوف يدل عليه ما قبله فى قصة نوح ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ فيكون تقدير الفعل: وأرسلناه إلى عاد الأولى أخاهم هوداً وأتى بكلمة أخ لأنه منهم يعرفونه ويعرفون نسبه، و«هوداً» أتى مصروفاً كنوح ولوط ؛ لأنه اسم ثلاثى ساكن الوسط من أجل هذا صُرفت ولم تُمنع من الصرف كأسماء الأنبياء.

و «هوداً» بدلاً من «أخاهم»، فأخاهم مفعول منصوب وعلامة نصبه الألف لأنه من الأسماء الخمسة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ فى قصة هود قال: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ وفى قصة نوح قال ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ﴾ أتى بالفاء مع نوح ؛ لأنه كان مواظباً على دعوة قومه غير متوان فيها كما جاء بذلك القرآن الكريم ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا﴾ فناسبه التعقيب بالفاء، وأما هود فلم يكن كذلك بل كان دونه فى المبالغة فى الدعوة.

---

(1) سورة الأعراف الآيات: ٦٥ – ٧٢.

والعبادة: (العبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى، ولهذا قال ﴿ألا تعبدوا إلا إياه﴾)[1].

قوله تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (من) حرف جر مزيد للتوكيد، و(إله): مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه ضمةٌ مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، و(لكم) الخبر و(غيره) صفة لإله.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ إذا دخلت الهمزة على حرف عطف، سواء كان الفاء أو الواو أو ثم، فإن الهمزة تكون للإنكار، وهى داخلة على محذوف يُقدَّرُ من السياق، وما بعد حرف العطف معطوف على هذا المحذوف المقدر، وهو هنا أتكفرون بالله فلا تتقون عذابه؟ وهذه قاعدة فى القرآن كله.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم أغنياؤهم وأشرافهم وسُمُّوا بذلك لأنهم يملأون العيون.

﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ قوم هود قالوا: ﴿فِي سَفَاهَةٍ﴾، وقوم نوح قالوا: ﴿فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (والسر فى ذلك أن نوحاً لما خوّف قومه بالطوفان وشرع فى عمل السفينة، فعند ذلك قالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ حتى تتعب نفسك فى إصلاح سفينة فى أرض ليس فيها من الماء شيء، وأما هود فإنه لما نهاهم عن عبادة الأصنام، ونسب مَنْ عبدها إلى السفه وهو قلة العقل، قابلوه بمثل ما نسبهم إليه فقالوا له: ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾)[2].

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ص٣١٩.

(٢) الفتوحات الإلهية: ١٥٦/٢.

﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، ﴿آلاء﴾: النِّعَم، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لعلّ: للترجي، ولكنه في حق الله محال، فيكون «لعل» بمعنى كي، أو أنَّ الترجي للمخاطبين، والمعنى: فاذكروا نِعَمَ الله وقابلوها بتوحيده وطاعته على رجائكم أن تفوزوا بجنته.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا﴾: ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾: أي وجب وثبت عليكم ﴿ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أي: عذاب وسخط من جهة ربكم، والغضب في حق الله إرادة الانتقام، أما بالنسبة للبشر فهو ثوران الدم وسرعة حركته في القلب وفي العروق ﴿ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ الاستفهام للإنكار والاستقباح، وقوله: ﴿ فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ في أصنام اخترعتموها ﴿ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ ما أنزل الله بها برهاناً أو حجة، وحرف الجر مزيد للتوكيد، و(سلطان) مفعول به.

قوله: ﴿ فَانْتَظِرُوا﴾ العذاب، وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المؤمنين، وقوله: ﴿ وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي استأصلناهم عن آخرهم، فالدابر هو الآخر.

سورة المؤمنون

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾

﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾(١).

بعض المباحث العربية:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ. فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ أى: أنشأنا من بعد قوم نوح قوماً آخرين هم قوم هود، فأرسلنا فيهم رسولاً من أنفسهم هو هود عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: نعّمناهم فى الحياة الدنيا. قوله تعالى: ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ هذه شُبهة القوم، وهى أنهم قَصَرُوا هوداً على البشرية وأنه مثلهم، فاستبعدوا أن يكون رسولاً. قوله تعالى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ كلمة «هيهات» اسم فعل ماض بمعنى: بَعُدَ، وتستعمل هذه الكلمة مكرَّرة، والثانية توكيد لفظى، وفاعل هيهات إما مضمر والتقدير: بَعُدَ التصديق لما توعدون، أو أن اللام فى «لما» زائدة و«ما» فاعل، والمعنى: بَعُدَ ما توعدون من البعث.

قوله تعالى: ﴿ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾، «عما»: مكونة من «عَنْ» و«ما»، ويجوز أن تكون «ما» مزيدة للتوكيد، ويجوز أن تكون «ما» بمعنى شىء، أو بمعنى: زمن، والجار والمجرور «عما» يتعلق بـ «ليصبحن»، واللام فى «ليصبحن» واقعة فى جواب قسم محذوف تقديره والله.

(١) سورة المؤمنون الآيات: ٣١- ٤١.

قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الغثاء: نبات ضعيف يبس، والمعنى: صيرناهم فى اليبس كالغثاء، وغثاء يجمع على أغثثة، أو على غثيان كغراب يجمع على أغربة وغربان، «وبعداً» مصدر، منصوب بفعل واجب الإضمار لأنه بمعنى الدعاء عليهم، والأصل: بعدوا بُعْداً، والجار والمجرور «للقوم» متعلق به.

سورة فصلت

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾[1].

بعض المباحث العربية

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ دخلت الهمزة التى للإنكار على محذوف مقدَّر، تقديره: أعَمُوا ولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة؟ ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ وكانوا يكفرون بآياتنا. قوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أى: ريحاً باردة والتنكير فى (ريح) يفيد التفخيم والتعظيم، وأفادت كلمة «صرصراً» أن لها صوتاً وهى الصيحة، قوله: ﴿فى أيام نحسات﴾ فى أيام مشئومات وكانت آخر شوال من الأربعاء إلى الأربعاء، ورد هذا عن ابن مسعود وقتادة، وهى الواردة فى قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا

(١) سورة فصلت الآيتان: ١٥- ١٦.

عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[1].

(صرصر): شديدة الصوت، (عاتية): قوية شديدة، (حسوما) متتابعات، (صرعى) مطروحين.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ أى: كأنهم أصول نخل فارغة، فهل ترى لهم من «باقية» أى باق، والتاء للمبالغة.

سورة الأحقاف

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥)﴾[2].

بعض المباحث العربية

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ والمعنى: أجئتنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ العارض: هو السحاب الذى يحمل ماءً.

---

(١) سورة الحاقة الآيتان: ٦ – ٧.

(٢) سورة الأحقاف الآيات: ٢١ – ٢٥.

قصة صالح عليه السلام فى القرآن

- نسب نبيُّ الله صالح عليه السلام.

(هو صالح بن عبيد بن ماسح بن عبيد بن حاجر بن ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له- وفى نسخة أخرى من البداية والنهاية — هو ابن ماشخ، وفى العرائس: هو صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود بن عابر بن إرم .. الخ)[١].

- قوم صالح .

هم قبيلة مشهورة يقال لها: ثمود نسبة إلى جدهم ثمود أخي جُدَيْس، وهما ابنا عابر بن إرم بن سام بن نوح، وكانوا عربا من العاربة يسكنون الحِجْر الذي بين الحجاز وتبوك[٢]، وهى بين الحجاز والشام فى المملكة العربية السعودية، ومدائن صالح ظاهرة إلى اليوم، وبيوتهم منقورة فى الصخر. (يقول المسعودى: ورممهم باقية وآثارهم بادية فى طريق مَنْ وَرَد مِن الشام، وحِجْر ثمود فى الجنوب الشرقى من أرض مدين وهى مُصاقِبة — مجاورة — لخليج العقبة)[٣].

ولقد ذكر القرآن مكان موطنهم، وسمَّى الله سورة من القرآن بهذا الاسم، وهى سورة الحجر، قال تعالى فيها : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ . وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ . وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾[٤].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير: ١/١٣٠ — ١٣١.
(٢) انظر المرجع السابق
(٣) قصص الأنبياء للنجار: ص٥٨.
(٤) سورة الحجر الآيات: ٨٠ — ٨٢.

- دين قوم ثمود:

كانت عقيدتهم الشرك والكفر بالله، فكانوا يعبدون الأصنام والأوثان، وساروا على نهج قوم نوح وقوم هود.

- صالح يدعو قومه إلى الأصول التى جاء بها جميع الرسل:

لقد دعا صالح قومه إلى عبادة الله وتوحيده، وهما من الأصول الخمسة التى جاءت بها الرسل والتى سبق الحديث عنها فى قصة نوح وهود، قال الله: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[1].

وأما الأصول الأخرى وهى: إثبات الرسالة والدعوة إلى البعث والدعوة إلى الأخلاق، فقد قال الله تعالى عنها: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾[2]، فهذه الأصول فى قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ، وفى هذين الأمرين الأصلان الأخيران: الدعوة إلى البعث والدعوة إلى الأخلاق الحسنة، فهما يندرجان اندراجاً ضمنيًا ولقد ساق صالح لهم أنه لا يسألهم أجراً على رسالته، بل أجره عند ربه وهذا كفيل لهم بقبول رسالته.

- معالم دعوة صالح لقومه:

١- لقد قام صالح بنصح قومه ودعوتهم إلى الله ورسالته، لا يريد منهم مالاً على تبليغه رسالة الله، فلا يغرمون شيئاً بل إذا قبلوها ضمن لهم سعادة الدنيا

---

(١) سورة هود آية ٦١.

(٢) سورة الشعراء الآيات: ١٤١ – ١٤٥.

والآخرة، فقابلوها منكرين أن رسالة الله لا تكون على لسان بشر، فقالوا: ﴿أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ . أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ . سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾[1]، فلقد قالوا ما قال غيرهم بعدم قبول الرسالة من بشر مبالغين فى إنكار ذلك.

٢- ذكّرهم بنعم الله حتى يقوموا بشكرها، ومن الشكر الاعتراف بالمنعم وتوحيده وتصديق رسوله، فقال لهم: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾[2]، ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[3].

وقال لهم: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ . فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ . وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [4].

فلقد بدأ صالح بأول نعم الله على البشرية، وهو ابتداء خلقهم من الأرض بخلق أبيهم آدم، فهم لهم نصيب من خلقهم الأول وهو التراب، فلقد ذكرهم صالح مع هذه النعمة بقدرة الله ﷻ التى أوجدتهم من عدم، فهو قادر على إماتتهم وبعثهم، ثم أسدى إليهم نعمة بعد هذه النعمة وهى أنه جعلهم عُمَّاراً لهذه الأرض ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ ودعا إلى الاستغفار من الإعراض والتوبة إلى الله والعودة إلى قبول الرسالة.

---

(١) سورة القمر الآيات: ٢٤ - ٢٦.

(٢) سورة هود آية ٦٢.

(٣) سورة الأعراف آية ٧٤.

(٤) سورة الشعراء الآيات: ١٤٦ - ١٤٩.

ثم ذكرهم صالح بنعمة الله التى أنعم بها عليهم، وهى أنـه منحهم القدرة وعلمهم هندسة المعمار والنحت فى الصخر، فلقد نقروا بيوتاً فى الصخر فقال لهم : ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ ولا تفسدوا فى الأرض بصدكم عن عبادة الله وتوحيده.

وفى الآيات الأخيرة ذكرهم بنعمة الأمن فقال مقدّماً بالاستفهام الإنكارى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ﴾ أى لا تظنوا ولا ينبغى لكم أن تعتقدوا أنكم تُترَكون فى الدنيا متقلّبين فى النعم آمنين من عذاب الله وقد كفرتم به، فأنتم تتنعمون فى بساتين تتفكهون بثمارها، وعيون تتلذذون بمياهها وجمالها، وزروع تقتاتون بها، ونخل تتلذذون بطلعها وهو ثمرها أول ما يطلع فهو هضيم أى: لطيف لين.

٣- لم يقبل قوم صالح دعوته، بل اتهموه بفقدان عقله نتيجة لسحره فقالوا: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [(١)]، هذا أسلوب قصرمنهم بـ«إنَّما» أى ما هو إلا ذاهب العقل بسبب أنه سَحَره ساحر.

٤- طلب القوم معجزة حسيَّةً فقالوا: ﴿مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [(٢)].

فطلبُ المعجزة كان منهم بدليل هذه الآية ولم يكن ابتداءً، بيد أن الله حقق لهم ما أرادوه فكانت الآية، ومن النِّعم فى تلك الآية أنها تشرب ماء البئر فى يوم وهم يشربون فى اليوم التالى، ويوم شربها يشربون لبنها، فيشربون يوماً ماءً ويوماً لبناً.

---

(١) سورة الشعراء آية ١٥٣.

(٢) سورة الشعراء الآيتان: ١٥٤، ١٥٥.

ومع التذكير بهذه النِّعم أعرضوا واستكبروا مع وضوح الآيات: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أى بيَّنا لهم طريق الهدى ببيان الآيات الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى﴾ أى: آثروا الكفر على الهدى، وساروا فى طريق الضلال.

الحديث عن الناقة

قال الله تعالى: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ . وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ. وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾[2]، أى: أن الله أرسل إلى قوم صالح الناقة امتحاناً واختباراً لهم، فانتظِرْهُم يا صالح واصبر، وأخبِرْهم أن ماء البئر مقسوم بينهم وبين الناقة يحضره القوم يومهم والناقة يومها، فتمادوا على ذلك ثم ملُّوه.

وقال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾[3]، فاتركوها تأكل فى أرض الله من العشب والنبات، فليس عليكم كلفة فى مؤنتها وهذا من تتمة إلزامهم.

فقد طلب القوم آية على صدق نبى الله صالح، فأجاب الله طلبهم (ذكر المفسِّرون: أن ثمود اجتمعوا يوماً في ناديهم، فجاءهم رسول الله صالح، فدعاهم إلى الله، وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم، فقالوا له: إن أنت أخرجتَ لنا من هذه الصخرة –وأشاروا إلى صخرة هناك– ناقةً من صفتها كيت وكيت، وذكروا أوصافاً

(١) سورة الشعراء الآيتان: ١٥٥، ١٥٦.

(٢) سورة القمر الآيتان: ٢٨ – ٢٩.

(٣) سورة هود آية ٦٤.

سموها ونعتوها وتعنتوا فيها، وأن تكون عشراء طويلة من صفتها كذا وكذا، فقال لهم النبي صالح ﷺ: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقونني فيما أرسلت به؟ قالوا: نعم.

فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك، ثم قام إلى مصلاه فصلى لله ﷻ ما قدّر له، ثم دعا ربه ﷻ أن يجيبهم إلى ما طلبوا، فأمر الله ﷻ تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عُشَرَاء، على الوجه المطلوب الذي طلبوا أو على الصفة التي نعتوا، فلما عاينوها كذلك رأوا أمرا عظيماً ومنظراً هائلاً، وقدرة باهرة، ودليلا قاطعاً، وبرهانا ساطعاً، فآمن كثير منهم، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم، ولهذا قال: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي: جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها أي أكثرهم...

ولهذا قال لهم صالح ﷺ: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ أضافها الله ﷻ إضافة تشريف وتعظيم، كقوله: بيت الله وعبد الله، ﴿لَكُمْ آيَةً﴾ أي دليلاً على صدق ما جئتكم به، ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾، فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم، وترد الماء يوماً بعد يوم، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم، ويقال: إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم، ولهذا قال: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ﴾ أي: اختباراً لهم أيؤمنون بها أم يكفرون؟ والله أعلم بما يفعلون، ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ أي: انتظر ما يكون من أمرهم، ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ على أذاهم، فسيأتيك الخبر على جلية، ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾، فلمّا طال عليهم الحال هذا؛ اجتمع مَلَؤهُم واتفق

رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة ليستريحوا منها، ويتوفر عليهم ماؤهم، وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم)[1].

- غدر القوم بالناقة :

لقد أنعم الله على قوم صالح فسقاهم يوماً لبناً ويوماً ماءً، فأعماهم الجحود والكفر عن عظم نعمة الناقة، فهي مع أنها نعمة عليهم فهي في غُدُوِّها ورَوَاحها، ووراءها فَصِيلها – ابنها –، تحمل الإعجاز وإثبات رسالة صالح عليه السلام، وقدرة الله في كونها خرجت من صخرة، وليست من جوف ناقة، بل وُلدت من صخرة عارية عن الحياة، فتآمر القوم ورضوا جميعاً بعقر الناقة.

(ذكر علماء المفسرين أن امرأتين من ثمود؛ اسم إحداهما صدوق ابنة المحيا بن زهير بن المختار، وكانت ذات حسب ومال، وكانت تحت رجل من أسلم ففارقته، فدعت ابن عمٍ لها يُقال له مصرع بن مهرج بن المحيا، وعرضت عليه نفسها إنْ هو عَقَرَ الناقةَ. واسم الأخرى عنيزة بنت غنيم بن مجلز، وتكنى أمّ عثمان، وكانت عجوزاً كافرةً لها بنات من زوجها ذؤاب بن عمرو، أحد الرؤساء، فعرضت بناتها الأربع على قُدَار بن سالف؛ إنْ هو عَقَر الناقة فله أيُّ بناتها شاء، فانتُدِبَ هذان الشابّان لعقرها، وسعوا في قومهم بذلك، فاستجاب لهم سبعة آخرون فصاروا تسعة، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، وسعوا في بقية القبيلة، وحسّنوا لهم عقرها، فأجابوهم إلى ذلك، وطاوعوهم في ذلك، فانطلقوا يرصدون الناقة، فلما صدرت من وِرْدِهَا – شربت وخرجت – كَمُنَ لها «مِصْرَعٌ» فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها–اجتمع بعضه إلى بعض–، وجاء النساء يحضضن القبيلة في قتلها،

(١) البداية و النهاية: ١٣٤/١، ١٣٥.

وحسرن عن وجوههن ترغيباً لهم، فابتدرهم قدار بن سالف، فشدَّ عليها بالسيف، فكشف عن عرقوبها، فخرت ساقطة إلى الارض، ورغت رغاة واحدة عظيمة تحذِّر ولدها، ثم طعن في لبَّتها فنحرها، وانطلق سَقْبُها -وهو فصيلها- فصعد جبلاً منيعاً ودعا ثلاثاً.

وروى عبد الرزاق عن معمر عمن سمع الحسن أنه قال: يا ربِّ أين أمي؟، ثم دخل في صخرة فغاب فيها، ويقال: بل اتَّبعوه فعقروه أيضا، قال الله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾، وقال تعالى: ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا . فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ أي: احذروها ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا . وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾)[1].

- العذاب يلوح في الأفق

قال الله عنهم: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[2]، يقول الحافظ ابن كثير في هذه الآية: (فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه:

- منها: أنهم خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقْرِ الناقة التي جعلها الله لهم آية.
- ومنها أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم، فاستحقوه من وجهين: أحدهما: الشرط عليهم في قوله: ﴿وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾، وفي آية أخرى: «عظيم»، وفي الأخرى: «أليم»، والكل حق. والثاني: استعجالهم على ذلك.

---

(١) البداية والنهاية: ١/١٣٥.
(٢) سورة الأعراف آية ٧٧.

- ومنها: أنهم كذبوا الرسول الذي قد قام الدليل القاطع على نبوتـه وصـدقه، وهم يعلمون ذلك علماً جازمـاً، ولكـن حملـهم الكفـرُ والضـلالُ والعنـادُ علـى استبعاد الحق، ووقوع العذاب بهم)[1].

- إمهال القوم ثلاثة أيام

أخبر صالحٌ القومَ فقال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾[2]، وهـذه الثلاثة غير يومهم ذلك، فلم يصدقوا صالحاً في هذا الوعد الأكيد، بـل لما أمسـوا وجاء المساء هموا بقتـل صـالح وأرادوا أن يُلحقـوه بالناقـة، قـال تعـالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ . وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [3]، قال الرهط التسعة الذين باشروا عقر الناقة : احلفوا بالله لنبيتن صالحاً وأهلَه المؤمنين مقتولين ثم لَنَقُولَنَّ لـولىِّ دم كلٍّ واحدٍ منهم: ما حضرنا إهلاكه، فلا ندرى من قتله وإنا لصادقون، ومكروا فى ذلك مكراً بالخداع، ويقول الله تعالى: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ : وجزيناهم على مكرهم، وهم لا يحسون، وقام المتآمرون بمؤامرتهم، فأرسـل الله علـى أولئـك النفـر الـذين قصدوا قتل صالح حجارةً رضختهم قبل قومهم، وأصـبحتْ ثمـود يـوم الخمـيس وهو اليوم الأول من أيام النظرة، والتى ورد ذكرها فى قولـه لهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ عيشوا فى دياركم ثلاثة أيـام، فكـان يـوم الخمـيس هـو اليـوم الأول من الأيام الثلاثة، فأصبحوا وجوهُهم مصفرة كما أنذرهم صالح عليه السلام، فلمـا أمسوا نادوا بأجمعهم : ألا قد مضى يوم من الأجل، ثم أصبحوا فى اليـوم الثـانى من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة ووجوههم مُحْمَرَّة، فلما أمسـوا نـادوا : ألا قـد

---

(١) المرجع السابق: ص١٣٦.
(٢) سورة هود آية ٦٥.
(٣) سورة النمل الآيتان : ٤٩ — ٥٠.

مضى يومان من الأجل، ثم أصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة، فلما أمسوا نادوا : ألا قد مضى الأجل، فلما كان صبيحة يوم الأحد تحنطوا وتأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة، لا يدرون كيف يُفْعَلُ بهم؟، ولا من أي جهة يأتيهم العذاب، فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم، ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت النفوس، وسكنت الحركات، وخشعت الأصوات، وحقت الحقائق فأصبحوا في دارهم جاثمين جثثاً لا أرواح فيها ولا حراك بها.

قالوا: ولم يبق منهم أحد إلا جارية كانت مقعدة واسمها كلبة - ابنت السلق - ويقال لها: الذريعةُ، وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح ﷺ، فلما رأت العذاب أطلقت رِجْلاها فقامت تسعى كأسرع شئ، فأتت حيا من العرب، فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها واستسقتهم ماءً، فلما شربت ماتت)[1].

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾[2]، والطاغية: هي الصيحة الشديدة.

- نداء الحق عليهم :

قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾[3]، أي: نادى عليهم لسان القدر بهذا.

---

(١) انظر: المرجع السابق : ص١٣٦.
(٢) سورة الحاقة آية ٥.
(٣) سورة هود آية ٦٨.

- نداء صالح قَوْمَهُ بعد هلاكهم

قال تعالى عن صالح: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾[1]، فهذا إخبار عن صالح عليه السلام أنه خاطب قومه بعد هلاكهم، وقد أخذ في الذهاب عن تلك الأرض التي كفر أهلها بربهم، وجحدوا نعمته عليهم، فقال لهم حين هجر جيفهم: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ والمعنى: لقد بذلت كل ما في وسعى لهدايتكم، وحرصت على ذلك بقولي وفعلي ونيتي، بَيْد أن سجاياكم لم تكن تقبل الحق ولا تريده، فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم المستمر بكم، المتصل إلى الأبد، وليس لي فيكم حيلة، ولا لي بالدفع عنكم يدان، والذي وجب عليَّ من أباء الرسالة والنصح لكم قد فعلته وبذلته لكم، ولكن الله يفعل ما يريد.

- ما أشبه الليلة بالبارحة

لما تفضل الله على رسولنا سيدنا محمد ﷺ بالنصر على قريش في غزوة بدر، وأراه مصارع أشرافهم، وموت قادتهم، وسُحِبُوا إلى القليب – بئر ليس بها ماء – (ووقف عليهم الرسول ﷺ، وقد ركب راحلته، وأمر بالرحيل من آخر الليل، فقال: « يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا، وقال لهم فيما قال: «بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقتني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم» فقال له عمر: يا رسول الله: تخاطب

---

(١) سورة الأعراف آية ٧٩.

أقواماً قد جَيَّفُوا؟ فقال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يجيبون»[1].

- إزالة لَبْس

(روى عبد الرزاق عن معمر قال: أخبرني إسماعيل بن أمية أن النبي ﷺ مرَّ بقبر أبي رغال فقال: « أتدرون من هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا قبر أبي رغال رجل من ثمود كان في حَرَم الله[2]، فمنعه[3] حرم الله من عذاب الله، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن ههنا، ودفن معه غصن من ذهب، فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم، فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن. قال عبد الرزاق: قال معمر: قال الزهري: أبو رغال أبو ثقيف. هذا مرسل من هذا الوجه، وقد جاء من وجه آخر متصلا)[4].

ولقد روى ابن إسحاق فى خروج أبرهة لهدم الكعبة ومعهم الأفيال، وقد هادنته ثقيف: (فَقَالُوا لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّمَا نَحْنُ عَبِيدُكَ، سَامِعُونَ لَكَ مُطِيعُونَ، لَيْسَ عِنْدَنَا لَكَ خِلافٌ، وَلَيْسَ بَيْتُنَا هَذَا الْبَيْتَ الَّذِي تُرِيدُ – يَعْنُونَ اللاَّتَ – إِنَّمَا تُرِيدُ الْبَيْتَ الَّذِي بِمَكَّةَ، وَنَحْنُ نَبْعَثُ مَعَكَ مَنْ يَدُلُّكَ عَلَيْهِ، فَتَجَاوَزَ عَنْهُمْ، فَبَعَثُوا مَعَهُ أَبَا رِغَال يَدُلُّهُ عَلَى الطَّرِيقِ إِلَى مَكَّةَ، فَخَرَجَ أَبْرَهَةُ ومعه أَبُو رِغَال حَتَّى أَنْزَلَهُ الْمُغَمِّسَ ؛ فَلَمَّا أَنْزَلَهُ بِهِ مَاتَ أَبُو رِغَال هُنَالِكَ، فَرَجَمَتْ قَبْرَهُ الْعَرَبُ، فَهُوَ الْقَبْرُ الَّذِي يَرْجُمُ النَّاسُ بِالْمُغَمِّس)[5].

---

(١) البداية والنهاية: ١٣٨/١.

(٢) أثناء هلاك قومه.

(٣) منعه: أى حماه.

(٤) المرجع السابق: ص١٣٧.

(٥) سيرة ابن هشام: ٦٧/١، ط الكليات الأزهرية.

فقد ورد اسم أبى رغال فى قصة ثمود مع نبى الله صالح، وورد هذا الاسم أيضاً فى خروج أبرهة لهدم الكعبة عام الفيل فى العام الذى ولد فيه الرسول ﷺ، يقول السهيلى: (وَأَمَّا ثَقِيفٌ وَمَا ذُكِرَ مِنْ اخْتِلَافِ النَّسَّابِينَ فِيهِمْ، فَبَعْضُهُمْ يَنْسُبُهُمْ إلَى إيَادٍ، وَبَعْضُهُمْ يَنْسُبُهُمْ إلَى قَيْسٍ، وَقَدْ نُسِبُوا إلَى ثَمُودَ أَيْضًا . وَقَدْ رُوِيَ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ عَنْهُ -ﷺ- رَوَاهُ مَعْمَرُ بْنُ رَاشِدٍ فِي جَامِعِهِ، وَكَذَلِكَ أَيْضًا رُوِيَ فِي الْجَامِعِ أَنّ أَبَا رِغَالٍ مِنْ ثَمُودَ، وَأَنّهُ كَانَ بِالْحَرَمِ حِينَ أَصَابَ قَوْمَهُ الصّيْحَةُ، فَلَمّا خَرَجَ مِنْ الْحَرَمِ أَصَابَهُ مِنْ الْهَلَاكِ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ، فَدُفِنَ هُنَاكَ وَدُفِنَ مَعَهُ غُصْنَانِ مِنْ ذَهَبٍ، وَذُكِرَ أَنّ رَسُولَ اللّهِ - ﷺ - مَرّ بِالْقَبْرِ وَأَمَرَ بِاسْتِخْرَاجِ الْغُصْنَيْنِ مِنْهُ فَاسْتُخْرِجَا . وَقَالَ جَرِيرٌ أَوْ غَيْرُهُ يهجو الفرزدق:

إذَا مَاتَ الْفَرَزْدَقُ فَارْجُمُوهُ ∴ كَرَجْمِكُمُ لِقَبْرِ أَبِي رِغَالِ)[1].

فالروايتان الواردتان فى ذكر اسم أبى رغال، الأولى منهما فى ذكر أبى رغال ثمود، والثانية فى أبى رغال ثقيف.

والذى أراه: أن الروايتين مختلفتان، وأبو رغال ثمود كان معه الغصن أو الغصنان، والثانى كان مع أبرهة بالمغمّس فمات، وكان معه العرب يرجمونه؛ لأنه خرج ليدل أبرهة على الحرم، والحرم له مقام فى قلوب العرب، لذا رجموا قبره، ولم يكن هناك داع فى رجم أبى رغال ثمود.

- مرور النبى ﷺ بالحجر عام تبوك

يقول الحافظ ابن كثير فى كتابه «البداية والنهاية»: (روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك، نزل بهم الحِجْر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود،

---

(١) المرجع السابق هامش: ص٦٦، ٦٧.

فعجنوا منها ونصبوا القدور، فأمرهم رسول الله ﷺ فأهرقوا القدور وعلفوا العجينَ الإبلَ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذِّبوا، فقال: إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم)[1].

تفسير بعض الآيات الواردة فى قصة صالح

سورة هود

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾[2].

- المباحث العربية:

قوله: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ الجار والمجرور متعلق بفعل محذوف، والتقدير: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً، و«صالحاً» بدل من «أخاهم».

قوله: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ فاستغفروه: السين والتاء للطلب، فاطلبوا منه المغفرة من الشرك، ثم ﴿تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أى: ارجعوا إليه بالطاعة، ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ﴾ من خلقه ﴿مُجِيبٌ﴾ لمن سأله.

(١) البداية والنهاية: ١٣٨/١.
(٢) سورة هود الآيتان: ٦١، ٦٢.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ قالوا يا صالح قد كنتَ فينا مرجوّاً نرجو أن تكون لنا سيّداً أو مستشاراً في الأمور، وأن توافقنا في الدين، فلما سمعنا هذا القول منك انقطع رجاؤنا فيك.

قوله: ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ الاستفهام للإنكار، أتنهانا عن عبادة آبائنا؟

سورة النمل

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ۝ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ۝﴾[1].

- المباحث العربية

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ فإذا القوم فريقان تجاه رسالة نبي الله صالح عليه السلام، فريق مؤمنون وفريق كافرون.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ قال صالح: يا قوم لِمَ تستعجلون بالعذاب قبل الرحمة، حيث قلتم: إن كان ما جئتنا به حقًّا فأتنا بالعذاب.

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ لولا بمعنى: هلاَّ التي للحثّ والتحضيض، تستغفرون الله: من الشرك، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لكي تُرْحموا.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ أي: تشاءمنا بك وبمن معك.

---

(١) سورة النمل الآيات: ٤٥ –٤٧.

قوله تعالى: ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ أى: ما يصيبكم من الخير والشر بأمر الله، وهو مكتوب عليكم، وسمى طائراً لأنه لا شىء أسرع من نزول القضاء المحتوم.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ تُخْتَبَرون بالخير والشر.

سورة فصلت

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ (1).

- المباحث العربية

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أى: بيَّنَّا لهم طريق الهداية بإرسالنا لهم صالحاً، ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ فاختاروا «العمى» أى: الكفر، على «الهدى» أى: الإيمان، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ أى: صاعقة العذاب المهين.

سورة النجم

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾ (2).

هم عاد الأخرى، وهم قوم صالح.

---

(1) سورة فصلت الآيتان: ١٧، ١٨.

(2) سورة النجم الآيتان: ٥٠، ٥١.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾[1].

- بعض المباحث العربية:

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ المراد بالنذر الإنذارات أو المواعظ أو الرسل، فالأول على أن يكون النذر مصدراً كالإنذار، والثاني: على أن يكون جمع نذير بمعنى الإنذار والموعظة، والثالث: على أن يكون نذير بمعنى منذر[2].

فالمعنى الأخير: بمعنى منذر، فيكون قوم ثمود قد أتتهم الرسل جميعاً، وتكون الرسل قد أتتهم؛ لأن صالحاً قد أتى بالأصول التي أتى بها الرسل، فكأنهم بُعثوا إليهم من هذه الجهة.

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾ (قوله: ﴿أَبَشَرًا﴾ منصوب على الاشتغال، وهو الراجح لتقدم أداة هي بالفعل أولى)[3].

و ﴿مِّنَّا﴾ نعت له و﴿وَاحِدًا﴾ نعت آخر لـ «بشراً».

---

(١) سورة القمر الآيات: ٢٣ – ٣١.

(٢) الفتوحات الإلهية: ٢٤٦/٤.

(٣) المرجع السابق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا إِذًا﴾ أى: إن اتبعناه ﴿لَفِي ضَلَالٍ﴾ فى ذهاب عن الصواب ﴿وَسُعُرٍ﴾ أى جنون.

قوله تعالى: ﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أَأُلْقِيَ: بتحقيق الهمزتين، وتسهيل الثانية وإدخال ألف بينهما، والذكر: هو الوحى ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ﴾ فى قوله إنه أُوحِيَ إليه، ﴿أَشِرٌ﴾ أى : متكبِّر.

قوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ المراد بالغد : الآخرة.

قوله: ﴿فِتْنَةً لَهُمْ﴾ أى: محنة لهم.

قوله: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ هو: قدار بن سالف، وكان ابن زانية كما أخبر بذلك بعض المفسرين، ﴿فَتَعَاطَى﴾ تناول السيف، ﴿فَعَقَرَ﴾ به الناقة وقتلها موافقة لقومه. قوله: ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ المحتظر: اسم فاعل من الفعل الخماسى «احتظر» أو: مزيد الثلاثى بحرفين كهشيم الذى اتخذ حظيرة لمواشيه.

ومن فتح الظاء جعلها اسم مفعول، أى: الهشيم الذى جمع فى الحظير، والصيحة والصاعقة: هما الصوت الشديد، فصاح بهم جبريل، فالصاعقة: عذاب مهلك يسقط من السماء فى رعد شديد يصاحبه تيار كهربائى.

قصة أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام

- نسبه :

يقول صاحب البداية والنهاية: (هو إبراهيم بن تارخ «٢٥٠» بن ناحور «١٤٨» بن ساروغ «٢٣٠» بن راعو «٢٣٩» ابن فالغ «٤٣٩» بن عابر «٤٦٤» بن شالح «٤٣٣» بن أرفخشذ «٤٣٨» بن سام «٦٠٠» ابن نوح عليه السلام . وهذا نص أهل الكتاب في كتابهم، وقد أعلمت على أعمارهم تحت أسمائهم بالهندي كما ذكروه من المدد)[١] وهذه الأرقام موافقة لما في التوراة.

(وروى ابن عساكر من غير وجه عن عكرمة أنه قال: كان إبراهيم عليه السلام يكنى أبا الضيفان[٢]، قالوا: ولما كان عُمْر تارخ خمساً وسبعين سنة وُلِدَ له إبراهيم عليه السلام وناحور وهاران، ووُلِدَ لهاران لوط، وعندهم أنَّ إبراهيم عليه السلام هو الأوسط وأنَّ هاران مات في حياة أبيه في أرضه التي وُلِدَ فيها، وهي أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل، وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والاخبار)[٣].

- نسب إبراهيم عليه السلام فى القرآن :

لقد بين الله نسب إبراهيم فى القرآن فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[٤].

---

(١) البداية والنهاية: ١/١٣٩.

(٢) الضيفان: جمع ضيف ويجمع أيضاً على أضياف وضيوف.

(٣) المرجع السابق.

(٤) سورة الأنعام آية: ٧٤.

ولقد اختلف علماء الإسلام فى اسم والد إبراهيم (قال الضحاك: عن ابن عباس «إن أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزرَ، إنما كان اسمه تارح – بالحاء – » رواه ابن أبي حاتم.

وعن عِكْرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ﴾ يعني بآزر: الصنم، وأبو إبراهيم اسمه تارح، وأمه اسمها مثاني، وامرأته اسمها سارة، وأم إسماعيل اسمها هاجر، وهي سُرِّيَّة إبراهيم.

وهكذا قال غير واحد من علماء النسب: إن اسمه تارح.

وقال مجاهد والسُّدِّي: (آزر) اسم صنم.

قلتُ – أى الحافظ ابن كثير –: كأنه غُلِّب عليه آزر لخدمته ذلك الصنم، فالله أعلم.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: «هو سبٌّ وعيبٌ بكلامهم، ومعناه: مُعْوَجٌّ»

وقد قال ابن أبي حاتم: «ذُكر عن مُعْتَمِر بن سليمان سمعت أبي يقرأ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ﴾ قال: بلغني أنها أعوج، وأنها أشد كلمة قالها إبراهيم عليه السلام.

ثم قال ابن جرير: والصواب أن اسم أبيه آزر، ثم أورد على نفسه قول النَّسَّابين: إن اسمه تارح، ثم أجاب بأنه قد يكون له اسمان، كما لكثير من الناس، أو يكون أحدهما لقباً، وهذا الذي قاله جيد قوي، والله أعلم)[1].

- القراءات فى آزر:

(قرأ الجمهور بالفتح[2]، إمَّا على أنَّه علم أعجمي لا ينصرف، وهو بدل

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢٨٢/٣، ٢٨٣.

(٢) بفتح الراء من: آزر.

من قوله: ﴿لِأَبِيهِ﴾ أو عطف بيان، وهو أشبه.

وعلى قول من جعله نعتًا لا ينصرف أيضا كأحمر وأسود)[1].

وقرئ بالضم: على النداء.

(فأما من زعم أنه منصوب لكونه معمولاً لقوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ تقديره: يا أبت، أتتخذ آزر أصناماً آلهةً، فإنه قول بعيد في اللغة؛ لأن ما بعد حرف الاستفهام لا يعمل فيما قبله؛ لأن له صدر الكلام، كذا قرره ابن جرير وغيره، وهو مشهور في قواعد اللغة العربية)[2].

- بعد هذا أقول،

إن الذى دعا العلماء إلى الاختلاف هو انصراف همتهم للتوفيق بين التوراة والتواريخ والأخبار والأنساب وبين القرآن، فالقرآن قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ فيكون اسم والد إبراهيم: آزر، ولا نأخذ بالتوراة فهى محرفة بنص القرآن، ولقد حُرِّفت أخبار اليهود، ولا نأخذ شيئاً عن المستشرقين الحاقدين، فإن النقل عن هؤلاء المؤرخين فتح باب الطعن فى القرآن، فلقد تجرأ اثنان من الحاقدين على الإسلام، أحدهما يُدْعَى «مراتشي» وهو قسٌ إيطاليٌ عاش فى القرن السابع عشر، وألَّف كتاباً سمَّاه: «عقيدة الرسول» شتم فيه الرسول ﷺ، والثانى: «فنسنك»، وتعرَّضا للكلام عن «آزر»، وأنه ليس والد إبراهيم عليه السلام، وكَذَبَا على الرسول ﷺ، وقالا بأنه أراد أن يتقرب إلى اليهود بالتقرب إلى إبراهيم عليه السلام، وليس لإبراهيم صلة بالعرب، وكَذَبَا.

(١) المرجع السابق: ص٢٨٣.
(٢) المرجع السابق.

فعلينا أن نقول بما ورد فى القرآن بأن «آزر» هو والد إبراهيم، وقراءة الجمهور تُقَدَّمُ على القراءات الشاذة، فـ«آزر» بدل أو عطف بيان من «أبيه»، ولا ننظر إلى كلام التوراة، ولا النسَّابين ولا المؤرخين، بل نوقن بما قال الله، فالقرآن محفوظ من التحريف ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [1]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾[2].

وورد فى صحيح البخارى: (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: لا تَعْصِنِي، فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لا أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ).

فالرسول ﷺ ذكر إبراهيم وأباه آزر، فلو كان اسم أبيه غير آزر لذَكَرَهُ ﷺ، فيجب أن نُسلِّم بما جاء فى القرآن، ولا داعى إلى التكلُّف على أن آزر عمه، أو أنه اسم صنم، أو أنه تارخ أو تارح.

- إبراهيم فى السَّرَب.

لقد تخوَّفت أمُّ إبراهيم عليه من النمروذ بن كنعان (لما أنْ قد أُخبرَ بوجود مولود يكون ذهاب ملكه على يديه، فأمر بقتل الغلمان عامئذٍ، فلما حملت أم إبراهيم به، وحان وضعها، ذهبت به إلى سَرَبٍ ظاهرَ البلد، فولدت فيه إبراهيم وتركته هناك، وذكر أشياء من خوارق العادات، كما ذكرها غيره من المفسرين من

(١) سورة النساء من الآية ٨٧.
(٢)سورة النساء من الآية ١٢٢.

السلف والخلف)[1].

- المواطن التي ارتادها إبراهيم عليه السلام.

(عن ابن عباس قال: وُلِدَ ابراهيم بغوطة دمشق، في قرية يقال لها «برزة»، في جبل يقال له: «قاسيون»، ثم قال: والصحيح أنه ولد ببابل.

وإنما نُسِب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه إذ جاء مُعيناً للوط عليه السلام.

قالوا: فتزوج ابراهيم «سارة»، وناحور «مِلكا» ابنة هاران، يعنون بابنة أخيه.

قالوا: وكانت سارة عاقراً لا تلد، قالوا: وانطلق تارخ بابنه إبراهيم وامرأته سارة وابن أخيه لوط بن هاران، فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين، فنزلوا حرّان، فمات فيها تارخ وله مائتان وخمسون سنة، وهذا يدل على أنه لم يولد بحران، وإنما مولده بأرض الكلدانيين، وهي أرض بابل وما والاها، ثم ارتحلوا قاصدين أرض الكنعانيين، وهي بلاد بيت المقدس، فأقاموا بحران، وهي أرض الكشدانيين في ذلك الزمان، وكذلك أرض الجزيرة والشام)[2].

- عبادة هذه المناطق.

كانت هذه البلاد تعبد الكواكب السبعة (والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين، يستقبلون القطب الشمالي ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال، ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها، ويعملون لها أعياداً وقرابين، وهكذا كان أهل حران — الذين أقام فيهم إبراهيم — يعبدون الكواكب والاصنام، وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفاراً سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط -عليهم السلام -، وكان

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢٨٥/٣.

(٢) البداية والنهاية: ١٤٠/١.

الخليل عليه السلام هو الذي أزال الله به تلك الشرور، وأبطل به ذاك الضلال، فإن الله ﷻ آتاه رشده في صغره وابتعثه رسولاً، واتخذه خليلاً في كبره، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [1])[2].

- الأصول الخمسة في دعوة إبراهيم عليه السلام:

لقد اشتملت دعوة إبراهيم على الأصول الخمسة التي جاء بها الرسل، وهذه الأصول نجدها مجتمعة في قول الله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ [3].

فالدعوة إلى التوحيد وعبادة الله في قوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾، ويندرج معهما الدعوة إلى الأخلاق في قوله: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾.

وإثبات البعث في قوله: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

وإثبات الرسالة في قوله: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾.

- إنذار إبراهيم عليه السلام لعشيرته،

أقرب العشيرة إلى إبراهيم أبوه، فهو أولى بدعوته من الخلق، لهذا بدأ به.

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٥١.

(٢) المرجع السابق.

(٣) سورة العنكبوت الآيات: ١٦ – ١٨.

- دعوة إبراهيم لأبيه ومحاورته:

قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾[1].

دعا إبراهيم أباه إلى دعوته بألطف عبارة وأحسن إشارة، مقدماً الدليل على أن هذه الأصنام ليس لها سمع حتى تسمع عباده من يعبدها، وليس لها عين حتى ترى من يدعوها، وأنها ليس لديها قدرة فهي عاجزة عن فعل شيء، ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ ثم أتبع ذلك بأنه لا يقول ذلك من قِبَل نفسه، إنما هو العلم الذى جاءه من الله فهداه، وإن كان أصغر من أبيه سناً وأقل تجربة، ولكن المدد العلوى جعله يفقه ويعرف الحق، لهذا دعا والده: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ ولا غرو فليست هناك غضاضة فى أن يتبع الوالد ولده إذا كان الولد على اتصال بمصدر أعلى، فإنما يتبع ذلك المصدر ويسير فى الطريق إلى الهدى، فطريق عبادة الأصنام والأوثان طريق نكارة وقبح يدعو إليه الشيطان، وفيه عبادة للشيطان أيضاً ؛ لأنه

(١) سورة مريم الآيات: ٤١ – ٤٨.

الداعى إلى عبادة غير الله، فالذى يعبد غير الله كأنما يعبد الشيطان، وإبراهيم يحذر أباه من غضب الله، فإنْ غضب الله عليه كان ولياً للشيطان، فطاعة الله نعمة، وغضب الله على العبد نقمة.

خرجت دعوة إبراهيم لأبيه بأساليب لطيفة، وألفاظ رقيقة، بَيْدَ أنها لا تؤثر فى قلب المشرك القاسى، فوالده قد قابل دعوته بالاستنكار والتهديد والوعيد، فقال له: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ ومعناه: أمُعْرِضٌ أنت عن آلهتى يا إبراهيم وكاره لعبادتها؟ لئن لم تنته عن سبها وشتمها لأقْتَصَّنَّ منك، وهذا إنذار لك بالموت الفظيع إن أنت أصررت على هذا الموقف، لأرجمنك بالحجارة حتى الموت، أو لأرجمنك بالمقال، فاغرب عن وجهى وابعد عنى طويلاً استبقاء لحياتك إن كنت تريد النجاة ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ ردَّ عليه إبراهيم بقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أى: سلام عليك وأمان، لا يصلك منى مكروه ولا ينالك منى أذى، بل أنت مسالم من ناحيتى، وزاده خيراً بقوله: سأطلب لك المغفرة من الله، إن الله بى لطيف يهتم بأمرى، وكان إبراهيم دائم الاستغفار له حتى نُهى عن ذلك ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [1]، وما فعله إبراهيم مع والده بقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ رده الله له فى إسماعيل حين قال: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [2].

---

(١) سورة التوبة آية ١١٤.

(٢) سورة الصافات آية ١٠٢.

- دعوة إبراهيم لقومه:

مرت دعوة إبراهيم لقومه بمراحل، وذلك بعد أن بعثه الله تعالى، والذى يقول: إنه دعا قومه بعد خروجه من السَّرَبِ وهو صغير، فهذا بعيد جداً، فهؤلاء القائلون بذلك يفسرون كلمة «قبل» تفسيراً يوافق اتجاههم فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ فالرشد: الصلاح اللائق به وبغيره من الرسل وهذا قبل موسى، وليس المعنى: قبل بلوغه وذلك فى صغره وعندما خرج من السرب، فتكون دعوة إبراهيم بعد أن أرسله الله تعالى، وليست دعوته فى الصغر، فما وقع منه فى الصغر هو من الإرهاصات كبغضه للأصنام وعزوفه عنها واعتزاله القوم عند عبادتها.

مراحل دعوة إبراهيم

١- مرحلة إخبارهم وتنفيرهم من الأصنام:

قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [1].

(١) سورة الشعراء الآيات: ٦٩ – ٨٣.

و قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝ ﴾[1].

فلقد سلك إبراهيم عليه السلام فى الآيات السابقة إبطال عبادة هذه الأصنام بالدليل العقلى الذى يفهمه مَن عنده أثارةٌ من عقل، فقال لهم فى الآيات الأولى: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ فمن لا يسمع إذا ناديته فهو لا يصلح أن يكون إلهاً لأن عابده لو ظلّ بجانبه العمرَ كلَّه فهو لا يسمع ولا ينطق ثم لفت انتباههم إلى دليل آخر: هل ﴿يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ فمن لا ينفع ولا يضر فالعكوف عليه ضياع للوقت ولا فائدة فيه، وقال فى الآية الثانية متسائلاً سؤال استنكار: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ لتذهب نفوسهم فى التفكير فيها كلَّ مذهب، بيد أنهم ردُّوا عليه فى الآيات الأولى والثانية بأنهم على درب آبائهم سائرون؛ لأنهم وجدوا آباءهم لها عابدين، وبعد إبطال أدلتهم بالعقل اتجه بالدليل إلى الله تعالى وأنه المستحق بالعبادة فقال واصفاً الله ﷻ فى الآيات الأولى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِين . وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِين . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِين . وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِين﴾ وقال واصفاً الله ﷻ فى الآيات الثانية: ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾، ولقد سلك إبراهيم مسلك التحلية بعد التخلية.

(١) سورة الأنبياء الآيات: ٥١ – ٥٦.

٢- الدليل العملي على إبطال عبادة الأصنام:

عندما أصرَّ القومُ على عبادة الأصنام والأوثان قام إبراهيم عليه السلام بإبطالها عملياً قال الله تعالى: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝٨٥ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ۝٨٩ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۝٩٠ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ۝٩٣ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ۝٩٤ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾[1].

وإن ممَّنْ تابَعَ نوحاً في أصول الدين إبـراهيمَ عليه السلام ، تابعـه وقت مجيئـه بقلب سليم من الشك وغيره، واذكر وقت أن قال لأبيه وقومـه موبِّخـاً لهـم: مـاذا تعبدون؟ «أئفكا» الإفك هو أسوأ الكذب، وإفكاً مفعول لأجله، وآلهـة مفعـول بـه مقدم للفعل تريدون، والمعنى: أمن أجل أسوأ الكذب تعبدون غـير الله؟ فمـا ظنكم برب العالمين إذ عبدتم غيره؟ فهل يترككم بلا عقاب؟ لا وكانوا نجامين، فخرجوا إلى عيد لهم، وتركوا طعامهم عند أصنامهم زاعمين التبرك عليه فإذا رجعوا أكلوه وقالوا لإبراهيم عليه السلام : اخرج معنا؟ ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ إيهامـاً لهـم أنـه يعتمد عليها ليعتمدوه ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: عليـل سأسـقم، فتولـوا عنـه إلى عيدهم وقد تركوه وراء ظهورهم.

---

(١) سورة الصافات الآيات: ٨٣ – ٩٦.

- إبراهيم يهدم الأصنام ويكسرها لإبطال عبادتها.

لقد ترك القوم إبراهيم ﷺ منصرفين إلى عيدهم، فمال إلى آلهتهم فى خفية فقال مستهزئاً بها: ﴿أَلا تَأْكُلُونَ . مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ . فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [1]، مال إلى الأصنام فقال لها مستهزئاً حاثًّا لها على الأكل: ﴿أَلاَ تَأْكُلُونَ﴾ أى هلاَّ تأكلون، ﴿مَا لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ﴾ استنطق الآلهة، فلم تجبه ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ مال عليهم ضرباً بالقوة فاليمين القوة أو بسبب اليمين التى أقسمها ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ فتكون الباء فى اليمين للسببية، قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ . قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ . قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ . قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [2].

- حوار القوم مع إبراهيم وإلقامهم الحجر.

لقد كسر إبراهيم ﷺ الأصنام فجعلها فتاتاً إلا كبيراً لهم فلقد علَّق الفأس فى عنقه لكى يرجع القومُ إليه فيسألوه عن الذى فعل ببقية الأصنام، قالوا: مَنْ فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين؟ فأجاب بعضهم على البعض الذين سألوا قالوا: سمعنا فتىً يعيبهم يقال له إبراهيم، ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [3]، على أنه الفاعل، ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [4]؟ ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [5]، فاسألوهم عن

---

(١) سورة الصافات الآيات: ٩٢ – ٩٦.
(٢) سورة الأنبياء الآيات: ٥٨ – ٦١
(٣) الأنبياء آية ٦١.
(٤) الأنبياء آية ٦٢.
(٥) الأنبياء آية ٦٣.

الفاعل، ولقد ألقمهم إبراهيم الحجر حين عرَّض لهم بعجز كبيرهم، وحين طلب منهم أن يسألوهم وهم لا ينطقون.

- اعتراف القوم بصواب حجة إبراهيم

قال تعالى: ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ رجعوا إلى أنفسهم بالتفكر فى دليل إبراهيم الذى أبطل عبادتهم وقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بعبادتكم مَنْ عجز عن الدفاع عن نفسه ولا ينطق.

ردَّة بعد إقرار

قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ ثم ردوا إلى كفرهم منكسين الرءوس فقالوا لإبراهيم: والله لقد علمت ما هؤلاء ينطقون، فكيف تأمرنا بسؤالهم؟

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ . أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ .

والمعنى: أضَلَلْتُم فتعبدون غير الله وهو لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم، أفٍّ: نتناً وقبحاً، لكم وللذى تعبدونه من دون الله، أجهلتم فلا تعقلون أن هذه الأصنام لا تستحق العبادة؟ وإنما الذى يستحقها الله ﷻ .

إلقاء إبراهيم فى النار

شرع القوم يجمعون حطباً من جميع ما يمكنهم من كل الأماكن، فمكثوا مدة يجمعون له حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت تَنْذُرُ لئن عوفيت لتحملنَّ حطباً لحريق إبراهيم، ثم عمدوا إلى جَوْبة[1] عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب.

---

(١) الجَوْبَة: الحفرة المستديرة الواسعة فى متسع من الأرض جمعها: جُوَب.

وأطلقوا فيه النار فاضطرمت وتأججت والتهبت وعلا لها شرر لم يُرَ مثله قط، ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام في كفَّة منجنيق صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له: «هزن»، وكان أول من صنع المجانيق فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه، وهو يقول: لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك، فلما وُضِعَ الخليل عليه السلام في كفة المنجنيق مقيداً مكتوفاً ثم ألقوه منه إلى النار، قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، كما روى البخاري عن ابن عباس أنه قال: حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد حين قيل له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾. وقال أبو يعلى بسنده عن أبى هريرة قال: رسول الله ﷺ: «لما أُلقِي إبراهيمُ في النار قال: اللهم إنك في السماء واحد وأنا في الارض واحد أعبدك»

وذكر بعض السلف أن جبريل عرض له في الهواء فقال: ألك حاجةٌ؟ فقال: أما إليك فلا. ويروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير أنه قال: جعل ملك المطر يقول: متى أُومَرُ فأرسل المطر؟ فكان أمر الله أسرع ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ قال علي بن أبي طالب: أي لا تضريه، وقال ابن عباس وأبو العالية: لولا أن الله قال: وسلاما على إبراهيم، لآذى إبراهيم بردها. وقال كعب الاحبار: لم ينتفع أهل الارض يومئذ بنار، ولم يُحْرَق منه سوى وثاقه - قيده -. وعن المنهال بن عمرو أنه قال: أُخْبِرْتُ أنَّ إبراهيم مكث هناك إمَّا أربعين وإمَّا خمسين يوماً، وأنه قال: ما كنت أياماً وليالِيَ أطيب عيشاً إذ كنت فيها، ووَدِدْتُ أن عيشي وحياتي كلها مثلَ إذ كنتُ فيها صلوات الله وسلامه عليه؛ فأرادوا أن ينتصروا فخُذلوا، وأرادوا أن يرتفعوا فاتَّضَعوا، وأرادوا أن يَغْلِبُوا فغُلِبُوا، قال الله

تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ وفي الآية الاخرى: ﴿الْأَسْفَلِينَ﴾ ففازوا بالخسارة والسفال هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم برداً ولا سلاماً ولا يُلَقَّون فيها تحية ولا سلاما؛ بل هي كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

روى البخاري بسنده عن سعيد بن المسيِّب، عن أم شريك «أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوَزَغ[1]، وقال: «وكان ينفخ على ابراهيم»، وروى أحمد بسنده عن نافع: «أن امرأة دخلت على عائشة فإذا رمح منصوب، فقالت: ما هذا الرمح؟ فقالت: نقتل به الأوزاغ. ثم حدثت عن رسول الله ﷺ: «أن إبراهيم لما ألقي في النار جعلت الدوابُّ كلها تطفئ عنه إلا الوَزَغ، فإنه جعل ينفخها عليه»[2].

٣- مناظرة إبراهيم لقومه لإبطال عبادة النجوم:

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ۝ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ

---

(١) الوَزَغ: سامُّ أبرص: يسمى في مصر بالبُرْص.

(٢) البداية والنهاية: ١٤٦/١، ١٤٧، باختصار وتصريف وأعرضنا عن الإسرائيليات.

مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾[(1)].

هذا مقام نظر، وقيل: مناظرة، بدأت الآيات بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يجوز أن يكون الكاف في محل نصب على أنه نعت لمصدر محذوف، والتقدير: نُرى إبراهيم إراءةً كائنةً مثلَ إراءتنا إبراهيم ضلال الأصنام نريه ملكوت السموات والأرض، وهذه الكاف لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من التفخيم.

وقفنا حيال الكاف حتى يظهر المعنى، يقول الحافظ ابن كثير: (وبيَّنَ في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهي: القمر، وعُطَارِدُ، والزُّهَرَة، والشمس، والمرّيخُ، والمشترى، وزحل، وأشدهن إضاءة وأشرقهن عندهم الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة. فبيَّن أولاً أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية؛ لأنها مسخرة مقدرة بسير معين، لا تزيغ عنه يمينًا ولا شِمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفا، بل هي جِرْمٌ من الأجرام خلقها الله منيرةً، لما له في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب فيه عن الأبصار، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال. ومثل هذه لا تصلح للإلهية. ثم انتقل إلى القمر، فبيَّن فيه مثل ما بيَّن في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك. فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي: أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة، فكيدوني بها جميعا ثم لا تنظرون، ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ

---

(1) سورة الأنعام الآيات: ٧٥ – ٨١.

﴿وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء)[1].

وبعد الغوص في معاني هذه الآيات نجد أن المقام مقام مناظرة لا مقام نظر لما يأتي:

١- قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾[2].

٢- قول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[3].

٣- قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[4].

٤- روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة».

٥- روى مسلم «أن رسول الله ﷺ قال: قال الله: إنى خلقت عبادى حنفاء».

فهذه النصوص وغيرها تجعل إبراهيم هو أولى الناس بالفطرة السليمة والطبيعة المستقيمة، فلم يكن ناظراً بل مناظراً لقومه، والذى ينفى النظر عن إبراهيم قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ والرؤية يجوز أن تكون علمية، ويجوز أن تكون بصرية ترتب عليها

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/٢٨٥، ٢٨٦.
(٢) سورة الأنبياء الآية: ٥١.
(٣) سورة النحل: ١٢٠- ١٢٢.
(٤) سورة الأنعام آية ١٦١.

يقين، فإبراهيم عليه السلام انتقل بالقوم من أمر إلى أمر مستدرجاً إياهم إلى الدليل القاطع، وفعل هذا كما فعل بالأصنام.

- مناظرة إبراهيم للنمرود بن كنعان «مدَّعى الألوهية»

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾[1].

صُدِّرت الآية بكلمة «ألم» ولها معنيان: فإما أن تكون للتعجب من أمر، وإما أن تكون للتذكير بأمر، وجاءت فى الآية للتعجب مما وقع فى هذه المناظرة من عبد متمرد ادَّعى الربوبية وهو جاهل، وهذا المدَّعى هو (ملك بابل، واسمه النُّمْرُود[2] بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، وكان أحد ملوك الدنيا، فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان ذو القرنين وسليمان، والكافران النمرود وبُخْتَنَصَّرُ، وذكروا أن نمرود هذا استمر في ملكه أربعمائة سنة، وكان قد طغى وبغى، وتجبر وعتا، وآثر الحياة الدنيا، ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له، حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الصانع، فحاجَّ إبراهيم الخليل في ذلك، وادعى لنفسه الربوبية، وقد ذكر السدي أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود يَوْمَ خَرَجَ من النار)[3].

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٨.

(٢) البداية والنهاية: ١٤٨/١.

(٣) النمرود بالدال وليس بالذال، لسان العرب مادة: (نَمْرَد): ص ٤٥٤.

- المناظرة .

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ ومعنى حاجَّة أى: خاصمه وغَالَبَهُ فى شأن ربه، واسم الموصول المراد به النمرود، وهو الذى ﴿آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ وهذا هو الصحيح.

قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ هذا الدليل (كان في غاية الصحة، وذلك لأنه لا سبيل إلى معرفة الله تعالى إلا بواسطة أفعاله التي لا يشاركه فيها أحد من القادرين، والإحياء والإماتة كذلك؛ لأن الخلق عاجزون عنهما، ومن المعلوم أنه لا بد في الإحياء والإماتة من وجودٍ آخر يؤثر على سبيل القدرة والاختيار في إحياء هذه الحيوانات وفي إماتتها، وذلك هو الله سبحانه وتعالى، وهو دليل قويٌّ ذكره الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم)[1].

قال الذى آتاه الله الملك: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ أورد المفسرون قولاً هو: أن النمرود بن كنعان حبس إبراهيم بعد خروجه من النار، وقال له: من ربك الذى تعبده؟ قال له إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ فقال: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ وأورد المفسرون أنه دعا بشخصين فقتل أحدهما واستبقى الآخر.

وهذه حماقة من النمرود ولوضوح بطلان قوله وظهور سقوطه لم يُقِم إبراهيم عليه السلام دليلاً لدحض حماقته، بل أخرسه.

قال إبراهيم عليه السلام: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ انتقل إبراهيم عليه السلام إلى دليل آخر بعد أن شوَّش الأحمق على الدليل الأول، وظن أنه يحيى ويميت، وهذا لا يقع إلا من الله ، ولم يقع من عيسى عليه السلام بل كان يحيى بإذن الله، فكان إحياؤه من الله.

---

(١) مفاتيح الغيب، للإمام الرازى: ٥٦١/٣، بتصرف، ط دار الغد العربى، العباسية.

انتقل إبراهيم عليه السلام إلى دليل يعجز الأحمق وهو أن الله يـأتي بالشـمس مـن المشرق فليأت بها الأحمق من المغرب، فعجز لأنه لا يستطيع أن يغيِّر شيئاً فـى ملك غيره ؛ لأن الكون ملك لله ﴿فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ﴾ تَحيَّر وسكت، فبقى مغلوباً لا يجد مقالاً ولا جواباً، وفضح الله ربوبيته الكاذبة التى ادَّعاها.

- هلاك النمرود،

(قال زيد بن أسلم: وبعث الله إلى ذلك المَلِك الجبار مَلكا يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه، ثم دعاه الثانية فأبى عليه، ثم الثالثة فأبى عليه.

وقال: اجمع جموعك، وأجمع جموعي، فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس، فأرسل الله عليه ذباباً من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس، وسلَّطها الله عليهم، فأكلت لحومهم ودمائهم، وتركتهم عظاما بادية، ودخلت واحدة منها في مِنْخَر الملك، فمكثت في منخره أربعمائة سنة عذبه الله تعالى بها، فكان يضرب رأسه بالمرازب[1] في هذه المدة كلها حتى أهلكه الله عز وجل بها)[2].

إبراهيم عليه السلام يطلب من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾[3].

---

(١) جمع مرزبه.
(٢) البداية والنهاية: ١٤٩/١.
(٣) سورة البقرة آية ٢٦٠.

ذكر المفسِّرون السبب فى سؤال إبـراهيم هـذا السـؤال، وهـو (أنـه لما قـال لنمرود: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أحب أن يترقى مـن علـم الـيقين في ذلـك إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدة، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْـفَ تُحْـيِ الْمَـوْتَى قَـالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾)[1].

هذا هو السبب الذى دفع أبا الأنبياء إلى هذا السؤال، ولم يكن هناك رائحة شكٍّ فى قلب إبراهيم عليه السلام من وقوع البعث، روى البخارى بسنده عن أبى هريـرة رضي الله عنه قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم، إذ قال: رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى؟ قَالَ: أَوَلَمْ تُؤْمِنْ؟ قَالَ: بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي».

فليس فى هـذا الحـديث أيضـاً رائحـة الشـك، فأفضـل الأجوبـة علـى هـذا الحديث ما قاله (أبو سليمان الخطابي: لـيس في قولـه: «نحـن أحـق بالشـك مـن إبراهيم» اعتراف بالشك علـى نفسـه ولا علـى إبـراهيم، ولكـن فيـه نفـي الشـك عنهما، يقول: إذا لم أشك أنا في قدرة الله على إحياء الموتى، فإبراهيم أولى بـألا يشك، وقال ﷺ ذلك على سبيل التواضع والهضم من النفس، وفيـه الإعـلام بـأن المسألة من جهة إبراهيم لم تعرض من جهة الشك، ولكـن مـن قِبَـل زيـادة العلـم بالعيان، فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيد الاستدلال)[2].

- الحوار الذى دار بين إبراهيم وربه :

قال إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى﴾ كيف: كلمـةٌ يُسْـتَفهمُ بهـا عن حال الشيء وصفته.

قال إبراهيم: يا رب أرنى رؤيةً بصريةً صفة إحياء الموتى؟

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤٦٥/١.
(٢) هامش تفسير القرآن العظيم: ٤٦٦/١، ط الشعب.

قال الله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾؟ الهمزة إذا دخلت على حرف عطف كانت للإنكار، وكانت داخلة على محذوف، وما بعد حرف العطف معطوف على هذا المحذوف، ويقدر هذا المحذوف من السياق، وهو هنا «أتشك ولم تؤمن»؟ فَنَفَى إبراهيم النّفْي بقوله: «بلى» و معناه: أنا لم أشك ولكن ليطمئن قلبي.

قال الله: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

اختلف المفسرون في هذه الأربعة من الطير ما هي ؟ ونرى أنّ تعيين هذه الطيور لا طائل تحته، فلو كان فيها شيء مهم لنصّتْ عليه الآية، وبعض المفسرين عيّنها، (فروى عن ابن عباس أنه قال: هي الغُرْنُوقُ- طائر مائي أسود- والطاووس والديك والحمامة، وعنه أيضًا: أنه أخذ وزًّا ورألاً - فرخ النعام - وديكاً وطاووسًا، وقال مجاهد وعكرمة: كانت حمامةً وديكاً وطاووسًا، وغرابًا)[1].

لقد أمره الله بذبحهن ثم قال له: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ قطّعهن ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا﴾ (فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن، ثم قطعهن ونتف ريشهن ومزقهن، وخلط بعضهن في ببعض، ثم جزّأهن أجزاءً، وجعل على كل جبل منهن جزءًا، قيل: أربعة أجبل، وقيل: سبعة أجبل، وأخذ رؤوسهن بيده، ثم أمره الله عز وجل، أن يدعوهن، فدعاهن كما أمره الله عز وجل، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على حدته، وأتينه يمشين سعياً ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها، وجَعَلَ كُلُّ طائر يجيء ليأخذ رأسه

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤٦٦/١.

الذي في يد إبراهيم عليه السلام، فإذا قدّم له غير رأسه يأباه، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جثته بحول الله وقوته؛ ولهذا قال: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي عزيز لا يغلبه شيء، ولا يمتنع منه شيء)[1].

ساق الفخر الرازى اسم الطيور الأربعة، وعلّق عليها فقال: (إنه لما خص الطير من جملة الحيوانات بهذه الحالة ذكروا فيه وجهين:

الأول: أن الطيران في السماء، والارتفاع في الهواء، والخليل كانت همته العلو والوصول إلى الملكوت فجُعِلت معجزته مشاكلة لهمته.

والوجه الثاني: أن الخليل عليه السلام لما ذبح الطيور وجعلها قطعةً قطعةً، ووضع على رأس كل جبل قطعاً مختلطة، ثم دعاها طار كلّ جزء إلى مشاكله، فقيل له: كما طار كل جزء إلى مشاكله كذا يوم القيامة يطير كل جزء إلى مشاكله حتى تتألف الأبدان وتتصل بها الأرواح، وخص الله هذه الطيور: الطاووس والنسر والديك والغراب؛ لأن الطاوس إشارة إلى ما في الإنسان من حب الزينة والجاه والترفع، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشهوات﴾[2]، والنسر إشارة إلى شدة الشغف بالأكل، والديك إشارة إلى شدة الشغف بقضاء الشهوة من الفرج، والغراب إشارة إلى شدة الحرص على الجمع والطلب، فإن مِنْ حِرْصِ الغراب أنه يطير بالليل ويخرج بالنهار في غاية البرد للطلب، والإشارة فيه إلى أن الإنسان ما لم يَسْعَ في قتل شهوة النفس والفَرْج، وفي إبطال الحرص وإبطال التزين للخلق لم يجد في قلبه رَوْحاً وراحة من نور جلال الله)[3].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) سورة آل عمران آية ١٤.

(٣) مفاتيح الغيب: ٥٨٤/٣، ٥٨٥.

- هجرة الخليل إلى الشام ومصر:

قال الله تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ، وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾[2].

عرف إبراهيم عليه السلام أن قومه سادرون فى غيِّهم، مصرون على شركهم، فهجرهم إبراهيم، وكانت امرأته عاقراً لا تلد، ولم يكن لها أولاد، وخرج إبراهيم ومعه أيضاً ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر، واتجه إلى أرض الشام وبخاصة بيت المقدس، وهى التى قال الله فيها: ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾.

وقيل: هاجر إلى مكة فى رواية لابن عباس رضى الله عنهما[3] : ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾.

وذهب كعب الأحبار أنها حران، وسارة بنت عمه هاران الذى تنسب إليه حران، وليست أخت لوط كما زعم البعض، فأرض الشام كانت موطن هجرته، وليست مكة؛ لأننا لو تتبعنا الأحداث وجدنا القرائن تشير إلى الشام وليس مكة لما يأتى:

١- أرض مكة سُمِّيت «بلداً» قال تعالى عنه: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا﴾.

٢- وسميت باسم البلد.

٣- وسميت بـ«مكة» و «بكة» وسميت بغير ذلك.

---

(١) سورة العنكبوت الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٢) سورة الأنبياء الآيتان: ٧١، ٧٢.

(٣) انظر: البداية والنهاية: ١/١٥٠.

أما الأرض التي قال عنها -عند الحديث عن إبراهيم-: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ فهي أرض بيت المقدس ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾.

- رحلة إبراهيم إلى مصر:

(روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات؛ قوله حين دُعي إلى آلهتهم فقال: (إني سقيم)، وقوله: (بل فعله كبيرهم هذا)، وقوله لسارة: (إنها أختي)، قال: ودخل إبراهيم قرية فيها مَلِك من الملوك، أو جبار من الجبابرة، فقيل: دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس، قال: فأرسل إليه الملك أو الجبار مَن هذه معك؟ قال: أختي، قال: فأرْسِلْ بها، قال: فأرْسَلَ بها إليه وقال: لا تكذبي قولي، فإني قد أخبرته أنك أختي، ما على الارض مؤمن غيري وغيرك، فلما دخلت عليه قام إليها، فأقبلت تتوضأ وتصلي وتقول: اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط عليّ الكافر، قال: فغطّ حتى ركض برجله.وفي رواية أخرى عن أبي هريرة إنها قالت: اللهم إن يمت يقال هي قتلته، قال: فأرسل، قال: فقال في الثالثة أو الرابعة: ما أرسلتم إليّ إلا شيطانا، أرجعوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجر، قال: فرجعت لإبراهيم)[1]. وكان هذا الجبار جبارَ مصر.

(وذكر بعض أهل التواريخ أن فرعون مصر هذا كان أخاً للضحاك الملك المشهور بالظلم، وكان عاملا لأخيه على مصر.

---

(١) البداية والنهاية: ١٥١/١.

وذكر ابن هشام في التيجان: أن الذي أرادها «عمرو بن امرئ القيس بن مايلون بن سبأ» وكان على مصر، نقله السهيلي، فالله أعلم)[1].

ثم إن الخليل عليه السلام رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمُّن، وهي الأرض المقدسة التي كان فيها، ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل، وصحبتهم هاجر القبطية المصرية، ثم إن لوطاً عليه السلام نزح بماله من الأموال الجزيلة بأمر الخليل، ونزل مدينة سدوم)[2].

- ميلاد إسماعيل عليه السلام.

لقد سبق أن أهدى ملك مصر إبراهيم دواب كثيرة من البقر والإبل والغنم، وأهداه «هاجر» لتخدم زوجه سارة، واتجه إلى بيت المقدس، وظل هناك عشرين سنة طلب من الله ولداً، قال تعالى عنه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ، فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾[3]، (وأنه لما كان لإبراهيم ببلاد بيت المقدس عشرون سنة قالت سارة لإبراهيم عليه السلام: إن الرب قد أحرمني الولد، فادخل على أَمَتي هذه لعل الله يرزقني منها ولداً، فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم عليه السلام، فحين دخل بها حملت منه، قالوا: فلما حملت ارتفعت نفسها وتعاظمت على سيدتها، فغارت منها سارة، فشَكَت ذلك إلى إبراهيم، فقال لها: افعلي بها ما شئت، فخافت هاجر فهربت فنزلت عند عين هناك، فقال لها مَلَكٌ من الملائكة: لا تخافي فإن الله جاعل من هذا الغلام الذي حملتِ خيراً، وأمرها بالرجوع، وبشرها أنها ستلد ابناً وتسميه إسماعيل، ويكون وحش الناس يَدُهُ على الكل ويد الكل به، ويملك جميع

---

(١) المرجع السابق: ص١٥٢.

(٢) المرجع السابق.

(٣) سورة الصافات الآيتان: ١٠٠، ١٠١.

بلاد إخوته، فشكرت الله ﷻ على ذلك، وهذه البشارة إنما انطبقت على ولده محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه الذي سادت به العرب، وملكت جميع البلاد غربا وشرقا، وآتاها الله من العلم النافع والعمل الصالح ما لم تؤت أمة من الأمم)(١).

(ولما رجعت هاجر وضعت إسماعيل عليه السلام، قالوا: وولدته ولإبراهيم من العمر ستٌّ وثمانون سنة قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنة)(٢).

لقد رأت سارة أن أَمَتها قد ولدت إسماعيل، ولم يأت منها شيء، فأَسَرتْها الغيْرَةُ (وطلبت من الخليل أن يُغَيِّب وجهها — أي وجه هاجر- عنها، فذهب بها وبولدها، فسار بهما حتى وضعهما حيث مكةُ اليومَ، ويقال: إن ولدها كان إذ ذاك رضيعاً، فلما تركهما هناك وولي ظهره عنهما، قامت إليه هاجر وتعلقت بثيابه وقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتدعنا ههنا وليس معنا ما يكفينا؟ فلم يجبها، فلما ألحَّت عليه وهو لا يجيبها قالت له: آللهُ أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: فإذاً لا يضيعنا. وقد ذكر الشيخ أبو محمد بن أبي زيد -رحمه الله- في كتاب «النوادر»: أن سارة تغضبت على هاجر، فحلفت لتقطعن ثلاثة أعضاء منها، فأمرها الخليل أن تثقب أذنيها وأن تخفضها فتبرَّ قسمها، قال السهيلي: فكانت أول من اختتن من النساء، وأول من ثُقبت أذنها منهن، وأول من طوَّلَتْ ذيلها — أي ذيل ثوبها-)(٣).

والمكان الذى وضع إبراهيم ابنه وأمه فيه هو مكان البيت الحرام، بيد أنه لم يكن قائماً ولا مكتملاً؛ بل كان أثراً بعد ما عصفت به عوامل التعرية من سيول

---

(١) البداية والنهاية: ١٥٣/١.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق: ص١٥٤.

ومطر وريح وشمس، وترك إبراهيم هاجرَ ورضيعها عندهما جرابٌ فيه تمر، وسقاءٌ فيه ماء.

- ماذا بعد أن ترك إبراهيم هاجر وابنها.

(انطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنيَّة حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت ثم دعا بدعوات ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾(١)، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيلَ وتشرب من ذلك الماء؛ حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى – أو قال: يَتَلَبَّط –، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا؛ حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف ذراعها ثم سعت سعي الانسان المجهود، حتى إذا جاوزت الوادي، ثم أتت المروة، فقامت عليها، ونظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: " فلذلك سعى الناس بينهما "، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صَهْ(٢)، تريد نفسها، ثم تَسَمَّعت فسمعت أيضا؛ فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غَوَاث – إعانة ونصرة –، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه – أو قال بجناحه – حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهي تفور بعد ما تغرف، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: " يرحم الله أم اسماعيل لو تركت زمزم " أو قال: " لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا " فشربت وأرضعت

---

(١) سورة إبراهيم آية ٣٧.

(٢) صه: بسكون الهاء وتنوينها لغتان فيها، اسم فعل أمر بمعنى: اسكت.

ولدها، فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة، فإن ههنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جُرْهُم، أو أهل بيت من جرهم، مقبلين من طريق كذا فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفا، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على الماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا رجلاً أو رجلين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا، قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: تأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم، قال عبد الله بن عباس: قال النبي ﷺ: " فألفى – وافق – ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوَّجوه امرأةً منهم، وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تَرِكَتَه، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشَرٍ في ضيق وشدة، وشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك اقرئي عليه السلام وقولي له: يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل، كأنه آنس شيئا، فقال: هل جاءكم من أحد ؟ فقالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنَّا في جهد وشدة، قال فهل أوصاك بشئ؟ فقالت: نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول لك: غيِّر عتبةَ بابك، قال: ذاك أبي، وأمرني أن أفارقك، فألحقي بأهلِك، فطلقها وتزوج منهم أخرى، ولبث عنهم إبراهيم ماشاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم، وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله، فقال: ما طعامكم ؟ قالت: اللحم، قال فما شرابكم قالت: الماء،

قال اللهم بارك لهم في اللحم والماء، قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ، ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه» فهما لا يخلو عليهما أحد بعين مكة إلا لم يوافقاه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومُريه يثبِّت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك، فأخبرته، فسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنّا بخير، قال: فأوصاك بشئ؟ قالت: نعم هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبي وأمرني أن أمسكك[1].

لقد كان إبراهيم يزور إسماعيل وأمه بين الحين والحين، وقيل: كان يركب البراق إذا سار إليهم، فكيف يتخلف عن مطالعة حالهم وهم في غاية الضرورة الشديدة والحاجة الأكيدة[2].

- قصة الذبح والفداء.

وفي إحدى الزيارات أخبر إسماعيل بأمر الله له بذبحه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۝ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ۝ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۝ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ

(١) البداية والنهاية: ١/١٥٥ – ١٥٦.
(٢) المرجع السابق ص١٥٧.

ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾﴾[1].

- طلب إبراهيم الغلام الصالح:

ترك إبراهيم عشيرته وقومه، وأدبر عن الأرض التى فيها نبت، وعلى أديمها درج، وترك كل مألوف له فى حياته، فضرع إلى الله تعالى أن يرزقه غلاماً صالحاً فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ. فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾، تستعمل الهبة غالباً فى الولد، وجاءت قليلاً فى الأخ وأراد بهذا الدعاء أموراً ثلاثة:

الأول: أن يكون ذكراً.

الثانى: أن يبارك فيه حتى يصل إلى مرحلة الشباب.

الثالث: أن يكون حليماً فى سلوكه.

فـ"مِنْ" حرف جر يفيد التبعيض، والصالحين: جمع مذكر سالم، والصلاح يكون عند التكليف، وحد التكليف البلوغ، فالصلاح خير من الغنى والنسب والشرف والجاه، فهو زاد فى الدنيا وزاد إلى الله، فلذلك طلبه إبراهيم لنفسه فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ وطلبه لولده فى هذه الآية، وأعقب الله دعاءه بالبشرى، فقال: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ إجابة لطلبه، وظهر حلمه عند بلاء الذبح، وهذا الغلام هو إسماعيل.

- الذبح والفداء:

بعد أن ساق الله تعالى البشرى بهذا الغلام الحليم، أعقب ذلك بما يدل على حلمه وصلاحه، فقال: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ

(١) سورة الصافات الآيات: ٩٩ – ١١٣.

أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾﴾ **يفع الغلام وبلغ الشباب وحد المسئولية فى السعى من أجل لقمة العيش، وأحبه إبراهيم حباً شديداً فاختبر فى حبه، هل حُبُّه لله أقوى أو حبه ولده إسماعيل؟**

- آراء العلماء فى الذبيح،

اختلف العلماء فى الذبيح إلى ثلاثة مذاهب: الأول: وهم عُمَرُ وعلىٌّ والعباس وابن مسعود وكعب الأحبار وقتادة وسعيد بن جبير ومسروق وعكرمة والزهرى والسدى ومقاتل، قالوا: إن الذبيح إسحاق.

واستدل هؤلاء بما يأتى:

١- قوله تعالى: ﴿إنى ذاهب إلى ربي﴾ وفى هذا إجماع على أن المراد هجرته إلى الشام، وقوله تعالى فى آخر الآية: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ وهذا الغلام ليس إلا إسحاق لأنه كان فى الشام، ولما ختم الله تعالى الآيات التى ذكرت أحداث الذبح قال: ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ وبشره بالنبوة لأجل أنه تحمل الشدائد فى الذبح.

٢- (قال يوسف عليه السلام للملك فى وجهه: ترغب أن تأكل معى وأنا والله يوسف ابن يعقوب نبى الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله)[1].

(١) تفسير ابن كثير: ٢٧/٧.

(حدثنا أبو كريب: حدثنا زيد بن حباب عن الحسن بن دينار عن علي بن زيد بن جدعان عن الحسن عن الأحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب عن النبي ﷺ في حديث ذكره قال: هو إسحاق)[1].

- الرد على هذه الأدلة:

هذه الأدلة كانت رجماً بالغيب، فقد فسروا الآيات دون أن يكون هناك تفسير مرفوع إلى الرسول ﷺ ، وهذا يحتمل الخطأ والصواب، ونص الآية ليس معهم، فحين هاجر إبراهيم ذهب إلى فلسطين، فاتخذوا من أرض المهجر التى بالشام ذريعة للقول بأنه إسحاق، فليست أحداث الذبح فى الشام، بل كانت بالقرب من مكة بالحجاز، فإبراهيم كان يقوم بزيارة إسماعيل بين الفينة والفينة، ولو كان الذبيح إسحاقَ لكان مسرح الأحداث فى بيت المقدس، وأما ما استدل به هؤلاء بكلام يوسف، فهذا من الإسرائيليات، ولا يصلح أن يكون دليلاً مستقلاً، وأما الحديث فقد ضعفه ابن كثير فقال: (ففي إسناده ضعيفان، وهما الحسن بن دينار البصري، متروك. وعلي بن زيد بن جدعان، منكر الحدث)[2].

الثانى: روى فى رواية أخرى عن عمر وابن عباس، وبعض التابعين سعيد بن المسيب والشعبى ويوسف بن مهران ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظى والكلبى وعلقمة: أن الذبيح إسماعيل.

حجج هؤلاء:

ربما احتج هؤلاء بما يأتى:

---

(١) المرجع السابق: ص٢٨.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣٨/٧.

(الأول: أن رسول الله ﷺ قال: «أنا ابن الذبيحين»، وقال له أعرابي: «يا ابن الذبيحين، فتبسم، فسُئِلَ عن ذلك، فقال: «إن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر لله لئن سهَّل الله له أمرها ليذبحن أحد ولده، فخرج السهم على عبد الله، فمنعه أخواله وقالوا له: افد ابنك بمائة من الإبل، ففداه بمائة من الإبل، والذبيح الثاني إسماعيل».

الثاني: نقل عن الأصمعي أنه قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح، فقال: يا أصمعي أين عقلك؟ ومتى كان إسحق بمكة؟ وإنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه، والمنحر بمكة.

الثالث: أن الله تعالى وصف إسماعيل بالصبر دون إسحق في قوله: ﴿وإسماعيل وَإدْرِيسَ وَذَا الكفل كُلٌّ مِّنَ الصابرين﴾[1]، ووصفه أيضاً بصدق الوعد في قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ صادق الوعد﴾[2].

الرابع: قوله تعالى: ﴿فبشرناها بإسحاق وَمِن وَرَاء إسحاق يَعْقُوبَ﴾[3] فنقول: لو كان الذبيح إسحق لكان الأمر بذبحه إما أن يقع قبل ظهور يعقوب منه أو بعد ذلك، فالأول باطل لأنه تعالى لما بشرها بإسحق، وبشرها معه بأنه يحصل منه يعقوب فقبل ظهور يعقوب منه لم يجز الأمر بذبحه، وإلا حصل الخلف في قوله: ﴿وَمِن وَرَاء إسحاق يعقوب﴾ والثاني باطل لأن قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السعي قَالَ يابنى إِنّى أرى فِى المنام أَنّى أَذْبَحُكَ﴾ يدل على أن ذلك الابن لما قدر على السعي، ووصل

---

(١) سورة الأنبياء آية ٨٥.
(٢) سورة مريم آية ٥٤.
(٣) سورة هود آية ٧١.

إلى حد القدرة على الفعل، أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه، وذلك ينافي وقوع هذه القصة في زمان آخر.

الخامس: حكى الله تعالى عنه أنه قال: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[1] ثم طلب من الله تعالى ولداً يأنس به في غربته فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصالحين﴾[2] وهذا السؤال إنما يحسن قبل أن يحصل له الولد، لأنه لو حصل له ولد واحد لما طلب الولد الواحد، لأن طلب الحاصل محال وقوله: ﴿هَبْ لِى مِنَ الصالحين﴾ لا يفيد إلا طلب الولد الواحد، وكلمة «من» للتبعيض، وأقل درجات البعضية الواحد، فكان قوله: ﴿مِّنَ الصالحين﴾ لا يفيد إلا طلب الولد الواحد، فثبت أن هذا السؤال لا يحسن إلا عند عدم كل الأولاد، فثبت أن هذا السؤال وقع حال طلب الولد الأول، وأجمع الناس على أن إسماعيل متقدم في الوجود على إسحق،

السادس: الأخبار الكثيرة في تعليق قرن الكبش بالكعبة، فكان الذبيح بمكة، ولو كان الذبيح إسحق كان الذبح بالشام)[3]

وهذه الأدلة لم يقبلها صاحب الفتوحات، وردَّ بعضها فقال: (وهذا الاستدلال كله ليس بقاطع، أما قولهم: كيف يأمر بذبحه وقد وعده أن يكون نبياً، فإنه يحتمل أن يكون المعنى: وبشرناه بنبوته بعد أن كان من أمره ما كان، قاله ابن عباس، ولعله أمره بذبح إسحاق بعد أن وَلَدَ إسحاقُ يعقوبَ، أو يقال: لم يرد في القرآن أن يعقوب يولد له من إسحاق، وأما قولهم: ولو كان الذبيح إسحاق

(١) سورة الصافات آية ٩٩.
(٢) سورة الصافات آية ١٠٠.
(٣) مفاتيح الغيب: ١٤٩/٧ — ١٥٠.

لكان الذبح يقع ببيت المقدس، فالجواب عنه ما قاله سعيد بن جبير على ما تقدم)[1].

ونص ما نقله مقدماً: (قال سعيد بن جبير: أُرِىَ إبراهيمُ ذَبْحَ إسحاق فى المنام، فسار به مسيرة شهر فى غداة واحدة، حتى أتى به المنحر بمنى، فلما صرف الله عنه الذبح أمره أن يذبح الكبش، فذبحه وسار به إلى مسيرة شهر فى روحة واحدة، وطويت له الأودية والجبال)[2]. وهذا ما قاله صاحب الفتوحات، وهى واهية أمام حجج القائلين بأن الذبيح إسماعيل، واستئناسه بقول سعيد بن جبير ليس دليلاً على أن الذبيح إسحاق؛ لأن هذا قول سعيد ورأيه، وليس حديثاً عن الرسول ﷺ.

ورأيى: أن الذبيح إسماعيل؛ لقول الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾[3]، فقدم إسماعيل على إسحاق فالذبيح إسماعيل، ولوضوح الأدلة السابقة على ذلك، وقد استقى القائلون بأنه إسحاق هذا الفكر من كعب الأحبار الذى كان يهودياً ثم أسلم، وقد تشبع بأنه إسحاق حينما كان على دين قومه، وبث ذلك بين المسلمين.

وقد قال فى هذا الحافظُ ابن كثير: (وهذه الأقوال -والله أعلم- كلها مأخوذة عن كعب الأحبار، فإنه لما أسلم في الدولة العمرية جعل يحدث عمر رضي الله عنه عن كتبه، فربما استمع له عمر رضي الله عنه، فترخص الناس في استماع ما عنده، ونقلوا عنه غثها وسمينها، وليس لهذه الأمة -والله أعلم- حاجة إلى حرف واحد مما

---

(١) الفتوحات الإلهية: ٥٤٩/٣.
(٢) المرجع السابق: ص٥٤٨.
(٣) سورة إبراهيم آية ٣٩.

عنده. وقد حكى البغوي هذا القول بأنه إسحاق عن عمر وعليٍّ وابن مسعود والعباس، ومن التابعين عن كعب الأحبار)[1].

وذهب إلى هذا أيضاً الأستاذ عبد الوهاب النجار فقال: (ولا شك أن الضمير فى «عليه» أى: وباركنا عليه وعلى إسحاق — راجع إلى الذبيح، فالإتيان بالبُشْرَى بإسحاق بعد ذكر القصة صريح فى أن إسحاق غير الغلام الذى ابتلى الله إبراهيم بذبحه، وعود الضمير إلى الغلام الذبيح وذكر اسم إسحاق معه صريحاً يقتضى التغاير بين الذبيح وإسحاق)[2].

الثالث: التوقف والإمساك عن تعيين الذبيح، ونكتفى بما قاله الله تعالى، وهذا المذهب يبغى السلامة، وأيضاً تعيين الذبيح ليس من الأمور العقائدية، ولقد اتجه الزجَّاج هذا الاتجاه.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

هذه الآية تعطى المعانى الآتية:

١- أن الغلام شاب لأنه أصبح قادراً على أن يسعى على عيشه ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾.

٢- تكليف إبراهيم بذبح ولده مناماً، سر الأمر فى المنام أن هذا التكليف فيه مشقة وآلام على نفس الشيخ إبراهيم الذابح، وله نفس الوقع على نفس الشاب، لهذا كان التكليف مناماً، وبالاستقصاء يدرك الباحث أن رؤى الأنبياء وحى، كما قال الله تعالى فى يوسف: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا

---

(١) تفسير ابن كثير: ٧/٢٨.
(٢) قصص الأنبياء: ص١٠٢.

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[1]، وكما قال الله تعالى في شأن رسولنا ﷺ: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾[2]، ولقد عبر إبراهيم بالفعل المضارع مع أن السياق يقتضى الماضى لاستحضار صورة الأمر فى الذهن.

٣- الطاعة المطلقة لله تعالى: أراد إبراهيم ﷺ أن يتبوأ الابن مقام الرضا من الله تعالى، وأن يسمو بطاعته، فعرض عليه الأمر ولم يأخذه على غِرَّةٍ لينال الابن ما يناله الوالد من الثواب ولذة الطاعة، وحلاوة الاستسلام، ولهذا كانت إجابة الابن: (افعل ما تؤمر)، وحذف الجار والمجرور يدل على العموم، وهذا يعنى: افعل كل ما أمرك به الله من ذبح وغيره.

٤- اتصاف الخليل وولده بالصبر، فحين عرض عليه الذبح لم يكن هذا سهلاً على قلبه أو يسيراً على نفسه، ومع الآلام انصاع لأمر الله، فهذا صبر على البلاء، والابن قال له على سبيل التأكيد: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ ، ومع هذا التأكيد بالسين لم يقل: «صابراً» بل قال «من الصابرين» لأمرين:

الأول: أن من الناس من ابتلى أكثر من هذا.

الثاني: أنه جعل هذا البلاء أخف من بلاء غيره، فعد نفسه معهم ولم يجعل نفسه قدوة لهم.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ برز قَبْلُ الطاعة فى الآية الآنفة، وفى هذه تتجلى الطاعة فى أسمى صورها، وهى التنفيذ، إن إبراهيم لم يدع العواطف تطيف بجائشته؛ لأن هذا أمر الله وهو أرحم من إبراهيم على الولد، فأسلم الأمر

(١) سورة يوسف آية ٤.
(٢) سورة الفتح آية ٢٧.

لله، وأكب الولد على جبينه، أى على المنطقة التى تعلوا الصدغ، فللإنسان جبينان: عن يمين الجبهة وشمالها فيستسلم ولا يتحرك امتناعاً، فانقاد لأمر الله تعالى، ولقد أوضحت الآية ما اختلف حوله العلماء واضطرب الفكر بشأنه، فقالوا: قال الولد لأبيه: «لا تنظر إليَّ فترحمني، ولكن اجعل وجهي إلى الأرض، فأخذ السكين فأمرَّ بها على حلقه فانقلبت، فقال له: مالك؟ فقال: انقلبت السكين، فقال اطعنِّي بها طعناً، وقال بعضهم: كان كلما قطع جزءًا التأم، وقالت طائفة: وجد حلقة نحاساً أو مغشى بنحاس، وكان كلما أراد قطعاً وجد منعاً»[1].

فهذا الوصف يفتقر إلى نص صحيح، فالمفسرون قد استقوا هذا من الإسرائيليات، ولكن صريح الآية يحسم الخلاف، وينتهي الأمر إلى أنه صرعه على الجبين.

وعلم الله صدْقَ النيتين: نيةِ الذابح ونية المذبوح، فالابتلاء قد تم، والاختبار قد وقع، وثمار البلاء قد بدت، وغايات الامتحان قد تحققت، ولم يعد إلا الألم البدني والدم المهراق، والله ﷻ لا يريد أن يعذب العبد، فإنهم متى أخلصوا لله وهموا بالأداء، فقد أدوا وحققوا التكليف، فناداه الله تعالى بقوله: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ . وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

ناداه الله تعالى: يا إبراهيم قد صدَّقت الرؤيا، هنا سؤالٌ يفرض نفسه إن إبراهيم لم يقم بالذبح فعلاً، ولكن تهيأ، فلماذا قال الله له: صدقت الرؤيا؟ قال الله له ذلك لأنه تهيأ وبذل كل جهده، وأضجع ولده وصرعه، وعلم الله صدق نيته، فلم يبق إلا إراقة الدم وقطع اللحم فكأنه نفذ الأمر ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

---

(١) الفتوحات الإلهية: ٣/ ٥٤٧، ٥٤٨.

نجزى المحسنين على همِّهم بالخير، وعملهم لـه، أى: مثـل ذلـك الجـزاء وهـو الثواب العظيم على هذا البلاء، وجملة «وناديناه» جواب «لمَّا» والواو زائدة.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُـوَ الْبَلاءُ الْمُـبِينُ﴾ أىُّ اختبـار كهـذا الاختبـار؟! أمـرَ الشـيخ العجوز الذى رزقه الله شـاباً ليكـون خليفـة لـه، وامتـداداً لعمـره، بـذبْح ولـده، ويعرف الولدُ الأمـرَ فينقـاد لأمـر الله، ويتحمـل الآلام النفسـية، ويكبـه والـده، ويطيع غير عابئ بآلام الذبح، فهذا اختبار ظاهر .

﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ قال الله: وفديناه، مع أن الفادى إبراهيم، وهو الذى ذكَّى المذبوح ؛ لأن الله هو الذى منحه المذبوح ورضيه فداءً.

ولقد قيل: إن هذا الذبيح يحتمل أن يكون الكبش الذى قدمه هابيل قربانـاً فتقبله الله وقام قابيل بقتله، فكان يرعى فى الجنة، أو أن الله أرسله من الجنة بعد أن رعى فيها أربعين خريفاً.

وأقول:

لماذا نرفع الأمر إلى هذا الحد ونجعلـه يتجـاوز حـدود العـادة؟ إن المنطقـة صحراوية، بها النباتات التى تسوم فيها الحيوانات من الضأن والمعـز وغيرهمـا، فساق الله تيساً جبلياً إلى إبراهيم، وأوحى إليه أن يذبحه فهو الفداء، ولقد وصـفه الله بالعظيم لعظم حجمه، وامتلائه باللحم ولسمنه ولموافقته لهذا البلاء المبين

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾ خلع الله خلعة الثنـاء علـى مـر الـدهور وكـر العصور، فجعله أباً للأمة المسلمة قال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّـةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ وقال تعالى: ﴿سَـلامٌ عَلَـى إِبْـرَاهِيمَ . كَـذَلِكَ نَجْـزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ سلام من الله على إبراهيم، وسلام من كل مسـلم أثنـاء صـلاته عليـه،

ومثل هذا الجزاء من الذكر فى الآخرين، والسلام من الله ويجزى الله المحسنين بأنّ ذِكْرَهم الحسن يبقى بعد رحيلهم، وتسلم عليهم الملائكة عند خروج أرواحهم وعند بعثهم وعند دخولهم الجنة، ويطلع الله إليهم بالسلام، ولقد جرد «كذلك» من «إنّا» فلم يقل: «إنا كذلك» اكتفاء بما مر آنفاً.

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ . وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ هذه الجملة مستأنفة معللة لانصياع إبراهيم لأمر الله بذبح ولده، فهو من عباد الله المؤمنين.

ولقد نعتته الآية نعتين:

الأول: أنه عبد عرف معنى العبودية فشرفه الله بهذا، فالإضافة فى "عبادنا" للتشريف.

الثانى: نعته بكونه مؤمناً وهذا سر انقياده.

و لما قدم إبراهيم ولده لله زاده الله ولم يضيعه الله، فوهب له إسحاق وجعل من ذريته يعقوب، وهذه البشارة تضمنت ثلاثة أمور:

الأول: أن الله سيطيل عمره.

الثانى: أنه سيكون نبياً.

الثالث: أنه من الصالحين، وجملة «وبشرناه» معطوفة على جملة «فبشرناه بغلام حليم»، فدل العطف على المغايرة وأن القصة السابقة كانت فى إسماعيل.

﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾: يبين الله أنه بارك لهما، والبركة هنا الزيادة فى النسل والثناء الحسن على إبراهيم وإسحاق، ثم بين أن من ذريتهما من يسلك درب الآباء وهم المحسنون وفيها من يضل سواء السبيل، فيسىء لنفسه وينقصها حقها، وهم الكفرة والمذنبون، وفى هذا تنبيه على أن العمل يخص صاحبه فلا يلزم من كثرة فضائل الآباء فضيلة الأبناء لئلا يكون هذا سبباً فى مفاخرة اليهود وغيرهم بأنسابهم.

لما ذكر الله قصة الذبح، وأثنى على إبراهيم وقال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1]، وقد سبق قوله عن الذبيح: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ . فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾[2]، فثبت أن الغلام المذكور فى الذبح هو الحليم وهو إسماعيل، فيكون غير المبشر به لسارة وهو من الصالحين والمذكور فى الآية والمذكور فى الآية الأخرى «حليم» وهو إسحاق، ولما كان الأمر مفهوماً والحقيقة ساطعة لم يذكر الله اسم إسماعيل فى الذبح.

- بشارة الله لسارة بغلامها إسحاق.

مرّت الملائكة ببيت إبراهيم ذاهبين إلى مدائن قوم لوط ليدمروها لكفرهم وفسوقهم وفجورهم، مرت الملائكة ببيت إبراهيم فدخلوه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾[3].

---

(١) سورة الصافات آية ١١٢.

(٢) سورة الصافات الآيتان: ١٠١، ١٠٢.

(٣) سورة هود الآيات: ٦٩ – ٧٥.

وقال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ۝ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ۝ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝﴾[1].

وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ۝ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ۝﴾[2].

- بعض المباحث العربية فى هذه الآيات

أمَّا الآيات الأولى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ اللام واقعة فى جواب القسم، والمراد بالرسل الملائكة المكلفون بإهلاك قوم لوط، ويحملون معهم البشرى بإسحاق ومنه يعقوب.

﴿قَالُوا سَلامًا﴾ سلاماً: مفعول مطلق لفعل محذوف، والتقدير: نسلّم سلاماً وفى هذا توكيد.

﴿قَالَ سَلامٌ﴾ أى: سلام عليكم، فالخبر محذوف والجملة الأولى والثانية مقول القول.

(١) سورة الحجر الآيات: ٥١ – ٥٦.

(٢) سورة الذاريات الآيات: ٢٤ – ٣٠.

﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ فما تأخر مجيئه بعجل حنيذ مشوىٍ على الحجارة المحماة، ويجوز فى «ما» فى قوله: ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ ثلاثة أوجه: أنها نافية وفاعل «لبث» ضمير يعود على إبراهيم، وأنها مصدرية، وأنها موصولة.

﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ حين رأى أنهم لا يمدون أيديهم لتناول الطعام أنكر عليهم، والرؤية بصرية.

﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أضمر منهم خيفة، أى: خوفاً، فأوجس: بمعنى الإدراك أو حديث النفس. وإنما خاف منهم لامتناعهم من طعامه، فخاف منهم الخيانة.

﴿قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ قالت الملائكة مطمئنة لإبراهيم: لا تخف إنا أرْسِلْنَا لهلاك قوم لوط.

﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ﴾ وامرأته قائمة فى خدمتهم، والجملة حالية أو مستأنفة.

﴿فَضَحِكَتْ﴾ استبشاراً بهلاك قوم لوط، وأصل الضحك: انبساط الوجه من سرور يحصل النفس وظهور الأسنان، قال السُّدّى (لما قرَّب إبراهيم الطعام إلى ضيفه فلم يأكلوا، خاف إبراهيم منهم، فقال: ألا تأكلون، فقالوا: لا نأكل طعاماً ما إلا بثمن، قال فإن له ثمناً، قالوا: وما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله وتحمدونه على آخره، فنظر جبريل إلى ميكائيل وقال: وحق لهذا أن يتخذه ربه خليلاً، فلما رأى إبراهيم وسارة أيديهم لا تصل إليه ضحكت سارة وقالت: يا عجبا لأضيافنا نخدمهم بأنفسنا تكرمة لهم وهم لا يأكلون طعامنا)[1]،

قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ وَوُلِد بعد البشارة بسنة، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ ويعقوبُ بالرفع مبتدأ مؤخَّر والظرف المجرور خبر مقدَّم،

(١) الفتوحات الإلهية: ٢/٤١٠، ط عيسى البابى الحلبى.

ويجوز نصب يعقوب على أنه مفعول بـه لفعل محـذوف والتقـدير: ووهبنـا لـه يعقوب من وراء إسحاق، وقرئ بالرفع والنصب، وسترى سارة وإبراهيم يعقوب وإلا ما كان للبشارة معنى.

قوله: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ «يا ويلتى» كلمة تقال للتعجب من أمر عظيم، والظاهر كون الألف بدلاً عن ياء المتكلم

وقولها: ﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ الاستفهام للتعجب، وصيغة فَعُول يستوى فيها الذكر والمؤنث، وجملة «أنا عجوز» فى محل نصب حال، وكذلك ﴿وَهَـٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ فهذا مبتدأ، و«بعلى» خبره، و«شيخاً» حال وكان له مائة وعشرون سنة، وإنما تعجبت سارة دون إبراهيم، ونسبت لها البشارة هنا لأنها كانت أشوق للولد من إبراهيم، لأنها لم ترزق بولد بخلاف إبراهيم، وقول الله عنها: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ وهذا أيضاً من التعجب لا الإنكار.

✍ أما الآيات الثانية: فقوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ. إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أخبر قومك بأمر غيبى مضى، وهذا وجه من وجوه إعجاز القرآن، أخبرهم «عن ضيف إبراهيم» ضيف مصدر ويطلق على الواحد والجمع، وكانوا اثنى عشر أو عشرة، وقيل: ثلاثة منهم جبريل[1].

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ إذْ: بمعنى الوقت، والعامل فيه محذوف والتقدير: اذكر وقت، وردُّ السلام ورد فى آية أخرى.

---

(١) تفسير الجلالين سورة الحجر: ص٣٤٧.

﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ قال هذا القول حينما رأى أيديهم لا تصل إلى الطعام ﴿قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ قالت الملائكة: لا تخف إنا رسل ربك نبشرك بغلام ذى علم كثير هو إسحاق.

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ بالولد ﴿عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ حال، والمعنى: أبشرتمونى بالولد مع مس الكبر إياى ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ استفهام المراد به التعجب، فبأى شىء تبشرون؟ ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أى: بالصدق. ﴿فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ الآيسين.

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ والمعنى: ولا يقنط من رحمة ربه إلا الكافرون.

أما الآيات الثالثة: فقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ «هل» بمعنى: قد، والخطاب للنبى ﷺ، والمكرمين: الذين أكرمهم الله وشرفهم وجعلهم فى الملأ الأعلى.

﴿قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ سلام: مبتدأ وخبره محذوف، والتقدير: «سلام عليكم» ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ لانعرفهم، وقال ذلك فى نفسه

﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ مال إلى أهله سرًّا، وهذه من خلال الكريم ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ فهو سمين ليس بهزيل ولا بضعيف، وهو فى الآية الأخرى مشوى، فقربه إليهم، قال: ﴿أَلا تَأْكُلُونَ﴾ ألا: للحث والتحضيض. ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ فأضمر منهم خوفاً. ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ فأقبلت سارة صائحة أى فى صيحة، ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ لطمت جبهتها كما يفعل المتعجب. ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أنا عجوز عقيم.

بناء البيت العتيق:

الكعبة هي بيت الله، وأول بيت وضع للناس لعبادة الله وحده (عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً بعث الله جبريل إلى آدم وحواء؛ فأمرهما ببناء الكعبة، فبناه آدم، ثم أُمِرَ بالطواف به، وقيل له: أنت أول الناس، وهذا أوَّل بيت وضع للناس)(١).

وقيل: إن الملائكة هي التي بنت البيت، وتعرض البيت لعوامل التعرية من سيول ورياح وشمس فاندثر، وقال الله عنه: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾(٢).

فمعنى ﴿بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أي: بيَّنا مكانه، ﴿أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ «ألاَّ» مكونة من «أنْ» و«لا» أدغمت النون الساكنة في اللام، و«لا» ناهية، و«تشرك» مجزوم وعلامة جزمه السكون ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ وطهِّر بيتي للطائفين: القادمين من بقاع الأرض، والقائمين: المقيمين بمكة، وذكَرَ الركَّعَ السجود دون غيرهم لأن العبد فيهما أقربُ إلى الله من غيرهما.

لما بيَّن الله لإبراهيم مكان البيت وأمره ببنائه قام بكشف قواعده ورفعها قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(٣).

فهذه الآيات تبين أن أسس البيت كانت موجودة، بَيْدَ أن إبراهيم بنى عليها ورفع عليها البناء، فإبراهيم يبني وإسماعيل يحمل الحجارة ويناوله،

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/٦٤.

(٢) سورة الحج آية ٢٧.

(٣) سورة البقرة الآيتان ١٢٧، ١٢٨.

ويتضرعان إلى الله راجيين القبول منه، إنه هو السميع لأقوال عباده، كثير العلم بأحوالهم، وقالا: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ ربنا واجعلنا مُنْقَادَيْنِ مطيعين لك، ومن ذريتنا أُمَّة مسلمة لك، وكانت أُمَّةُ حفيدهما سيدنا محمد ﷺ قد جاءت ثمرة دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ومعنى: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ سألاه التوبة مع عصمتهما تواضعا، أو أنهما طلبا استمرار قبول التوبة، أو سألا الله التوبة تعليماً لذريتهما.

وفاة إبراهيم عليه السلام

لقد ماتت سارة قبل إبراهيم، ودفنت (بقرية حبرون التي في أرض كنعان، ولها من العمر مائة وسبع وعشرون سنة -فيما ذكر أهل الكتاب- فحزن عليها ابراهيم عليه السلام ورثاها -رحمها الله-، واشترى من رجل يقال له عفرون بن صخر مغارة بأربعمائة مثقال، ودفن فيها سارة هنالك، قالوا: ثم خطب إبراهيم على ابنه اسحق، فزوجه رفقا بنت بتوئيل بن ناحور بن تارح، وبعث مولاه فحملها من بلادها ومعها مرضعتها وجوارها على الإبل، قالوا: ثم تزوج ابراهيم عليه السلام قنطورا.

وقد روى ابن عساكر عن غير واحد من السلف، عن أخبار أهل الكتاب في صفة مجيء ملك الموت إلى إبراهيم عليه السلام أخباراً كثيرة، الله أعلم بصحتها، وقد قيل: إنه مات فجأة، وكذا داود وسليمان، والذي ذكره أهل الكتاب وغيرهم خلاف ذلك.

قالوا: ثم مرض إبراهيم عليه السلام ومات عن مائة وخمس وسبعين – وقيل: وتسعين– سنة، ودفن في المغارة المذكورة التي كانت بحبرون عند امرأته سارة

التي في مزرعة عفرون الحيثي، وتولى دفنه إسماعيل وإسحاق -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-، وقد ورد ما يدل على أنه عاش مائتي سنة)[1].

أولاد الخليل عليه السلام

(أول من ولد له: إسماعيل من هاجر القبطية المصرية، ثم ولد له إسحاقُ من سارة بنت عم الخليل، ثم تزوج بعدها "قنطورا" بنت يقطن الكنعانية، فولدت له ستة: مَدْيَن وزمران وسرج ويقشان ونشق ولم يُسَمّ السادس، ثم تزوج بعدها "حجون" بنت أمين، فولدت له خمسة: كيسان وسورج وأميم ولوطان ونافس. وهكذا ذكره أبو القاسم السهيلي في كتابه "التعريف والإعلام ")[2].

أما عن إسماعيل فقد قال الله تعالى عنه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا . وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾[3]،

قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ فلم يَعِدْ بشيء إلا وفّى به ، وانتظر من وعد ثلاثة أيام أو حولاً حتى رجع إليه في مكانه.

قوله: ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ إلى جُرْهم، ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ﴾ أى: قومه ﴿بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ أصل «مرضيًّا» مَرْضُووًا، قلبت الواوان ياءين وأدغمتا وقلبت الضمة كسرة لمراعاة الياءين.

أما عن إسحاق، فقد قال الله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾[1]، و قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ

---

(١) البداية والنهاية: ١/١٧٤.

(٢) المرجع السابق: ص١٧٥.

(٣) سورة مريم الآيتان: ٥٤ ، ٥٥.

الصَّالِحِينَ . وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾(٢).

يعقوب: ذكره الله تعالى عند البشارة بأبيه إسحاق، وعن هذه الذرية يقول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾(٣).

- زواج إسحاق، و أولاده من هذا الزواج.

لم يَقُصّ القرآنُ من أمر إسماعيل وإسحاق إلا ذكراً موجزاً ، فذكر حادث الذبح لإسماعيل، وأنه كان صادق الوعد، ولم يذكر إسحاق إلا بالبشارة بكونه غلاماً عليماً، و بكونه غلاماً من الصالحين، وأنه بارك عليه، و لقد ذكرت التوراة قصة زواجه من «رفقة» بنت بتوئيل بن ناحور أخي إبراهيم ، و على ضوء ذلك (أنه وُلِدَ لإبراهيم ذكران عظيمان إسماعيل من هاجر، ثم إسحق من سارة، وولد لهذا يعقوب وهو إسرائيل الذي ينتسب إليه سائر أسباطهم، فكانت فيهم النبوة، وكثروا جداً بحيث لا يعلم عددهم إلا الذي بعثهم واختصهم بالرسالة والنبوة، حتى ختموا بعيسى ابن مريم من بني اسرائيل.

---

(١) سورة هود الآية : ٧١ .

(٢) سورة الصافات الآيتان: ١١٢، ١١٣.

(٣) سورة الأنعام: ٨٣ – ٨٦.

وأما إسماعيل عليه السلام فكانت منه العرب على اختلاف قبائلـها، ولم يوجـد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم على الاطلاق وسيدهم وفخر بني آدم في الدنيا والآخرة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بـن هاشـم القرشـي الهـاشمي المكـي ثـم المدني صلوات الله وسلامه عليه، فلم يوجد من هذا الفرع الشريف والغصن المنيف سوى هذه الجوهرة الباهرة والدرة الزاهرة وواسطة العقـد الفـاخرة، وهـو السـيد الذي يفتخر به أهل الجمع، ويغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة)[1].

(١) البداية والنهاية: ١٦٧/١.

قصة لوط عليه السلام فى القرآن

هو لوط بن هاران أخى إبراهيم بن تارح، آمن بإبراهيم واهتدى بهديه، كما قال تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1]،

ولقد صاحب لوط عمه إبراهيم منذ خروجه من بلده ، فرحل إلى مصر وأكرمهما عزيز مصر وأعطى لوطاً كما أعطى عمه، وكان لوطٌ قد نزح عن محلة عمه الخليل عليهما السلام بأمره له وإذنه، فنزل مدينة سدوم من أرض غور زغر.

- وصف أهل سدوم

(كان أهل سدوم ذوى أخلاق رديئة، لا يستحيون من منكر، ولا يتعففون عن معصية يأتونها على رءوس الأشهاد، كما قال تعالى على لسان لوط وهو يعظهم وينهاهم: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾.

قرأتُ[2]: فى كتاب من كتب الأدب العبرى وصفاً لهم، وهو أنهم كانوا يتربصون لكل داخل مدينتهم من التجار، ويجتمعون عليه من كل أوب، ويمدون أيديهم إلى بضاعته، يأخذ كل واحد منها شيئاً قليلاً، حتى لا يبقى فى يده شيء، فإذا جلس حزيناً وجأر بالشكوى يأتى الواحد منهم، ويقول: كل هذا لأنى أخذتُ هذا الشيء اليسير؟ دونكه – أى خذه – فيقول الرجل: ما عسى أن ينفعنى ما جئتَ به بعد أن ذهبتْ بضاعتى، اذهب عنى بهذا الذى جئتَ به، فإذا انصرف جاءه آخر بشيء تافه يريد ردَّه عليه فيتركه الرجل لزهادة ما أتى به وينصرف،

---

(١) سورة العنكبوت آية ٢٦.

(٢) الكلام للشيخ عبد الوهاب النجار.

وهكذا يخسر الرجل بضاعته بتفرقها فى الأيدى الكثيرة، فهم كما قال الله تعالى: ﴿وتقطعون السبيل﴾.

وفى ذلك الكتاب من دلائل ظلمهم واستغراقهم فيه: أن سارة زوج إبراهيم أرسلت إلى «لعازر» كبير عبيد إبراهيم ليأتيها بسلامة لوط – لتطمئن عليه– فلما دخل مدينة سدوم لقيه رجل من أهلها فعمد إلى لعازر بحجر ضربه به فى رأسه، فأسال منه دماً كثيراً، ثم تعلق به قائلاً: إن هذا الدم لو بقى لأضرَّ بك، فأعطنى أجرى، ثم آل الأمر بينهما إلى الترافع إلى قاضى سدوم، فلما سمع للخصمين حكم على «لعازر» بأن يعطى للسدومى أجرَ ما ضربه بالحجر وأسال دمه، فلما رأى لعازر الجور من القاضى والخصم فى أمره عمد إلى حجر ضرب به رأس القاضى فأسال دمه، وقال له: الأجر الذى وجب عليك بإسالة دمك عليك أن تعطيه لضاربى السدوميِّ، جزاء ضربه إياى وإسالة دمى. وهذه الحكاية –مع احتمال وضعها – تفيدنا معرفة الفكر العام فى أحوال هؤلاء الناس، وأنهم من الشر بحيث يصلحون أن تسند إليهم أمثالها)[1].

- دعوة لوط لقومه إلى رسالته:

قال الله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ ﴾[2].

وهذه الآيات تتضمن أصول الرسالات السابقة من التوحيد، وإثبات الرسالة، وعبادة الله، وإثبات البعث، والدعوة إلى الأخلاق الفاضلة، وهذا فى قول

(١) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار: ص١١٢، ١١٣.

(٢) سورة الشعراء الآيات: ١٦٠ – ١٦٤.

لوط لقومه: ﴿أَلا تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، فإثبات الرسالة ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، والدعوة إلى التوحيد وعبادة الله والدعوة إلى البعث والدعوة إلى مكارم الأخلاق يتضمنها قوله لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فالتقوى والطاعة تتضمن هذه الأصول.

- المباحث العربية

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ التاء تاء التأنيث، ولحقت بالفعل لما في معنى «قوم» من الجمع، كقول القائل: «ولا خطرتْ منك الهمومُ» والقوم: هم الجماعة من الناس تجمعهم جامعة يقومون لها، ولقد كذّب قوم لوط المرسلينَ رغم أنهم كذبوا واحداً فقط هو لوط، لأن رسالته اشتملت على أصول رسالات الرسل، فكأنهم كذبوا جميع الرسل،

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ قال أخوهم وهو لم يكن منهم بل هو ابن أخي إبراهيم، ومن بابل، ولكن المراد بالأخوة أخوة المجاورة والسكن والإقامة بينهم لا الأخوة في الدين، ولوطٌ مرفوع لأنه بدل من الفاعل «أخوهم».

﴿أَلا تَتَّقُونَ﴾ «ألا» هنا للحث والتحضيض على الالتزام بالتقوى.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ «ما» نافية « أَسْأَلُكُمْ» فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة، والفاعل ضمير مستتر وجوباً تقديره أنا، والكاف مفعول به، والميم علامة الجمع « مِنْ أَجْرٍ» من: حرف جر مزيد للتوكيد، و«أجر» مفعول به منصوب وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ «إنْ» بمعنى: ما، «إلا» أداة استثناء ملغاة لا عمل لها، و«أجرى» مبتدأ والجار والمجرور خبره.

- منكر قوم لوط.

قوم لوط: قوم مجرمون يفعلون الخبائث والكبائر من اللواط، والرمى بالبندق، واللعب بالطيور، وقطع الطريق وغير ذلك، وأقبح هذه الخبائث اللواط، والذى علمهم هذه الكبيرة إبليسُ – لعنه الله – حين أغرى واحداً بعد أن تبدّى له فى صورة شاب أمردَ لا نبت بعارضيه، فراوده إبليس وعلمه كيف يفعل به، وعلى أثر ذلك انتشرت هذه الرذيلة بينهم، وصارت نساؤهم لا تروى لهم عطشهم الجنسى، بل الرذيلة هى التى تشبع غرائزهم، ويزيّنها الشيطان لهم، وهم أول قوم من البشرية يرتكبون تلك الفاحشة، وطفق لوط ينهاهم عن هذا القبح، وهم سادرون فى غيهم، وتنوع وعظهُ لهم، قال لهم لوط: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾[1].

وقال تعالى عن لوط: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ

(١) سورة العنكبوت الآيات: ٢٨ – ٣٠.

(٢) سورة الشعراء الآيات: ١٦٥ – ١٧١.

أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[(1)].

هذه الآيات تصوِّر حال لوط عليه السلام مع قومه وهو يحاول علاجهم مما أصاب فطرتهم (من انحراف وشذوذ عجيبين، إذ يتركون النساء إلى الرجال، مخالفين الفطرة التي تهتدي إلى حكمة خلق الأحياء جميعاً أزواجاً، كي تمتد الحياة بالنسل ما شاء لها الله، والتي تجد اللذة الحقيقية في تلبية نداء الحكمة الأزلية، لا عن تفكير وتدبير، ولكن عن اهتداء واستقامة، والبشرية تعرف حالات مرضية فردية شاذة، ولكن ظاهرة قوم لوط عجيبة، وهي تشير إلى أن المرض النفسي يُعْدي كالمرض الجسدي، وأنه يمكن أن ينتشر لاختلال المقاييس في بيئة من البيئات، وانتشار المثل السيئ، عن طريق إيحاء البيئة المريضة، على الرغم من مصادمته للفطرة التي يحكمها الناموس الذي يحكم الحياة، الناموس الذي يقتضي أن تجد لذتها فيما يلبي حاجة الحياة لا فيما يصادمها ويعدمها، والشذوذ الجنسي يصادم الحياة ويعدمها، لأنه يذهب ببذور الحياة في تربة خبيثة لم تُعَدّ لاستقبالها وإحيائها، بدلاً من الذهاب بها إلى التربة المستعدة لتلقيها وإنمائها، ومن أجل هذا تنفر الفطرة السليمة نفوراً فطرياً لا أخلاقياً فحسب من عمل قوم لوط؛ لأن هذه الفطرة محكومة بقانون الله في الحياة، الذي يجعل اللذة الطبيعية السليمة فيما يساعد على إنماء الحياة لا فيما يصدمها ويعطلها)[(2)].

---

(١) سورة الأعراف الآيات: ٨٠ – ٨٢.

(٢) في ظلال القرآن، للشيخ/ سيد قطب: ١٩١٣/٤ بتصرف.

لقد بذل لوط عليه السلام جهداً كبيراً في نهي قومه عن الخبائث، وعن أم تلك الخبائث اللواط، بيد أن القوم ردوا عليه رداً كان في غاية الإجرام كعادة المجرم يرد على الهداية بصلف وكبرياء وتهديد لهذا النبي الذي حرص على مصالحهم، قالوا له مرة: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ . قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ . رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾، وقالوا له أخرى: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، وقالوا له أخرى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ وقالوا له مرة ثالثة: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

لقد آثر القوم شذوذهم على العفة، وتلذذوا بوحل الرذيلة، ورائحة القذارة وهددوا نبيهم ومن معه ممّن آمن بطردهم فحق عليهم العذاب.

- إقدام قوم لوط على الاعتداء جنسياً على ملائكة الله:-

قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ

---

(١) سورة العنكبوت الآيات: ٣٣ – ٣٥.

أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾[1].

هذه الآيات تبوح بفسق القوم حين جاءت رسل الله إلى لوط بعد أن أخبروا إبراهيم عليه السلام بهلاكهم: ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ . قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾.

وجادلهم فى أمر لوط، وكأنه طلب ردّ العذاب عن قوم لوط لوجود ابن أخيه بينهم خوفاً عليه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ . إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ . يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾.

لقد اتجه الرسل إلى قوم لوط بعد مجادلة إبراهيم لهم، فأتوا لوطاً عليه السلام فى أرض له، وقيل فى منزله، لقد وردوا عليه وهم فى أجمل صورة تكون على هيئة شبان حسان الوجوه ابتلاءً من الله، وله الحكمة والحجة البالغة فساءه شأنهم، وضاقت نفسه بهم.

---

(١) سورة هود الآيات: ٧٧ – ٨٣.

ورد عن حذيفة بن اليمان قال: (كان إبراهيم عليه السلام يأتي قوم لوط، فيقول: أنَهَاكُمُ الله أن تَعَرّضوا لعقوبته؟ فلم يطيعوه، حتى إذا بلغ الكتاب أجله انتهت الملائكة إلى لوط وهو يعمل في أرض له، فدعاهم إلى الضيافة فقالوا: إنا ضيوفك الليلة، وكان الله قد عهد إلى جبريل ألاّ يُعذبهم حتى يَشْهَدَ عليهم لوط ثلاث شَهادات، فلما توجه بهم لوط إلى الضيافة، ذكر ما يعمل قومه من الشر، فمشى معهم ساعة، ثم التفت إليهم فقال: أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض شراً منهم، أين أذهب بكم؟ إلى قومي وهم أشر خلق الله، فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال: احفظوها هذه واحدة، ثم مشى معهم ساعة، فلما توسط القرية وأشفق عليهم واستحيا منهم قال: أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض أشر منهم، إن قومي أشر خلق الله، فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال: احفظوا، هاتان اثنتان، فلما انتهى إلى باب الدار بكى حياء منهم وشفقة عليهم فقال: إنّ قومي أشَرُّ مَنْ خَلَقَ الله؟ أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض أهل قرية شرًا منهم، فقال جبريل للملائكة: احفظوا، هذه ثلاث، قد حقّ العذاب، فلما دخلوا ذهبت عجوز السوء –زوجة لوط– فصعدت فلوّحت بثوبها، فأتاها الفساق يُهرَعون سراعاً، قالوا: ما عندك؟ قالت: ضَيَّف لوطًا قومٌ ما رأيت قط أحسن وجوهاً منهم، ولا أطيب ريحًا منهم، فهُرعوا يسارعون إلى الباب، فعالجهم لوط على الباب، فدافعوه طويلا هو داخل وهم خارج، يناشدهم الله ويقول: ﴿هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ فقام الملك فَلَزّ بالباب –يقول فسدّه – واستأذن جبريل في عقوبتهم، فأذن الله له، فقام في الصورة التي يكون فيها في السماء، فنشر جناحه – ولجبريل جناحان–، وعليه وشاح من درّ منظوم، وهو

براق الثنايا، أجلى الجبين، فقال يا لوط: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ امض يا لوط عن الباب ودعني وإياهم، فتنحَّى لوط عن الباب، فخرج إليهم، فنشر جناحه، فضرب به وجوههم ضربة شدخ أعينهم، فصاروا عُمْيًا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون بيوتهم)[1] كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[2]، وأمرت الملائكة لوطاً بقولها: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ فأمروه أن يسير بأهله والذين آمنوا معه إلا امرأته الهالكة، وأن يتبع أدبارهم أى يكون ساقه لهم ولا يلتفت منهم أحد إذا سمعوا ما نزل بالقوم.

- صفة الهلاك.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ . مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[3].

فلما جاء أمر الله بإهلاك قرى قوم لوط وكانت أربع قرى فى كل قرية مائة ألف، وفى رواية ثلاث قرى الكبرى منها سدوم، وقيل كانت خمس قريات: "سدوم"، وهي العظمى، و"صَعْبة" و"صَعْوة" و"عثرة" و"دوما"، احتملها جبريل بجناحه، ثم صعد بها، حتى إنّ أهل السماء الدنيا ليسمعون نابحة كلابها، وأصوات دجاجها، ثم كفأها على وجهها، ثم أتبعها الله بالحجارة)[4] وهى

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢٦٩/٤، ٢٧٠.

(٢) سورة القمر آية ٣٧.

(٣) سورة هود الآيتان: ٨٢، ٨٣.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٢٧١/٤، ٢٧٢.

حجارة من طين طبخ بالنار فتحجَّر.

قال السدي: لما أصبح قوم لوط، نزل جبريل فاقتلع الأرض من سبع أرضين، فحملها حتى بلغ بها السماء، حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم، وأصوات ديوكهم، ثم قلبها فقتلهم، فذلك قوله: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾(١)، ومن لم يمت حين سقط للأرض، أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة، ومن كان منهم شاذاً في الأرض يتبعهم في القرى.

ولقد اختلف فقهاء الإسلام في عقوبة اللواط، فروى الترمذي عن ابن عباس مرفوعاً: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به»، وذهب الشافعي رحمه الله إلى أن اللائط يُقتل سواء كان محصناً أو غير محصن، عملاً بهذا الحديث، وذهب أبو حنيفة أنه يُلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط، والله أعلم(٢).

المباحث العربية لبعض الآيات

سورة هود

قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟

---

(١) سورة النجم آية ٥٣.

(٢) المرجع السابق: ص٢٧٢.

يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾[1].

﴿لُوطًا﴾ مصروف كنوح لأنه ثلاثى ساكن الوسط، فلا يُمنع من الصرف، ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾ فعل ماض مبنى للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على لوط، فعله سَاءَ. ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ والمعنى: (أن البعير يذرع بيديه فى سيره ذرعاً على قدر سعة خطوه، فإذا حمل عليه أكثر من طوقه ضاق ذرعه عن ذلك وضعف ومدَّ عنقه، فجعل ضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع والطاقة، فمعنى قوله: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أى: لم يجد من ذلك المكروه مخلصاً)[2].

﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ «يوم»: خبر لاسم الإشارة و«عصيب» صفته، والمعنى: هذا يوم شديد كأنه قد عُصِبَ به الشر والبلاء، مأخوذ من العصابة التى يشد بها الرأس .

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ «هُرِع» صيغته كصيغة المبنى للمجهول، أى: يسرعون فى اضطراب، وجملة «يهرعون إليه» فى محل نصب حال.

﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أى: ومن قبل مجيئهم إلى لوط يعملون «السيئات» الرذائل التى ميَّزتهم على الأمم بأنهم أول من فعلوها.

---

(١) سورة هود الآيات: ٧٧ – ٨٣.

(٢) الفتوحات الإلهية: ٤١٢/٢.

- درء شبهة:

حين همَّ المجرمون بالاعتداء على رسل الله وكادوا يصلون إليهم قال: ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ خاطبهم لوط وحاورهم: ﴿هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أفعل التفضيل ليس على بابه، لأنه يقتضى أن رذيلتهم وإتيانهم الرجال طهر وإتيان بنات لوط أطهر، وهذا لا يصح، وهذا من قبيل قوله تعالى: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾، والمعلوم أن شجرة الزقوم لا خير فيها، فأفعل التفضيل ليس على بابه.

- كيف يصرف لوط قومه عن الملائكة إلى بناته؟

لقد طفحت كتب اليهود بفكرهم، فكتابهم يقول: إنه عرض بناته عليهم، وهذا غير صحيح ؛ لأن لوطاً وجههم إلى الفطرة الصحيحة، وهى إتيان نسائهم المتزوجين بهن، وقال لوط: بناتي هن أطهر لكم ؛ لأن نساء أمة النبى بنات للنبى، ألم تقرأ قول الله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (١)، فالنبى يعتبر والداً لأمته وهذا هو المعنى الذى قصده لوط ﷺ، والزنا رذيلة وقبح فكيف يكون قول لوط ﴿بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ ؟ ولقد افترت التوراة المحرَّفة على لوط كثيراً وهذا من افترائهم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾: لقد سلك لوط مع قومه سلوكاً ليردهم عن الملائكة، وتمثل فى طرق ثلاثة هى:

١- وجَّه المجرمين إلى الذهاب إلى زوجاتهم ليقضوا وطَرَهم وتسكن شهوتهم، بيد أن المجرم لا يرويه الطُهرُ بل تهفو نفسه إلى القبح والفسق.

٢- أنه ناشد فطرتهم المتعلقة بالله فذكَّرهم بتقواه ﴿فاتقوا الله﴾ بيد أن فطرهم لوثوها فأفسدوها، فلم تَحُلْ بينهم وبين الرذيلة.

---

(١) سورة الأحزاب آية ٦.

٣- ناشد نخوتهم التى تحثهم على إكرام الضيف بيد أن ثورة الجنس حالت بينهم وبين النخوة.

٤- سألهم: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾؟ فلم يكن بينهم فى هذه البيئة القذرة رجل رشيد يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

فردوا على توجيهات لوط بقولهم: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.

لقد أكّدوا على إلحاح شهوتهم بقولهم: لقد علمت، فاللام واقعة فى جواب قسم محذوف والتقدير: والله لقد علمت يا لوط ما لنا فى بناتك من حاجة، وأكّدوا كلامهم مرةً أخرى بإنْ واللام ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ من إتيان الرجال، فما يجوز أن تكون مصدرية ويجوز أن تكون موصولة وعائد الصلة محذوف تقديره: ما نريده.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ لو ثبت أن لى بكم طاقة أو ألجأ إلى عشيرة تنصرنى لبطشتُ بكم، فلما رأت الملائكة ذلك ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ ومعنى «بقطع» أى: فى طائفة من الليل، فالباء بمعنى «فى» والقطع نصف الليل ؛ لأنه قطعة منه.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ نهاهم عن الالتفات رحمة، فإن العذاب كان كبيراً وعظيماً. قُرِئ «امرأتُك» بالرفع على أنها بدل من «أحد» وقرئ بالنصب على الاستثناء من الأهل. ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ من العذاب.

سورة الشعراء

قال تعالى: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ

﴿ٱلْمُخْرَجِينَ ۝١٦٧ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ۝١٦٨ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ۝١٦٩ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝١٧٠ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ۝١٧١﴾[1].

قوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ الاستفهام استنكارى من لوط، و«الذكران»: جمع ذكر ضد الأنثى، ويجمع على ذكور وذكارة كحجارة، أتأتون الذكور من الناس فى أدبارهم؟

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ وتتركون ما خلق لكم ربكم من أقبال زوجاتكم.

﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾: بل أنتم قوم مجاوزون الحدّ فى الظلم، فالعادى هو المعتدى بظلمه.

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ﴾ عن إنكارك لفعلنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ أكّدوا كلامهم باللام ونون التوكيد الثقيلة، أى: لتكونن من المخرجين من بلدتنا، و«مُخْرَج» اسم مفعول من الفعل الرباعى «أخرج».

فرد عليهم بقوله: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ أكّد كلامه بـإنّ واسمية الجملة، وقوله: ﴿مِنَ الْقَالِينَ﴾: أى من المبغضين لهذه الرذيلة التى تعملونها، فهو من: قليتُ الرجل إذا أبغضته.

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ . فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ . إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ «عجوزاً» مستثنى من أهل، ومعنى «فى الغابرين»: الباقين فى العذاب، فهى كانت راضية بفعلهم دالة لهم على رذيلتهم.

---

(١) سورة الشعراء آية ١٦٥ ـ ١٧١.

قصة يعقوب عليه السلام فى القرآن

هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، أُمُّهُ «رُفْقَةُ بنت بتوئيل» أخى إبراهيم[1]، أى: هى بنت عمه.

قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾[2].

و قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[3].

- **حديث القرآن عن يعقوب.**

قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٣٤)﴾[4].

وقال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[5].

وإسرائيل: هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

وإسْرَا: معناها «عبد»، وإيل: معناها «الله» أى: معناها: عبد الله.

ويعقوب هو الذى كان من سلالته أنبياء بنى إسرائيل.

---

(١) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار: ص١١٩.
(٢) سورة هود آية ٧١.
(٣) سورة العنكبوت آية ٢٧.
(٤) سورة البقرة الآيات: ١٣٢- ١٣٤.
(٥) سورة آل عمران آية ٩٣.

• معنى كلمة «يوسف».

كلمة يوسف كلمة أعجمية وهى ممنوعة من الصرف أى لا يلحق آخرها التنوين والتنوين نون ساكنة ينطق بها فى آخر الاسم المعرب لا تظهر عند الوقف ولا تكتب وهو ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة. ويسمى فى الأوساط الغربية "جوزيف".

• إشتقاق كلمة يوسف واللغات فيها.

فى «يوسف» لغات مختلفة أو لهجات متباينة: فيها ضم السين وكسرها وفتحها. وفيها يؤسف بالهمزة وكسر السين، وبها قرأ طلحة بن مصرف ﴿ لقد كان فى يؤسف ﴾.

و قيل هو مشتق من الأسف فيوسِف بكسر السين يُفْعِل – بضم الياء وسكون الفاء وكسر العين – من أسف يوسف بكسر السين إذا أحزن وأهم وأغضب لأنه آسف آباه بفراقه ويوسف بفتح السين لأن إخوته حزنوه بفراقه أبيه. وقيل أصله يأسف بفتح الياء والسين يفعل لأنه أسيف بفتح الهمزة وكسر السين فى الغربة[1].

وفى بعض الآثار: لما أخرج الله الذرية من ظهر آدم وعرض عليه أمثال الذر أراه شخصاً مهيباً من الرجال على وجهه بهجة الجمال قد توج بتاج الوقار وهو

(١) انظر "بصائر ذوى التمييز" ١٨٥/٢.

مرتد برداء الكرامة مؤتزر بإزار الشرف عليه قميص البهاء وفي يديه قضيب الملك وعلى يمينه سبعون ألف ملك وعلى يساره هكذا وخلفه أمم الأنبياء لهم زجل[1] بالتسبيح. فقال آدم يا رب من هذا الذى أبحت له بحبوبة الكرامة وأنزلته هذه الدرجة العالية ؟ قال الله تعالى: هذا ابنك المحسود من إخوته يا آدم، إنحله وسَمِّه فنحله ثلثى جمال أولاده وضمه إلى صدره وقبّل ما بين عينيه وقال: يا بنى لا تأسف فأنت يوسف فأول من سماه بهذا الاسم آدم.

وقيل إن يوسف ورث الجمال من إسحاق وإسحاق ورثه من أمه سارة وسارة ورثت من أمها. وقال: كعب قسم الجمال عشرة أجزاء تسعة منها ليوسف وواحد لجميع أولاد آدم. وقال النبى ﷺ «رأيت يوسف ليلةَ أسرى بى فى السماء الرابعة» فقيل: كيف رأيته يا رسول الله؟ فقال: كالقمر ليلة البدر» وقال: أُعْطِيَ يوسف وأمه شطر الحسن. وكان يوسف عليه السلام حسن الوجه. جميل الخلقة، وصفه الرسول ﷺ فى ليلة الإسراء.

روى مسلم بسنده عن أنس بن مالك (ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ. فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ صلى الله عليه وسلم، وَقَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ)[2].

---

(١) الزجل: الصوت الرفيع العالى.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى.

يقول السهيلى فى تعليقه على حسن يوسف (أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام لأن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه فكان فى غاية نهايات الحسن البشرى ولهذا يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم وحسنه و يوسف كان على النصف من حسن آدم ولم يكن بينهما أحسن منهما كما أنه لم تكن أنثى بعد حواء أشبه بها من سارة امرأة الخليل عليه السلام.

قال ابن مسعود: وكان وجه يوسف مثل البرق وكان إذا أتته امرأة لحاجة غطى وجهه. وقال غيره كان فى الغالب مبرقعاً لئلا يراه الناس) [1]

• نعوت يوسف عليه السلام

لقد سُمِّىَ بيوسف بيد أن هناك نعوتاً نعت بها يوسف وهذه النعوت وردت فى آيات السورة التى تسمت باسمه. وهذه النعوت هى:-

المجتبى: قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾.

المعلـــم: اسم مفعول وهو من قوله تعالى ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾.

الغـــلام: وهو من قوله تعالى ﴿ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ﴾.

المـــكرم: وهو من قوله تعالى ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾.

النافـع: وهو من قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا ﴾.

الولـــد: وهو من قوله تعالى: ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾.

المُخْلَص: اسم مفعول ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾

(١) البداية والنهاية جـ١ ص٢٠٥.

المحسن: اسم فاعل من الفعل الرباعي أحسن ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ والمحسن: إما أنه أحسن أقواله أو أنه من الإحسان الذى سأل عنه جبريل فى حديث ابن عمر «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

الفتى: وهو من قوله تعالى ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾.

الملك: بفتح الميم واللام ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾.

المستعصم: إسم فاعل من الفعل الرباعى ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾.

الصديق: وهو من قوله تعالى: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ﴾.

مستخلَص: اسم مفعول وهو من قوله تعالى: ﴿ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾.

حفيظ عليم: وهو من قوله تعالى ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾.

ممكَّن: اسم مفعول ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ ﴾.

عزيز: ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾.

الرسول: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾[2].

● الأشخاص الذين ورد ذكرهم فى قصة يوسف:

يوسف: هو نبى الله يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، عن أبى هريرة قال: «قيل يا رسول الله من أكرم الناس؟ قال: أتقاهم ، قالوا: ليس عن هذا نسألك ، قال: فيوسف نبى الله بن نبى الله بن نبى الله

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم.

(٢) سورة غافر آية ٣٤.

ابن خليل الله. قالوا ليس عن هذا نسألك. قال: فعن معادن العرب تسألونى. خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا»[1].

يعقوب أو إسرائيل

هو والد يوسف؟ واسمه إسرائيل الذى ينتسب إليه بنوا إسرائيل وسمى يعقوب لأن أمه ولدته مع أخيه العيص وكان العيص هو البكر ونزل قبل يعقوب بيد أن يعقوب خرج وهو آخذ بعقب أخيه فسمى يعقوب. وأبوه إسحاق بن إبراهيم. وتزوج يعقوب من ابنتى خاله وهما: "ليا" وهى الكبرى، و"راحيل" وهى الصغرى.

قالوا: (فلما قدم يعقوب على خاله أرض حران إذا له ابنتان اسم الكبرى "ليا" واسم الصغرى "راحيل"، وكانت أحسنهما وأجملها فأجابه إلى ذلك بشرط أن يرعى على غنمه سبع سنين فلما مضت المدة على خاله "لابان" صنع طعاماً وجمع الناس عليه وزف إليه ليلاً ابنته الكبرى "ليا" وكانت ضعيفة العينين قبيحة المنظر. فلما أصبح يعقوب إذا هى "ليا" فقال لخاله لم غدرت بى وأنت إنما خطبت إليك راحيل. فقال: إنه ليس من سنتنا أن نزوج الصغرى قبل الكبرى فإن أحببت أختها فاعمل سبع سنين أخرى وأزوجكها فعمل سبع سنين وأدخلها عليه مع أختها وكان ذلك سائغاً فى ملتهم ثم نسخ فى شريعة التوراة) [2].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى.
(٢) البداية والنهاية جـ ١ ص١٩٤ و ١٩٥.

إخوة يوسف:

لقد تزوج يعقوب من ابنتى خاله لابان ووهب "لابان" لكل واحدة من ابنتيه جارية فوهب لـ "ليا" جارية اسمها "زلفى" ووهب لـ "راحيل" جارية اسمها "بلهى".

و جبر الله تعالى ضعف "ليا" بأن وهب لها أولاداً فكان أول من ولدت ليعقوب "روبيل" ثم "شمعون" ثم "لاوى" ثم "يهوذا". فغارت عند ذلك "راحيل" وكانت لا تحبل فوهبت ليعقوب جاريتها "بلهى" فوطئها فحملت وولدت له غلاماً سمته "دان" وحملت وولدت غلاماً آخر سمته "نيفتالى" فعمدت عند ذلك "ليا" فوهبت جاريتها "زلفى" من يعقوب عليه السلام فولدت له "جاد" و"أشير" غلامين ذكرين ثم حملت "ليا" أيضاً فولدت غلاماً خامساً منها وسمته "إيساخر" ثم حملت وولدت غلاماً سادساً سمته "زايلون" ثم حلمت وولدت بنتاً سمتها "دينا" فصار لها سبعة من يعقوب. ثم دعت الله تعالى "راحيل" وسألته أن يهب لها غلاماً من يعقوب فسمع الله نداءها وأجاب دعاءها فحملت من نبى الله يعقوب فولدت له غلاماً عظيماً شريفاً حسناً جميلاً سمته "يوسف" كل هذا وهم مقيمون بأرض حران وهو يرعى على خاله غنمه بعد دخوله على البنتين[1].

و بعد انتقال يعقوب من أرض حران من عند خاله لابان إلى أرض أبيه وقومه حملت "راحيل" وولدت "بنيامين" إلا أنها جهدت فى طلقها به جهداً شديداً وماتت عقيبه فدفنها يعقوب فى أفراث وهى بيت لحم وصنع يعقوب على قبرها حجراً وهى الحجارة المعروفة بقبر "راحيل" إلى اليوم.

---

(١) المرجع السابق ص١٩٥.

وكان أولاد يعقوب الذكور اثنى عشر رجلاً فمن "ليا" "روبيل" و"شمعون" و"لاوى" و"يهوذا" و"إيساخر" و"زايلون". ومن "راحيل" "يوسف" و"بنيامين". ومن "أمَة راحيل" "دان" و"نيفتالى". ومن "أمَة ليا" "جاد" و"أشير".

وجاء يعقوب إلى أبيه إسحاق فأقام عنده بقرية حبرون التى فى أرض كنعان حيث كان يسكن إبراهيم ثم مرض إسحاق ومات عن مائة وثمانين سنة، ودفنه ابناه العيص ويعقوب مع أبيه إبراهيم الخليل فى المغارة التى اشتراها[1].

عزيز مصر

وهو الوزير يقول ابن إسحاق: (واسمه اطفير[2] بن روحيب، قال — أى ابن إسحاق — وكان ملك مصر يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق) [3].

قال فيه عبد الله بن مسعود: «أفرس الناس ثلاثة — أبو بكر حين تفرس فى عمر وصاحب يوسف حين قال: ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ وصاحبة موسى حين قالت ﴿يا أبت استأجرة إن خير من استأجرت القوى الأمين﴾ »[4].

امرأة العزيز

يقول ابن إسحاق (واسم امرأة العزيز راعيل بنت راعييل. وقال غيره كان اسمها زليخا والظاهر أنه لقبها) [5] وهى بنت أخت الملك.

---

(١) المرجع السابق ص١٩٧.
(٢) فى بعض النسخ قطفير.
(٣) المرجع السابق ص٢٠٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير جـ ٦ ص٢٣٩.
(٥) المرجع السابق.

الرجل الذى باعه بمصر:

هو مالك بن ذعر بن نويب بن عفقاء[1].

● محن ومنح يوسف:

لقد ابتلى يوسف بمحن فصبر عليها وخرج منها منتصراً مأجوراً عليها في دنياه وفى أخراه وهذه المحن هى:-

١- ابتلى بفراق أبيه فتفضل الله عليه بلقائه ورفع أبويه على العرش ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾.

٢- ابتلى بغلظة الإخوة ومحاولتهم قتله وإلقائه فى الجب فكافأه الله على ذلك بمسرة ﴿ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا ﴾.

٣- ابتلى بالوحشة فى بطن الجب وجوزى وهو فيه بوحى الله له ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾.

٤- ابتلى بالرق بيع كالسلعة فكافأه الله بالتمكين فى الأرض.

٥- ابتلى بمراودة امرأة العزيز وتغليقها الأبواب ودعوته لها وألصقت به التهمة فكافأه الله بالنجاة بشهادة فرد من أهلها ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾.

٦- ابتلى بحديث نسوة المدينة رغم أنهن برأنه فكافأه الله باعترافهن ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾.

٧- ابتلى بالخوف من الوقوع فى المعصية أمام موجات الإغراء المتتالية من دعوة امرأة العزيز له فدعا الله ﷻ ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ فكافأه الله ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾.

---

(١) انظر المرجع السابق.

٨- ابتلى بالسجن وذلته فكافأه الله عليه بالتمكين فى الأرض والعزة. فقال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ .

٩- ابتلى بادعاء امرأة العزيز بأنه هو الذى أراد بها السوء ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فكافأه الله على هذه المحنة بأن أظهر الحق على لسانها الذى اتهمته فقالت ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ .

١٠- ابتلى بالمال والملك واتساع الدنيا وأبعد عنه ضرها دعا ربه ﴿ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ .

رؤيا يوسف في طفولته

قال تعالى :

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

المباحث العربية

قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ ﴾ ﴿ إِذْ ﴾ بمعنى وقت والكلمة منصوبة بفعل محذوف والتقدير «واذكر وقت أن قال يوسف لأبيه». ﴿ لِأَبِيهِ ﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. ﴿ يَا أَبتِ ﴾ هذا نداء وحكم المنادى المضاف إلى ياء المتكلم يجوز فيه ست لغات:-

(١) إثبات ياء المتكلم نحو ﴿ يَا عِبَادِى لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [١] وهذا على بعض القراءات أما الرسم في المصحف فالكلمة مجردة عن ياء المتكلم.

---

(١) سورة الزخرف آية ٦٨.

(٢) حذف ياء المتكلم وإبقاء الكسرة التى قبلها لدلالة حذفها ﴿ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾[1].

(٣) ضم الحرف الذى كان مكسوراً لأجل الياء وهى لغة ضعيفة وقرئ ﴿قال ربُّ احكم بالحق﴾[2] بضم الباء فى «رب».

(٤) إثبات ياء المتكلم مع فتحها قال تعالى ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ﴾[3].

(٥) قلب الكسرة التى قبل الياء المفتوحة فتحة فتقلب الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها قال تعالى ﴿ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾[4]. وقال تعالى ﴿يا أسفا على يوسف﴾[5].

(٦) حذف الألف وإبقاء الفتحة دليلاً عليها. وإذا كان المنادى المضاف إلى ياء المتكلم أبا أو أماً جاء فيه عشر لغات وهى اللغات الست السابقة ولغات أربع أخرى هى:-

أ- إبدال الياء تاء مكسورة وبها قرأ السبعة ما عدا ابن عامر.

ب- إبدالها تاء مفتوحة وبها قرأ ابن عامر.

ج- يا أبتا: التاء والألف وهى قراءة شاذة.

د- يا أبتى: بالتاء والياء. وهاتان اللغتان الأخيرتان قبيحتان والأخيرة أقبح.

---

(١) سورة الزمر آية ١٦.
(٢) سورة الأنبياء آية ١١٢.
(٣) سورة الزمر آية ٥٣.
(٤) سورة الزمر آية ٥٦..
(٥) سورة يوسف آية ٨٤.

قولــه تعــالى ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾، ﴿ أَحَدَ عَشَرَ ﴾ مبنى على فتح الجزأين مفعول أول لرأيت وكوكباً تمييز. ثم ذكر الشمس والقمر معطوفين على أحد عشر وهو من عطف الخاص على العام لبيان فضلهما ومنزلتهما. وتكرير ﴿ رَأَيْتُ ﴾ يحتمل وجهين:-

(١) التوكيد فلما طال الكلام وكان هناك فصل بالمفعول وما عطف عليه كرر الفعل ﴿ رَأَيْتُ ﴾ وله شاهد على ذلك فى القرآن الكريم ومنه قوله تعالى ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴾[١]. فلقد كرر كلمة «أنكم».

(٢) والثانى أنه ليس بتأكيد وإليه نحا الزمخشرى فإنه قال فإن قلت ما معنى تكرار رأيتهم قلت ليس بتكرار إنما هو كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جواباً له كأن يعقوب عليه السلام قال له عند

قوله تعالى ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ كيف رأيتها سائلاً عن حال رؤيتها فقال ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾. قلت: وهذا أظهر[٢]. وجعل الضمير المنصوب فى رأيتهم لجمع المذكر لأنه وصفهم ببعض صفات العقلاء وهو السجود. ﴿ سَاجِدِينَ ﴾ إما أنها مفعول ثان عبارة عن التذلل لله وعبادته وهو عام فى الإنسان والحيوانات والجمادات وذلك ضربان سجود باختيار وليس ذلك إلا للإنسان وبه يستحق الثواب نحو قوله ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ أى تذللوا له

---

(١) سورة المؤمنين آية ٣٥.

(٢) الفتوحات الإلهية جـ٢ ص٤٣٥.

وسجود تسخير وهو للإنسان والحيوانات والنبات وعلى ذلك قوله: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ .

فهذا سجود تسخير وهو الدلالة الصامتة الناطقة المنبهة على كونها مخلوقة وأنها خلق فاعل حكيم[1].

والسجود لله تعالى فى الشرع عبارة عن هيئة مخصوصة وهى وضع الجبهة على الأرض وسجود الكواكب ليوسف كأنه عن إرادة واختيار كسجود العقلاء وعلم أبوه أن هذه الرؤيا إلهام وليست أضغاث أحلام التى تثيرها فى النوم الخواطر والأفكار ولا سيما غلام صغير.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾. قال يعقوب ليوسف ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ أصل «بنى» بَنَوٌ على زنة فَعَلٌ بفتح أوله وثانيه ثم صغر على سبيل العطف والتحبب فصارت «بُنَيْوٌ» على زنة فُعَيْل بضم أوله وفتح ثانيه وسكون الياء فتكون الياء الساكنة قد سبقت الواو فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء فى الياء فصارت «بُنَى».

قوله تعالى: ﴿ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ ﴾ لا تتبع آثار تلك الرؤيا وترويها بدقة إلى إخوتك ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ أى فيخدعوك ويمكرون بك. و لقد جزم الفعل «يكيدوا» لوقوعه فى جواب النهى، و﴿ كَيْدًا﴾ يجوز فيه وجهان:

(١) هو مصدر وضع موضع الاسم. فيكون مفعولاً به. وتكون اللام حينئذ فى «لك» بمعنى من أجلك.

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص٢٢٣ ، ٢٢٤.

(٢) أن يكون مصدراً مفعولاً مطلقاً مؤكداً لعامله.

قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ جملـة لا محـل لهـا مـن الإعراب مستأنفة. والشيطان إما إنه من الفعل شطن ومعناه بَعُدَ فإنه بعيد عن كـل خير والنون تكون أصلية. أو أنه من الفعل شاط بمعنى احترق فالنون تكون زائدة. و معنى الجملة: إن الشيطان ظاهر العداوة بيِّنها لا تفوته فرصة لها فيضيعها.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾.

و المعنى: وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيـا العظيمـة الدالـة علـى شـرف وعـز وكبرياء. شأن كذلك يجتبيك للأمور العظام. ومعنى الاجتباء الاختيـار والاصطفاء والمراد بالتشبيه بيان المضاهاة المتحققة بين الصور المرئيـة فـي عـالم المثـال وبـين ما وقعت هى صوراً وأشباحاً له من الكائنات الظاهرة بحبها فى عالم الشـهادة أى كما سخَّر لك تلك الأجـرام العظـام يسـخر لـك وجـوه النـاس ونواصيهم مـذعنين لطاعتك خاضعين لك على وجه الاستكانة ومراده بيـان إطاعـة أبويـه وإخوتـه لـه لكنه إنما لم يصرح به حذراً من إذاعته [1].

وقولـه تعـالى: ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾. هذا النص غير داخل فى التشبيه السابق وهو مسـتأنف فكأنـه قيـل وهـو يعلمـك ويتم نعمته عليك، ويجـوز أن يكـون معطوفاً علـى الكـلام السـابق، أى يجتبيـك ويعلمك من تأويل الأحاديث.

---

(١) تفسير أبى السعود جـ٤ ، ص٢٥٣.

والمراد بتأويل الأحاديث أمران:

١- إما الرؤيا التى ترى فى النوم وسميت أحاديث لأنها حديث الملك إن كانت صالحة، أو حديث النفس أو حديث الشيطان إن كانت غير ذلك وتأويل الرؤيا على هذا تأويلها وتفسيرها، ولقد ظهر ذلك من يوسف فى السجن عند أول رؤيا صاحبيه وأول رؤيا الملك حين أحجم الملأ من العلماء عن تعبيرها وقالوا أضغاث أحلام.

٢- وإما أن يكون المراد من الأحاديث. كتب الله التى أنزلها على الأنبياء السابقين وسنن الأنبياء وتأويلها تفسير غامضها وبيان ما اشتبه على الناس من مقاصدها وأهدافها فالأحاديث جمع حديث: فيكون كتب الله أحاديث الله. قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [(١)].

قوله تعالى: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. تمام النعمة أن تصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة ووجه تمام النعمة على يوسف وآل يعقوب على هذا الرأى بأن جعلهم فى الدنيا أنبياء وملوكاً ونقلهم إلى الدار الآخرة فجعلهم فى الدرجات العلى فى الجنة. وهذا تمام النعمة. وهذا هو الوجه الأول فى تمام النعمة والوجه الثانى: تمام النعمة أن يخلصه من المحن ومن الرزايا ويكون وجه التشبيه بإبراهيم وإسحاق هو إنعام الله عليهما بتخليصهما من البلايا ويظهر هذا فى إنجاء إبراهيم من النار. ولقد أطلق على الجد لفظ الأب وهذا لا يخفى فى الآية.

---

(١) سورة الزمر آية ٢٣.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ لا يضع النبوة إلا فى نفس قدسية وجوهرة مشرقة علوية ﴿حَكِيمٌ﴾ يصيب الحق فى القول وفى الفعل: والجملة اشتملت على أساليب بلاغية:

١- التوكيد بإنَّ واسمية الجملة. ٢- صيغتا مبالغة على زنة: فعيل.

لطيفة:

لقد بشر يعقوب يوسف بهذه البشارات فكيف حزن على يوسف وهو يعلم أن الله يجتبيه وكيف يشتبه عليه الأمر وكيف يخبر أبناءه بأنه يخاف عليه الذئب؟

والجواب عن ذلك: أنه أى يعقوب كان قاطعاً بصحة البشارات التى أخبر بها ولده وأن له شأناً عظيماً وكان حزنه على بعد يوسف عنه وعدم معرفته بالمكان الذى انتهى إليه ولو كان يعرف أنه استقر به المطاف فى قصر العزيز لهوّن على نفسه وهذه هى الطبيعة البشرية ولقد رأينا ذلك مع أم موسى فلقد طمأنها الله تعالى فقال لها ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[1]. ومع وحى الله لها ولا شك فى قدرته عز وجل فقال الله عنها ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[2].

فرغم أن الله هو الذى خاطبها وطمأنها وبشّرها وربط على قلبها فكانت فى حال من الخوف الشديد. وهذا حال يعقوب.

---

(١) سورة القصص آية ٧.

(٢) سورة القصص آية ١٠ ، ١١.

أما قوله لأولاده ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ زجرهم عن التهاون في حفظه وإن كان يعلم أن الذئب لا يصل إليه. وهذا زيادة في حفظ الشئ ومراعاته وهو من قبيل ﴿اعقلها وتوكل﴾.

معنى الآيات

اذكر وقت أن قال يوسف لوالده: يا أبت إني رأيت رؤيا ليست كرؤيا الصبيان وهي الأحلام المختلطة التي لا يتسطيع الأطفال لها تفسيرا إلا أنها انعكاس لحياة ورؤيا يوسف ليست من قبيل رؤى الصبيان بل كانت هادفة أضاءت المستقبل فرأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين له. ويبدو أن يعقوب أدرك تأويلها فنهاه أن يقصها على إخوته حتى لا يكيدوا له كيداً فإن الشيطان يوغر صدورهم فهو عدو مبين. ثم قال وكذلك يصطفيك ربك بالنبوة والملك وهذه نعم متصلة بنعم الآخرة كما أتمها على أجدادك إبراهيم وإسحاق.

قصة يوسف أمارات على حقائق كثيرة

قال تعالى :

﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضٗا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمٗا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٞ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ

﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

المباحث العربية

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ اللام واقعة فى جواب قسم محذوف. لقد كان فى قصة يوسف مع إخوته «آيات» دلائل على نبوة رسول الله ﷺ. ولقد وردت روايات تبين أن بعض اليهود سألوه مع حبر من أحبارهم عن قصة يوسف[1] فذكر لهم تلك القصة فوجدوها مطابقة لما فى التوراة وحينئذ فهى من دلائل نبوة رسول الله ﷺ حيث قص عليهم تلك القصة بأبلغ وجه وأفصح لسان. وأسَرَ بها كل جنان فهى وحى من قبل الرحمن.

ويحتمل أن يكون الله قص على رسوله ﷺ قصة يوسف وظلم إخوته له لما رأى ظلم قومه له. حتى يتأسى به الرسول ﷺ

(١) انظر تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص١٠٥.

فإن كان قومه آذوه فأقرب الناس إلى يوسف بالغوا فى إيذائه وهموا بقتله فصبر وفى النهاية عفا وصفح.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿ إِذْ ﴾ ظرف بمعنى الوقت وهو منصوب بفعل محذوف تقديره «أذكر وقت قالوا ليوسف» اللام يجوز أن تكون موطئة لقسم محذوف ويجوز أن تكون للابتداء وفى هذا توكيد لما رأوا من زيادة محبة أبيهم ليوسف وأخيه وأضاف الأخ ليوسف لأنهما كانا شقيقين.

سر محبة يعقوب ليوسف وأخيه:

لقد كان يوسف وأخوه صغيرين قد ماتت أمهما وهما صغيران فكان قلب يعقوب مولعاً بحبهما لموت أمهما والفطرة مركوزة فى البشر وهى حب الصغير فلقد قيل لابنة الحسن: أى بنيك أحب إليك قالت الصغير حتى يكبر والغائب حتى يقدم والمريض حتى يفيق ولقد عبر عن هذه الفطرة الوزير أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيرى فى قصيدته التى بعث بها إلى أولاده وهو فى السجن:

وصغيركم عبد العزيز فإننى ... أطوى لفرقته جوى لم يصغر
ذاك المقدم فى الفؤاد وإن غدا ... كفؤاً لكم فى المنتهى والصغر
إن البنان الخمس أكفاء معاً ... والحلى دون جميعها للخنصر(1)

وقوله تعالى ﴿ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ﴾ خبر ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾ ولم تحصل

(1) أنظر البحر المحيط جـ ٥ ص٢٨٣.

المطابقة بين المبتدأ والخبر لأن الخبر اسم تفضيل مجرد، ولقد تعدى أحب بإلى، قال الصاوى (واعلم أن مادة الحب والبغض إذا بنى أفعل التفضيل منها تعدى للفاعل بإلى وللمفعول باللام أو بفى والآية الكريمة من الأول فإن الأب هو فاعل المحبة) [1].

قوله تعالى ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ هذه الجملة فى محل نصب حال. والعصبة كما قال ابن عباس : ما زاد على العشرة وعنه ما بين العشرة إلى الأربعين، وعن قتادة ما فوق العشرة إلى الأربعين ، وعن مجاهد من عشرة إلى خمسة عشر، وعن مقاتل عشرة، وعن ابن جبير ستة أو سبعة. وقيل ما بين الواحد إلى العشرة، وقيل إلى خمسة عشر) [2].

قوله تعالى ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ومعنى الضلال الخطأ أو الهوى أو الجور فى الفعل الخطأ فى أمور الدنيا.

(روى أنه بعد إخباره لأبيه بالرؤيا كان يضمه كل ساعة إلى صدره وكأن قلبه أيقن بالفراق فلا يكاد يصبر عنه) [3].

قوله تعالى: ﴿ اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ هذا قول إخوة يوسف لبعضهم أو أنهم استشاروا بعض أهل الشر فأشاروا عليهم بقتله أو تغريبه أو أنهم افترقوا فرقتين فرقة قالت بقتله وفرقة قالت بتغريبه إلى أرض بعيدة.

---

(١) حاشية الصاوى على الجلالين جـ ٢ ص ١٩٩.

(٢) البحر المحيط جـ ٥ ص٢٨٣.

(٣) البحر المحيط جـ ٥ ص ٢٨٣.

و الطرح هو إلقاء الشئ وإبعاده. وأرضاً منصوب على الظرفية ففيها معنى الإبهام والجهالة. ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ لا يشغل بغيركم ويقبل عليكم. والفعل مجزوم فى جواب الأمر ﴿ اقْتُلُوا ﴾ وعلامة جزمه حذف حرف العلة.

﴿ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ والفعل معطوف على الفعل المجزوم. والمعنى: «وتكونوا من بعد قتله أو تغريبه أو من بعد يوسف ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ تائبين إلى الله مما جنيتم عليه أو يصلح ما بينكم وبين أبيكم بعذر تمهدونه أو تصلح دنياكم وتنتظم أموركم بعده بخلو وجه أبيكم»[1].

قوله تعالى ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ هذا رأى ثالث انبثق عن عرض الرأيين السابقين وهو أرفق بيوسف من قتله أو تغريبه. وصاحبه هو يهوذا، وهو الذى قال فيما بعد ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي﴾ . وقيل القائل روبيل.

قوله تعالى ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾ الغيابة: الشئ المظلم والجب هو البئر التى لم تطمر، أى التى بها ماء، وكان بأرض بيت المقدس وقيل كان بالأردن ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ أى يأخذه لقطة بعض الأقوام الذين يسيرون فى الطريق والسيارة جمع سيار، ﴿ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ تفريقاً بينه وبين أبيه وجواب الشرط محذوف والتقدير فافعلوا ذلك.

قوله تعالى ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ بدأوا صلتهم بتلطفهم فى طلبهم لإخراجه معهم، فقالوا ﴿ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا

---

(١) الكشاف جـ٢ ص٣٠٥.

عَلَى يُوسُفَ ﴾ والاستفهام صحبه معنى التعجب ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ أى وإنا لعاطفون عليه قائمون بمصالحه ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ الغد يطلق على اليوم الذى يلى يومك وعلى الزمن المستقبل من غير تقييد باليوم الذى يلى يومك وأصله غدو حذفت لامه والارتعاء هو التمتع بأكل الفواكه أو من المراعاة وهى الحراسة واللعب هو الاستباق والانتضال وهو المبارزة فى الرمى. ولقد جزم الفعلان فى جواب الأمر وقرئ يرتع بالنون والياء ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ وأكدوا معيتهم له بالمحافظة عليه مما يسوؤه وقال ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ هذا اعتذار من يعقوب واعتذر لأمرين:

الأول: أمر عامل فى الحال وهو حزنه على فراقه. **الثانى**: فى الاستقبال وهو خوفه من الذئب إن غفلوا عنه وشغلوا بغيره وطمأنه إخوة يوسف من الأمر الثانى: فأقسموا له لئن كان ما يخيفه من عدو الذئب عليه من بينهم وهم عشرة رجال، بمثلهم تُعصب الأمور وتُدرأ الخطوب إن وقع ذلك فهم قوم خاسرون هالكون ضعفاً وخوراً وعجزاً. وعدل إخوة يوسف عن الأمر الأول لإيهامه بأن المدة قصيرة ولقد ذكر الصاوى أن سبب خوف يعقوب من الذئب أنه رأى مناماً رأى فيه أن ذئباً تعرض ليوسف.

تنفيذ المؤامرة:

قال تعالى ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾. بين هذه الآية وبين ما قبلها حذف بالإيجاز تقديره فأجابهم إلى ما سألوا رحمة بيوسف حتّى يستمتع الغلام بالجو

واللعب ودعا يعقوب لولده «استودعتك الله رب العالمين» ، قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ ﴾ أى عزموا واتفقوا على إلقائه فى الجب. وجواب لما محذوف تقديره فلما ذهبوا به وأجمعوا. فعلوا ذلك بأن نزعوا قميصه. ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا ﴾ احتمال بأن يكون الوحى وحياً حقيقياً أو إلهاماً تطميناً لقلبه ليخبرنهم بصنيعهم هذا ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ وهو وقت إخبارهم بهذا الأمر لا يحسون أنك يوسف. وهذا الإخبار الوارد فى قوله تعالى ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾.

معنى الآيات

لقد كان فى قصة يوسف وإخوته أمارات كثيرة على حقائق إلهية ونبوية لمن ينقب عن الآيات ويهتم بها. وتبدأ القصة بحديث الحقد بين الإخوة فى شأن يوسف وأخيه اللذين أخذا مساحة كبيرة من قلب أبيهم وهذه المساحة أكبر من مساحتهم وهم كثيرون. فراحوا يفكرون ويأتمرون فمنهم من أشار بقتل يوسف ومنهم من أشار بتغريبه وإبعاده حتى يتفرغ لهم الوالد ويتوبون من إثمهم. وظهر فيهم صوت يبعد بهم عن المغالاة فى اتجاهاتهم فنهاهم عن قتله وأمرهم بإلقائه فى الجب وتحايلوا على الوالد الهائم فى حب ولده وسألوه سؤالاً محاطاً بسياج من التعجب ﴿مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾.

و ساقوا له ما يفرح الأطفال من الثمار واللعب فلا يقف عثرة فى سرور ولده ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ فقدم لهم عذره وأقنعوا الوالد ووقف الوالد مودعاً صغيره وكأنه يشعر بأن ولده ليس له أوْبَة فأودعه عند

الله الذى لا تضيع لديه الودائع. وذهبوا به وطفقوا ينفذون مؤامرتهم الدنيئة فلقد أعماهم الحقد وقتل مشاعرهم وبتر أحاسيسهم وألقوه فى غيابة الجب وكان الجب بوحشته وظلمته أرحم من إخوته وطمأنه الله فى وقت هذه الشدة العظيمة وهى أول شدة تطيح بعقل الطفل الصغير يوسف. فأوحى الله إليه بأنهم سيحتاجون إليه وأنه سيكون السيد وسيخبرهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون.

كذب و خداع

قال تعالى :

﴿ وَجَاءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

المباحث العربية

﴿ وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ ﴾ أى أتوا إلى أبيهم مساء فاختيارهم لوقت الليل يبيح لهم أمرين:

١- قبول أبيهم لعذرهم فلقد أتوا بالليل ليكونوا أقدر على الاعتذار فى الظلمة وهذا أدعى للقبول. ولذلك قيل لا تطلب الحاجة بالليل

فــإن الحيــاء فــى العيــنين ولا تعتــذر بالنهــار مــن ذنــب فتــتلجلج فى الاعتـــذار.

٢- لن يكون أمام يعقوب فرصة فى الخروج للبحث عن يوسف. وعشاء منصوب على الظرفية وجملة «يبكون» فى محل نصب حال. وفى الكلام حذف بالإيجاز « وجاءوا أباهم دون يوسف عشاء يبكون ».

﴿ قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾. قالوا يـا أبانـا إنـا ذهبنـا نرمـى ونتسـابق ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا ﴾ عند أمتعتنا وثيابنا ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ أى بمصدق لنا الواو واو الحال ﴿ وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ «لو» يجوز أن تكون زائدة وهذه أسهل، ويجوز أن تكون شرطية وجوابها محذوف تقديره لاتهمتنا.

روى أنهم أتوا بقميصه ووضعوا دم سخلة أو جدى عليه ثم قدموه للوالد. وهناك قصص ساقها بعض المفسرين لا داعى منها فإنها من الإسرائيليات المنافية للعقل ومنها:-

(روى أنه قال - أى يعقوب - ما أحلم هذا الذئب يأكل ابنى ولا يقد قميصه وقيل إنهم أتوه بذئب قالوا هذا أكله فقال يعقوب: أيها الذئب أنت أكلت ولدى وثمرة فؤادى فأنطقه الله قال: والله ما أكلت ولدك ولا رأيته قط ولا يحل لنا أن نأكل لحوم الأنبياء، فقال له يعقوب فكيف وقعت بأرض كنعان ؟ فقال: جئت لصلة الرحم فأخذونى وأتوا بى إليك فأطلقه يعقوب»[1].

---

(١) حاشية الصاوى جـ ٢ ص ٢٠١.

قوله تعالى ﴿ وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ أى وجاءوا على قميصه بدم ذى كذب ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ أى قال يعقوب حين كذبهم: بل زينت لكم أنفسكم أمراً فاجتمعتم عليه. وفطن يعقوب لأمرهم لأن القميص لم يمزق وقيل كان فى قميص يوسف ثلاث آيات.

كان دليلاً ليعقوب على أن يوسف لم يأكله الذئب. وألقاه على وجهه فارتد بصيراً، وكان فيه براءة يوسف حين قُدَّ من دبره.

قوله تعالى ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ الصبر حبس النفس عن الجزع وهو مبتدأ خبره أمثل والتقدير فصبر جميل أمثل أو أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره فأمرى صبر جميل والصبر الجميل هو الذى لا شكوى فيه ﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ والله هو المطلوب منه العون على احتمال ما تصفون من هلاك يوسف.

معنى الآيات

و جاءوا أباهم مساء يبكون يدّعون أنهم ذهبوا للاستباق وقد تركوا يوسف عند متاعهم فأكله الذئب ويشعرون أن حيلتهم مكشوفة يكاد المريب أن يقول خذونى فيقولون ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ أى وما أنت بمطمئن لما نقوله ولو كان هو الصدق لأنك تشك فينا ولا تطمئن لما نقوله وأدرك يعقوب من دلائل الحال ومن هتاف قلبه فلقد قدموا حجة داحضة وهى قميصه السليم ملطخاً بالدماء فلما أدرك يعقوب حجتهم الواهية قال بل زينت لكم أنفسكم أمراً فالصبر على مصيبتى أمثل والعون من الله على تقبل هذه المصيبة التى تصفون فيها هلاك ولدى.

رحلة المستقبل المجهول إلى مصر

قال تعالى :

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾

المباحث العربية

﴿ وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ ﴾ السيارة جمع سائر أى مسافر، سمى بذلك لسيره فى الأرض، وكانوا من مدين آمين مصر جاءت يوسف فى اليوم الثانى من طرحه فى الجب وقيل كانت هذه السيارة تائهة تسير من أرض إلى أرض نزلوا قريباً من الجب، وقيل إن المدة التى قضاها يوسف فى الجب ثلاثة أيام، كان التسبيح فيها عزاءه، وقيل كان يأتيه يهوذا بالطعام خفية من إخوته.

﴿ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ ﴾ الوارد هو الذى يرد الماء ليستقى للقوم. وهن عدل بالضمير إلى واو الجماعة وكان السياق يقتضى أن يقال «فأرسلت» بتاء التأنيث مراعاة لمعنى السيارة فمعناها الجماعة. وكان هذا الوارد مالك بن ذعر الخزعى.

﴿ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ﴾ أى أرسلها ليستقى الماء. ﴿ قَالَ يَا بُشْرَى هَـٰذَا غُلَامٌ ﴾ هنا إيجاز بالحذف تقديره فتعلق يوسف بحبل الدلو ﴿ قَالَ يَا بُشْرَى هَـٰذَا غُلَامٌ ﴾ وفى هذا الموطن لغتان تدلان على صغر يوسف عليه السلام، الأولى: تعلقه بالحبل والثانية قول الوارد: هذا غلام. والغلام يطلق على الإنسان فيما بين الحولين إلى البلوغ. قوله ﴿ يَا بُشْرَى ﴾ البشرى هى الخبر السار إن رأى الوارد أحسن خلق الله جمالاً وبهاء ونداؤه للبشرى مجاز لتنزيلها منزلة العاقل. وذكر غلام ليدل على التعظيم، لأنه كان عليه السلام حسن الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوى الخلق أبيض اللون غليظ الساعدين والعضدين والساقين خميص البطن صغير السرة كان إذا تبسم ظهر النور من ضواحكه وإذا تكلم ظهر من ثناياه وبالجملة لم يكن أحسن منه إلا سيدنا محمد ﷺ، فإن يوسف أعطى شطر الحسن ورسول الله ﷺ أعطى الحسن كاملاً.

قال البوصيرى:

مُنَـزَّهٌ عَنْ شَـرِيكٍ فِى مَحَاسِـنِهِ ∴ فَجَوْهَرُ الْحُسْنِ فِيهِ غَيْرُ مُنْقَسِمِ

(إن قلت إذا كان كذلك فلم لم تفتتن النساء بجمال محمد النبى ﷺ كما افتتن بجمال يوسف؟ أجيب بأن جمال محمد قد ستره الله بالجلال كالشمس لا يستطيع أحد أن يتأمل فيها إذا قرب منها ولذا لم ترد الشمائل الشريفة إلا عن

صغار الصحابة كالحسن والحسين وعبد الله بن عمر وغيرهم لا عن كبارهم لقيام الجلال بقلوبهم فيمنع من وصفه وأما جمال يوسف فهو ظاهر لم يستتر بجلال كالبدر فحينئذ يتأمل فيه المتأمل ويصفه الواصف غير أنه يعجز عن استيعاب محاسنه ومن هذا المعنى قول ابن الفارض:

لوْ أسْمَعُوا يَعْقُوبَ بَعْضَ ملاحةٍ .·. فى وَجْهِهِ نَسِيَ الجَمَالَ اليُوسفيَ[1]

﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ ضمير الرفع الظاهر فيه أنه يعود على السيارة التى أرسلت واردها والمعنى أى وأخفوا أمر يوسف من رفقتهم وكتموا أمره من وجدانهم له فى البئر. وقالوا دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر. وقال ابن عباس الضمير فى «وأسروه وشروه» لإخوة يوسف حين علموا بإخراجه حضروا وإنهم قالوا للسيارة هذا غلام قد أبق لنا فاشتروه منا وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه. و﴿ بِضَاعَةً ﴾ منصوبة على الحال أى متجراً لهم ومكسباً. والضمير المنصوب يعود على يوسف.

قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أى لم تخف على الله أسرار السيارة، وهذا وعيد لهم حيث استبضعوا ما ليس لهم. أما إذا كان ضمير الرفع فى﴿ وَأَسَرُّوهُ ﴾راجعاً إلى إخوة يوسف فيكون المعنى: والله عليم بعمل إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء الصنع وفى هذا أعظم تذكار لما فعلوا بيوسف. وعبر بالمضارع ليدل على التجدد والحدوث فكل أعمالهم الماضية والمستقبلة علمها الله.

قوله تعالى ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ الفعل «شرى» بمعنى باع فإن كان ضمير الرفع يعود على السيارة

---

(١) حاشية الصاوى جـ ٢ ص ٢٠١.

يكون المعنى: وباعوا يوسف بثمن بخس وإن كان عائداً على إخوته يكون المعنى وباعوا أخاهم ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾. و﴿ بَخْسٍ ﴾ مصدر بمعنى مفعول أى مبخوس أى ناق ودراهم بدل من ثمن. ومما يدل على أنه مبخوس بيعه بدراهم وليس بدنانير وكلمة معدودة تدل على القلة. و﴿ وَكَانُواْ ﴾ أى إخوة يوسف ﴿ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾. وإن كان الضمير يعود على السيارة فزهدهم فيه حين علموا من إخوته أنه عبد آبق فسيضيع مالهم فيه.

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ هو قطفير، أو أطفير وهو العزيز الذى كان على خزائن مصر. ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ أى أكرمى مقامه وتعهد به بالإحسان ﴿ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ أحسنى إليه رجاء أن ينفعنا أو نتبناه ونقيمه مقام الولد وكان العزيز عقيماً لا يولد له وقد تفرس فيه الرشد فقال ذلك. وقيل أفرس الناس ثلاثة العزيز حين تفرس فى يوسف فقال لامرأته ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا ﴾، والمرأة التى أتت موسى وقالت لأبيها ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ وأبو بكر حين استخلف عمر رضى الله عنهما. وهذا القول لابن مسعود رضى الله عنه ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ أى وكما أنجيناهم من قبضة إخوته وعطفنا عليه وأكرمنا مثواه كذلك مكنا له فى الأرض، أى جعلنا له مكاناً يقال مكنه فيه أى أثبته فيه ومكن له فيه والمراد بالأرض أرض مصر فالألف واللام للعهد ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ ولنعلمه تعبير الرؤيا وتأويل الأحلام وسميت أحاديث باعتبار الأحاديث فيها وقيل المراد بالأحاديث أحاديث الأنبياء ﴿ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾ والله تعالى لا يعجزه شئ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ وهم الكفار ﴿ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أى لا يدركون ذلك.

لطيفة: لم تذكر الآيات اسم امرأة العزيز ستراً وتعلماً للأدب وأن لا يذكر أحد زوجته باسمها بل أضاف النساء إلى أزواجهن، قال ذلك عن امرأة عمران وامرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون وامرأة أبى لهب ولم تذكر امرأة باسمها سوى مريم ولقد ذكرها الله لأن النصارى زعموا أنها زوجة الله فذكرها باسمها رداً عليهم كأنه يقول إن أحدكم يستنكف عن ذكر اسم زوجته بين الناس فلو كانت زوجة لى لما ذكرتها باسمها.

معنى الآيات

انتهت مؤامرة الإخوة بطرح يوسف فى الجب فمرت قافلة فبعثوا ساقيهم ليأتى بالماء فتعلق يوسف بحبل دلوه قال الساقى يا بشرى هذا غلام واعتبروه بضاعة ثرية وعزموا على بيعه رقيقاً ثم بيع بثمن زهيد وكانوا فيه من الزاهدين ليتخلصوا منه. وانتهت رحلة القافلة بيوسف إلى مصر بيد أن العزيز اشتراه وأمر زوجته بإكرام مقامه والإحسان إليه. وتوسم فيه الخير فالخير يتوسم فى وجوه الصباح ومثل إنجائه من المؤامرة وإكرامه فى قصر العزيز مثل ذلك ثبته الله فى أرض مصر فالله لا يعجزه شئ ولكن الكفرة لا يدركون ذلك ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .



حياة يوسف فى قصر العزيز و ملامحها

قال تعالى:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ
أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾
وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ
وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ
إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا
لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ
وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا
ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ
قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ
أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ
مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ
هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ
﴿٢٩﴾ ۞ ﴾

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ جمع رشده و«أشد» كنعمة وأنعم وهذا السن هو ثلاثون سنة ، وسئل الفاضل النحوى عن الأشد فقال: هو خمس وثلاثون وتمامه الأربعون)[1]. ولقد أتى هذا النص فى حق موسى بزيادة كلمة «استوى».

قال تعالى ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾[2] لأن موسى عليه السلام كان قد بلغ الأربعين وهى سن النبوة فقد استوى وتهيأ لحمل أعباء الرسالة وأسرارها. وأما يوسف فلم يكن إذ ذاك بلغ هذا السن فيكون المعنى: فلما بلغ الحلم.

قوله تعالى ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ أى أعطيناه حكمة وهى إصابة الحق فى القول وفى الفعل أو هى العلم مع العمل. والعلم: هو الفقه فى الدين. والتنكير فيهما يدل على التفخيم والتكثير ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى وكما جزيناه بكل خير ﴿ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ والمراد بالمحسنين أى الذين أحسنوا أقوالهم وأفعالهم ، وهو اسم مفعول من الفعل أحسن ، فهو محسن.

محاولة امرأة العزيز إثارة يوسف:

قوله تعالى : ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾.

المراودة: مفاعلة ، تكون من الجانبين ولكنها هنا من جانب واحد هو امرأة

(١) البحر المحيط جـ ٥ ، ص٢٩٢.
(٢) سورة القصص آية ١٤.

العزيز ولما كان الجانب الآخر وهو يوسف سبباً فى حصول المراودة نزل منزلته وذلك أن جمال يوسف سبب لميله وطلبها له فالمفاعلة ليست على بابها وأصل الكلمة كما يقول صاحب لسان العرب: (راودت الريح ترود روداً وروداناً جالت وفى التهذيب تحركت ونسمت تنسم نسماناً إذا تحركت تحركاً خفيفاً)[1].

والتعبير بكلمة «تراود» يدل على أنها جالت فى خفة ورقة بروائحها المثيرة وزينتها العارية وأكثرت من ذلك ليواقعها.

﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ ﴾ أوصدت الأبواب بحيث يعسر فتحها وجاءت صيغة الفعل على التكثير بدلاً من أغلقت لأنها بالغت فى إغلاق سبعة أبواب. لقد بدأت المرأة بالمراودة أولاً. فلما لم تجد استجابة منه وتجاهلها ولم تحرك ساكنه خرجت عن طبيعة بنى جنسها فالعادة أن المرأة غالباً هى المطلوبة فصارت فى هذا الموقف طالبة. فغلقت الأبواب وأحكمت تغليقها ودعته إلى نفسها.

﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ ، قال الواحدى: هيت لك اسم للفعل ، نحو رويداً وصه ومه ، ومعناه هلم فى قول جميع أهل اللغة[2].

و قيل هيت لك بالعبرانية هيالج أى تعالى بالعربية عرَّبه القرآن، وقال الفراء إنها لغة أهل حوران سقطت إلى بكة فتكلموا بها وقال ابن الأنبارى: وهذا وفاق بين لغة قريش وأهل حوران كما اتفقت لغة العرب والروم فى القسطاس ولغة العرب والفرس فى السجيل ولغةالعرب والحبشة فى ناشئة الليل[3].

---

(١) لسان العرب جـ ٣ ، ص١٧٧٢.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ، ص١١٥ ، ص١١٦.
(٣) أنظر المرجع السابق.

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ معاذ: مصدر ناب عن الفعل والأصل أعوذ بالله معاذ ، كسبحان الله بمعنى أسبح الله والفعل المحذوف هو الذى عمل فيه النصب.

﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ كيف ينبه يوسف امرأة العزيز بهذا الأسلوب ويقول عن بعلها إنه ربى ؟ والجواب على ذلك أن يوسف عليه السلام أجرى هذا الكلام بحسب الظاهر وعلى وفق ما كانوا يعتقدون من كونه عبداً للعزيز وأنه ربّاه وأنعم عليه بالوجوه الكثيرة فكلام يوسف إنه ربى أى مربياً له وهذا من باب المعاريض..

و معنى ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ إن حرف توكيد ونصب والضمير للحال والشأن وهو اسمها وربى خبرها وجملة أحسن مثواى جملة خبر ثان لـ«إن» ، أو هى جملة حالية. والمعنى: إنه ربَّانى وأحسن مقامى فلا يليق بى أن أخونه ، ولقد كان يوسف غاية فى الذوق والرقة حيث أرشد امرأة العزيز إلى رعاية حق زوجها بلطف ولم يفسدها ويوغر صدرها على زوجها كما يفعل كثير من الناس. قال رسول الله ﷺ «من خَبَّبَ زوجة امرئ أو مملوكه فليس منا»[1].

﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى لا يفوز الزناة بشئ فى دنياهم وأخراهم. والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب معللة لامتناعه عن الوقوع فى المعصية.

معنى الهم:

قال الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾. لقد أثار هذا النص أفكار العلماء القدامى والمحدثين وأدلى كل فريق بدلوه وولى

(١) رواه أبو داود.

بعضهم وجهه شطر آثار لا تخرج عن كونها إلا من مشكاة الإسرائيليات فقد رووا أساطير باطلة تصور يوسف هائج الغريزة مندفعاً شبقاً والله يدافعه بالبراهين الكثيرة وهو لا يندفع. وأساطير صورت يعقوب في سقف المخدع عاضاً على إصبعه بفمه وأساطير صورت لوحة كتبت عليها آيات قرآنية تنهاه عن الزنا ﴿ولا تقربوا الزنا﴾. ومن هذه الآراء ما ساقه الفخر الرازي عن الواحدي ، قال الواحدي في كتاب البسيط: قال المفسرون الموثوق بعلمهم المرجوع إلى روايتهم ، همّ يوسف أيضاً بهذه المرأة همّاً صحيحاً وجلس منها مجلس الرجل من المرأة فلما رأى البرهان من ربه زالت كل شهوة عنه، قال جعفر الصادق ﷺ بإسناده عن علي عليه السلام أنه قال طمعت فيه وطمع فيها فكان طمعه فيها أنه هم أن يحل التكة وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حلّ الهميان وجلس منها مجلس الخاتن وعنه أيضاً أنها استلقت له وجلس بين رجليها ينزع ثيابه. ثم إن الواحدي طول في كلمات عديمة الفائدة في هذا الباب وما ذكر آية يحتج بها ولا حديثاً صحيحاً يُعوَّل عليه تصحيح هذه المقالة. وروى أن يوسف عليه السلام لما قال ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب قال له جبريل ولا حين هممت يا يوسف فقال يوسف عند ذلك «وما أبرئ نفسي» ثم قال: والذين أثبتوا هذا العمل ليوسف كانوا أعرف بحقوق الأنبياء عليهم السلام وارتفاع منازلهم عند الله تعالى من الذين نفوا السهم عنه»[1].

وفي مقابل هذه الآراء ذهب فريق من العلماء إلى (أن يوسف عليه السلام كان بريئاً عن العمل الباطل والسهم المحرم وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين وبه نقول) [2].

---

(١) تفسير الفخر الرازي جـ٥ ، ص١١٧.

(٢) المرجع السابق.

و بعض أصحاب هذا الاتجاه ذهبوا إلى أن همَّ يوسف غير همِّ امـرأة العزيـز فهى همت ليواقعها و همَّ يوسف بدفعها عن نفسه أو همَّ بالفرار منها.

الرأيان فى الميزان:

الرأى الأول: حمل أهله على يوسف عليه السلام وليس لهم سند صحيح فى اتجاههم ولم يكونوا معه فى قصر العزيز حتى يصفوا ما وقع بينه وبين امـرأة العزيز فهذا افتراء عليه ، أيصل بيوسف أن يلبى نداء غريزته ويهم بحل التكة، وأن يجلس من امرأة العزيز مجلس الرجـل مـن المـرأة وأنـه جلـس منهـا مجلـس الخاتن. وأنها استلقت له وجلس بين رجليها ينزع ثيابه وطمعت فيه وطمع فيها.

و الله إنه افتراء على يوسف عليه السلام. إن يوسف بفطرته وتكوينه الفطرى يدرك حرمة الزنا ويعف عن الخيانة ونسى هؤلاء العلمـاء أن علـم الوراثـة يمنـع ذلك. فإذا كان الوالدان مجرمين فإنهما يورِّثان الذرية ذلك ولهذا أصل فى القرآن، قال تعالى ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾[1].

ولقد رأيت بنفسى فى مركز شرطة أشمون فتاة قبض عليها وكانت تمـارس الزنا بكثرة وتبرأ منها أبوها وكانت المفاجأة أنه ليس أباها بـل قـد وجـدها طفلـة ملقاة على قارعة الطريق فأخذها وتسلمها من مركز الشرطة بمحضر مسـجل فلمـا كبرت هذه الطفلة مارست الزنا فلقد أتت عن طريق مركز الشرطة ومارسـت الزنـا الذى كانت ثمرته.

---

(١) سورة النمل آية ٤٣.

ومن هذا المنطلق نقول إن يوسف حلقة من سلسلة نبوية بدؤها إبراهيم ثم إسحاق ثم يعقوب ثم يوسف ، فعن أبي هريرة ﷺ قال: «قيل يا رسول الله من أكرم الناس؟ قال: أتقاهم. قالوا: ليس عن هذا نسألك ، قال: فيوسف نبي الله ابن نبي الله بن نبي الله ابن خليل الله. قالوا: ليس عن هذا نسألك ، قال: فعن معادن العرب تسألوني خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا) [1]. والزنا خيانة وهو من الكبائر فكيف يشرع يوسف في مقدماته ؟ أليس هذا افتراء؟

يقول الفخر الرازي: (إن الزنا من منكرات الكبائر والخيانة في معرض الأمانة أيضاً من منكرات الذنوب وأيضاً مقابلة الإحسان العظيم بالإساءة الموجبة للفضيحة التامة والعار الشديد أيضاً من منكرات الذنوب وأيضاً الصبي إذا تربى في حجر إنسان وبقي تكفيه المؤونة ويرعاه من أول صباه إلى زمان شبابه وكمال قوته فإقدام هذا الصبي على إيصال أقبح أنواع الإساءة إلى ذلك المنعم المعظم من منكرات الأعمال إذا ثبت هذا فنقول إن هذه المعصية التي نسبوها إلى يوسف عليه السلام كانت موصوفة لجميع هذه الجهات الأربع ومثل هذه المعصية لو نسبت إلى أفقر خلق الله تعالى وأبصرهم عن كل خير استنكف منها فكيف يجوز إسنادها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام) [2].

و الأدلة على براءة يوسف من الشروع في تلك الجريمة ما يلي:

---

(١) رواه مسلم

(٢) تفسير الفخر الرازي جـ ٥ ص ١١٧.

الدلائل على عفة يوسف عليه السلام و براءته

لقد هتفت قصة يوسف ببراءته: وأنه المثل الإنسانى الكامل فى العفة والطهر والأمانة. ولقد نطقت الدلائل ببراءته وشاهدها العزيز ومن معه قال تعالى ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ ولقد سجنه العزيز مع علمه ببراءته لأن امرأته كانت تقوده كيف شاء لهواها وأن الغيْرة قد ماتت فى طبعه، قال الزمخشرى فى الكشاف فى تفسير قوله تعالى ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ ﴾ هى الشواهد على براءته وما كان ذلك إلا باستنذال المرأة لزوجها وفتلها منه فى الذروة والغارب وكأنه مطواعة لها وجَمَلاً ذلولاً زمامه فى يدها حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات وعمل برأيها فى سجنه، وإلحاق الصغار به كما أوعدته به وذلك لما أيست من طاعته لها أو لطمعها فى أن يذله السجن ويسخِّره لها)[1].

والآيات على براءة يوسف هى:

أولاً: قال الله تعالى ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ولما بلغ مبلغ الرجال وهو الأشد وهو ثمانى عشرة سنة أو عشرون أو ثلاث وعشرون أو خمس وعشرون أعطاه الله ﴿ حُكْمًا ﴾ حكمة وهى إصابة الحق فى القول وفى الفعل «علماً» وهو إدراك حقيقة الأشياء. ولقد وصفه الله بكونه محسناً قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ فمن كانت هذه أوصافه فلا يقع فى وحل الرذيلة.

(١) الكشاف جـ٢ ، ص٣١٩، ط١ دار المعرفة بيروت لبنان.

ثانياً: حين بالغت امرأة العزيز فى عرض زينتها وجسدها على يوسف عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ فالمراد من المفاعلة من راد يرود إذا جاء وذهب فكأن امرأة العزيز تجئ وتروح أمامه لعرض نفسها ولم يلتفت إليها يوسف فتحولت من هذا الطور إلى طور أخرجها عن طبيعتها فالمرأة عادة تكون مطلوبة ولما يئست من طور العرض سلكت طريق الدعوة المكشوفة السافرة إلى الفعل الأخير القبيح فتغليق الأبواب لا يكون إلا فى اللحظة الأخيرة فالمرأة وصلت إلى اللحظة الحاسمة التى تلبى فيها طلب الجسد ونداء الغريزة ، قال تعالى ﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ وإزاء هذا الإغراء يقف فتاها الممتلئ بالقوة والحيوية متكاملاً جميلاً فيرد عليها ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ الذين يقابلون الإحسان بالسوء أو أنه لا يفلح الزناة فهم ظالمون لأنفسهم.

ثالثاً: لقد قال الله عن يوسف ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ لقد وصف الله سبحانه وتعالى يوسف عليه السلام فى نهاية الآية بقوله ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ والمخلصون ينأى إبليس عنهم ولا يغويهم قال الله تعالى عنه ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (1). وهذا يدرك على أن الشيطان لا يغويه فثبتت براءته.

رابعاً: قال تعالى ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ هِيَ

---

(1) سورة ص آية ٨٢.

﴿ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾.

وفى هذه الآيات عدة أدلة:

١- فى قوله ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ﴾ وفى هذا دليل آخر فلقد فرَّ يوسف من امرأة العزيز حين قالت هيت لك فأسرعت وراءه تريد أن تمنعه من الخروج فاجتذبته من قميصه فانشق وصادفا بعلها عند الباب ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾.

و لما وجدت أن الدليل واضح على براءة يوسف عن هيئتها معه ساقت حيلة تهدف إلى هدفين تبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة والغضب على يوسف وتخويفه طمعاً فى أن يؤاتيها خيفة منها ومن مكرها[1]. ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

٢- قوله ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ هذا القول من يوسف يبرئ ساحته فهو الذى آتاه الله حكماً وعلماً بأنه من المحسنين ونعته بأنه من المخلصين ولقد قال الرسول ﷺ: « الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام»[2].

فمن كانت هذه صفاته فهو مقبول القول صادق فيما يقوله.

---

(١) انظر الكشاف جـ ٢ ، ص٣١٣.

(٢) البخارى جـ ٤ ص١٨٤.

٣- قوله ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ ﴾.

ولقد اختلف العلماء في الشاهد هل هو صغير أو كبير على قولين، عن عكرمة عن ابن عباس في أحد قوله: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ قال ذو لحية[1].

و في قول آخر عن ابن عباس: أنه كان صغيراً عن النبي ﷺ «تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم»[2].

و لقد هتف النص القرآني ببراءته فلقد قُدَّ قميصه من دُبُر.

٤- قوله ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ لقد رأى العزيز دليلاً ظاهراً على فجور زوجته وعلى عفة يوسف عليه السلام فقال لامرأته وللنسوة ﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾.

٥- قوله ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ نادى العزيز على يوسف بقوله «أَعْرِضْ عَنْ هَذَا الأمر» وهو طلبها منك واكتمه. واتجه إلى زوجته قائلاً ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ فما أجمل هذا الدليل وهو اعتراف الزوج بخطأ زوجته.

٦- قال تعالى ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٤ ، ص٣١٠.

(٢) المرجع السابق.

مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ ففى الآية الأخيرة تعلن امرأة العزيز أنها راودته عن نفسه وتسوق محمدة ليوسف فتقول لقد رد دعوتى العارية بامتناع وإباء مبالغ فيهما يدل ذلك مبنى ﴿ فَاسْتَعْصَمَ ﴾.

٧- لما دخل يوسف السجن ورأى الملك رؤياه وفسرها يوسف وأتاه رسول الملك ليخرجه من السجن ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

هذا اعتراف وشهادة من النسوة ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ لقد قلن هذا القول تعجباً من عفته وذهابه بنفسه عن الريبة. واعترفت امرأة العزيز فقالت الآن ثبت الحق وظهر ﴿ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ .

درء شبهة:

قال تعالى ﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ .

لقد ذهب بعض العلماء إلى أن القائل ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي

إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ، قالوا إن القائل يوسف والحقيقة أن هذا القول قول امرأة العزيز فلو قلنا إنه يوسف لقطعنا النص عن السياق فالسياق و اللحاق متصلان والأولى والأليق أن يكون من كلام امرأة العزيز. والذين قالوا إنه من كلام يوسف ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ ثم قال على سبيل التواضع ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾. وما أُبَرِّؤُها حين همَّت دون أن تعزم فجنس النفس أمَّارة بالسوء إلا ما رحم ربى. فالأليق أن يكون من كلام امرأة العزيز لأنه ليس هناك ذنب من جانبه حتى يلصق بها ذنباً ولا يبرئ ساحتها.

الأدلة العقلية على براءة يوسف:

أولاً: لقد مدح الله تعالى يوسف بقوله ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ عقب قوله ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾. فهل يليق أن يذنب يوسف هذا الذنب ثم يمدحه الله تعالى بقوله ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾؟.

ثانياً: لو صدرت من يوسف زلة أو هفوة لأتبعها بإظهار الندم والتوبة والاستغفار وكانت الآيات قد ساقت ذلك.

ثالثاً: كل من كان له تعلق بأحداث القصر شهد ببراءته عليه السلام من المعصية.

يوسف عليه السلام نفى التهمة عن نفسه فى أكثر من موطن ونفت النسوة وامرأة العزيز التهمة عنه فى أبلغ عبارات ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي

بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (1).

و قالت امرأة العزيز قبل ذلك وهى تقف بين النسوة ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (2). فقولها ﴿ فَاسَتَعْصَمَ ﴾ الفعل (عصمه يعصمه عصماً: منعه ووقاه)(3)، فمعنى استعصم أى بالغ فى امتناعه والكلمة فيها زيادة بالسين والتاء وزيادة المبنى يدل على زيادة المعنى ويدخل فى امتناع يوسف أنه لم يلتفت إليها ولم تُحرِّك فيه ساكناً من الهم.

معنى الهَمِّ:

و بعد الآيات الدالة على براءة يوسف فإن كلمة «هَمَّ بكذا» معناها (نواه وأراده وعزم عليه) (4). ويتفرع عن هذا تفسيران لقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾.

التفسير الأول:

أن مادة الهمِّ واحدة فى حق امرأة العزيز وفى حق نبى الله يوسف عليه السلام. أما متعلق الهم فمختلف تماماً فامرأة العزيز همت به ليواقعها ويجامعها ونصوص الآيات تفضح همها ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ

(1) سورة يوسف آية 50 ، 51.
(2) سورة يوسف آية 32.
(3) لسان العرب جـ 4 ،ص2997.
(4) لسان العرب جـ 6 ، ص4703.

وقالت هيت لك ﴾ . ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ . وهمُّ يوسف مختلف تماماً عن همها ، وهو الابتعاد عنها ومدحته الآيات بذلك ، قال تعالى ﴿ قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ أي بالغ في امتناعه. ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ . ﴿ واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب ﴾.

أليست هذه النصوص كافية للتفريق بين متعلق هَمِّ امرأة العزيز وهَمِّ نبي الله يوسف؟

بلى: فيوسف نبي ، أو أنه لم يقع هم من يوسف عيه السلام أصلاً ويكون في الآية تقديم وتأخير ، قال أبو حاتم: «و قرأت غريب القرآن على أبي عبيدة فلما أتيت على قوله تعالى ﴿ ولقد همت به وهم بها ﴾ الآية. قال أبو عبيدة هذا على التقديم والتأخير كأنه أراد ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها»[1]. فالوقف على قوله تعالى ﴿ ولقد همت به ﴾.

التفسير الثاني:

أن امرأة العزيز همّت به ويوسف هم بها. بيد أن هم امرأة العزيز معصية لإصرارها عليه وهيأت الأسباب لتحقيقه. وهم يوسف بالمعصية بيد أنه لم يأتها ولم يصر عليها بل سلك سبيل البعد عنها في جريانه والفرار إلى الباب ﴿ واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب ﴾ .

---

(١) تفسير الفخر الرازي جـ ٥ ، ص١٧٧.

وهمُّه ذلك يثبت فحولة الرجولة ليوسف فلم يلبِّ نداء الطبيعة ولم يصغ لهاتف الغريزة فله حسنة ، قال عليه السلام فيما يرويه عن ربه ﷻ « إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ. ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ. وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً... وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً» [1].

ولقد ذهب كثير من المفسرين بأن همَّ يوسف كهمِّ الصائم فى يوم صائف فهو ينظر إلى الماء المبرد فيشتهيه وهذا الاتصال لأن الماء للصائم محرم عليه من طلوع الفجر إلى الغروب وهو مباح ونعمة ، أما الزنا فهو كبيرة ومحرم فى الليل وفى النهار.

قوله تعالى: ﴿ لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ البرهان هو الدليل ولم يبين الله ﷻ البرهان لتذهب النفس فيه كل مذهب، فيحتمل أن يكون ما يمنحه الله من الخوف والخشية منه ولا داعى لما ذهبوا إليه من أنه وجد مكتوباً ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى﴾ أو أنه وجد يعقوب عاضاً على إصبعه أو أن المرأة قامت إلى صنم تغطيه فتذكر الله تعالى وفى هذا بُعد عن الواقع ونصوص الآيات. أو أنه تمثل له يعقوب فضرب صدره فخرجت شهوته من أنامله لا داعى إلى ذكر ذلك.

وقفة تأمل:

عند علماء الحديث لو كان هناك حديث فى سنده راو جرّحه جماعة وعند

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب. والبخارى جـ ٨ ، ص ١٢٨ ، كتاب الدعوات ، باب من هم بحسنة.

جماعة هو عدل وثقة فإنهم يأخذون بالتعديل ويبتعدون عن تجريحه. فالآيات كلها تبعد يوسف وتنأى به في مقام يليق بسلوك الأنبياء قبل مبعثهم وبعد مبعثهم. وأما ما قيل عن الهم وتفسيره فهو من كلام بعض المفسرين واستقوا فكرهم من جداول مترعة بالإسرائيليات.

قوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي أريناه البرهان لنصرف عنه السوء أي الخيانة والفحشاء أي الزنا ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ هذه الجملة مستأنفة معللة لما سبق وهي مؤكدة بإن وإسمية الجملة. والإضافة في عبادنا للتشريف. والمخلصين: جمع مُخلَص: وهو اسم مفعول بمعنى مجتبى: فمعناه: اجتباه واصطفاه.

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

مناسبة الآية بما قبلها:

لقد تحدث الله في الآيات السابقات عن هم امرأة العزيز بيوسف وأتبع في هذه الآيات بما ترتب عن هذا الهم من طلبها له وهروبه منها.

الدلائل على عفة يوسف:

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ أي تبادرا إليه، يوسف للفرار منها خوفاً من المعصية، وامرأة العزيز للتشبث به فأمسكت بثوبه وجذبته إليها ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾ شقت قميصه من الخلف ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾ أي صادفا بعلها عند الباب

﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ «ما»: يحتمل أن تكون نافية، ويكون المعنى ليس جزاؤه إلا السجن. ويجوز أن تكون استفهامية ويكون المعنى: شئ جزاؤه إلا أن يسجن. كما يقال: من فى الدار إلا عمرو ﴿ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ كثير الإيلام.

لطائف:

الأولى: قوله تعالى فى آية سابقة ﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ ﴾ جمع الأبواب وقال تعالى هنا ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ بالإفراد. فلقد جمع الباب لأن المرأة لم تتمكن من المراودة إلا بعد غلق تلك الأبواب.. وأفرد لأن تسابقهما لم يكن إلا عند باب واحد من تلك الأبواب.

الثانية: كان مقتضى قوة الرجولة أن يسبق يوسف المرأة ولا تلحق به فلماذا لحقت به وشقت قميصه؟ إن الذى أعاق يوسف اشتغاله بفتح أحد هذه الأبواب. وثبتت القرينة على براءته من شق ثوبه.

الثالثة: بدأت امرأة العزيز بذكر السجن وأخرت ذكر العذاب لأن المحب لا يسعى إلى إيلام المحبوب.

الرابعة: لم تذكر امرأة العزيز أن يوسف يجب أن يعامل بأحد الأمرين السجن أو العذاب بل ذكرت ذلك ذكراً كلياً صوناً للمحبوب.

دفاع يوسف عن نفسه:

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ ﴾.

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ أى قال يوسف هى راودتنى عن نفسى وإنما قال ذلك لكونها اتهمته فلو آثرت السكوت لسكت يوسف وما تكلم بشئ.

﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ قال الله من أهلها ليكون ذلك أقوى فى نفى التهمة عن يوسف. ولقد اختلف العلماء فى هذا الشاهد إلى اتجاهين:

الأول: أنه كان فى المهد ولقد وردت الأحاديث الصحيحة فى شأن ذلك. روى عن ابن عباس أنه قال: «تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة بنت فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم». ساقه الطبرى فى تفسيره.

و قيل إنه كان كبيراً حكيماً وكان فى ذلك الوقت داخلاً مع الملك فلما رآهما على الحال الذى استبقا فيه الباب وأدركت يوسف وقالت لسيدها ﴿مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فرد يوسف بقوله ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾.

قوله ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴾. هذا القول قول الشاهد ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ﴾ شق من الأمام فصدقت لأنه سيكون هو المقبل عليها وهو المعتدى عليها. ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ أى من الخلف ﴿فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ ﴾ فهى الطالبة له وهو الفار الهارب منها. والتهمة منفية عن يوسف هنا بما يأتى إنه خرج منها هارباً والطالب لا يهرب منيا وكونها متزينة بأكمل الوجوه ومنها شقها للقميص من الخلف.

ظهور الدليل على نفى التهمة:

﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ أى فلما رأى زوجها قميص يوسف شق من الخلف ﴿ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ

﴿ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ الضمير فى قوله «إنه» أى ضمير الحال والشأن. والكيد هو الخداع والمكر ﴿ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ أى إن كيدكن فيما يتعلق بأمر الجماع والشهوة عظيم. وإنما وصف الله ﷻ كيد النساء بالعظم وكيد الشيطان بالضعف لأن كيد النساء أقوى بسبب أنهن حبائل الشيطان فكيدهن مقرون بكيد الشيطان فهما كيدان بخلاف كيد الشيطان فهو كيد واحد.

محاولة وأد الخبر:

﴿ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَا وَاسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الۡخَاطِئِينَ ﴾
كان أول ما فعله العزيز هو التكتم على الخبر حتى لا ينتشر فى مصر فكثيراً ما تدور أحداث وأخبار فى قصور الملوك والرؤساء فإن تسرب شئ منها خارج القصور فالناس تتلقفه ويجعلونه فى سمرهم وأنديتهم وتكثر التفاسير. من أجل هذا قال العزيز ليوسف: ﴿ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَا ﴾ الأمر الذى وقع من سيدة القصر. ثم اتجه إلى زوجته فقال لها ﴿ وَاسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ ﴾ المراد بالذنب الذى طلب منها زوجها الاستغفار منه هو خيانتها لزوجها. فلم يفعل العزيز سوى ذلك لأنه كان قليل الغيرة. ﴿ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الۡخَاطِئِينَ ﴾ أى إنك كنت من الآثمين.

معنى الآيات السابقات

و لما بلغ يوسف الحلم آتاه الله حكمةً وعلماً وفقهاً فى الدين. وذلك قبل أن يبعث نبياً ويقول تعالى وكما جزيناه نجزى المحسنين: الذين أحسنوا أعمالهم وأقوالهم. ولما استقر به المطاف فى قصر العزيز وظهرت نضارة الشباب على محيا

يوسف ومع النضارة الفتوة والقوة ولا غرو فقد منحه الله نصف الجمال ومما لا ريب فيه أن امرأة العزيز فتنت به وأحبته حباً شديداً وتطور هذا إلى أن نداء الفطرة والغريزة يدفعها لتستميل يوسف إليها وطفقت تنسج خيوط شباكها حتى يقع فيها الفتى يوسف فأخذت فى إغرائه. والقرآن يتحدث عن الإغراءات الأخيرة ويسوق الحديث عنها، فيسوق دعوة المرأة ليوسف لتلبية نداء الفطرة وقضاء حاجة غريزتها وهى دعوة سافرة مكشوفة خرجت بها عن طبيعة بنى جنسها فالمرأة تكون دائماً هى المطلوبة. وإن طلبت فإنها تتفنن فى تقديم المعاريض أما امرأة العزيز فقامت بحركة تغليق الأبواب ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ فكان رد يوسف رداً يطفئ نيران هذه الغريزة المتأجحة ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ ثم ذكّرها بنعمة زوجها عليه ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ الذين يتجاوزون حدود الله فيرتكبون ما تدعينني إليه.

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ وهذا تصوير واقعى صادق لحالة النفس البشرية الصالحة فى المقاومة والضعف ثم الاعتصام بالله فى النهاية والنجاة من وحل الرذيلة ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ وآثر التخلص من الموقف فجرى نحو الباب ودفعها هياجها الحيوانى فتعلقت بقميصه من الخلف وهو يجرى فقدّته ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ ويتبدى الكيد العظيم لتجد جواباً حاضراً على السؤال الذى يهتف به المنظر المريب فتتهم الفتى ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا﴾ ويبدو أنها امرأة تعشق فهى تخشى عليه فتسير بالعقاب المأمون ﴿ إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

ويخرج يوسف عن صمته ويجهر بالحقيقة فى وجه الاتهام الباطل ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ ويحسم الموقف أحد أهلها فى هذا النزاع ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ﴾ وظهرت عفة يوسف فلما رأى العزيز قميص يوسف قطع ومزق من الخلف قال: إنه من خداعكن إن كيدكن عظيم. فهى لباقة صدرت فى مواجهة حادث يثير الدم فى العروق. فتلطف فى مجابهة زوجته ونسب الأمر كله إلى الجنس كله. فكان العزيز بارداً ويبدو أن العزيز صنع ذلك حتى لا ينتشر الخبر بدليل أنه قال بعد ذلك ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ .

إنتشار الخبر فى المدينة و آثاره

إنتشار الخبر:

قال تعالى:

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

المباحث العربية

النسوة: اسم جمع لا واحد له من لفظه ولقد اختلف فى عدد النسوة فقيل خمسة. وهن امرأة صاحب الملك، وامرأة صاحب دوابه، وامرأة خبَّازه، وامرأة

ساقيه، وامرأة صاحبة سجنه. وقيل أربعون امرأة، ويجمع بين الرأيين بأن أصل الإشاعة كان من الخمس ثم انتشر حتى وصل إلى الأربعين. والمدينة: هي مصر.

﴿ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ امرأة: مبتدأ، وتراود فتاها عن نفسه خبره. والمراد بالفتى العبد.

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ جملة في محل رفع خبر ثاني ومعنى ﴿قَدْ شَغَفَهَا﴾ الشغاف جلدة رقيقة تحيط بالقلب. والمعنى أن حب يوسف خرق تلك الجلدة ووصل إلى القلب وسكن في القلب. أو أن المعنى أن حب يوسف أحاط بفؤادها كما يحيط الشغاف به. و«حباً» تمييز محوّل عن الفاعل والأصل قد شغف حبه قلبها. ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب ومعنى الضلال المبين: الخطأ البين.

محاولة امرأة العزيز إبداء عذرها

قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) ﴾

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ فلما سمعت امرأة العزيز بغيبة النساء لها. ولقد سميت الغيبة مكراً لأنها تخفى من المغتاب كما يخفى المكر. ولقد أتى النص بالمكر لأنه يجمع الغيبة والخداع، قوله ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾ أى دعتهن وهيأت لهن طعاماً فقوله ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ فلقد أحضرت الطعام والفواكه وسُمّى الطعام متكئاً لأنه يُتّكأ عنده على عادة المتكبرين المترفين. ﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ إنها دعت هؤلاء النسوة وهيأت لكل واحدة مجلساً معيناً وأعطت كل واحدة منهن سكيناً لتقطيع اللحم أو الفاكهة ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ إنها أمرت يوسف أن يخرج عليهن. ولم يخالفها يوسف خوفاً منها حتى لا تلصق له تهمة أخرى ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ لما حرف وجود لوجود أو هى حرف وجوب لوجوب أى أن وجود جملة اقتضى وجود جملة أخرى وقوله ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ﴾ مرتب على محذوف تقديره فخرج فلما رأينه «أكبرنه» أى أعظمنه وهبنه ودهشن عند رؤيته من شدة حسنه فلقد كان جميلاً.

وعن النبى ﷺ قال: «مررت بيوسف عليه السلام ليلة عرج بى إلى السماء فقلت لجبريل عليه السلام من هذا؟، فقال: هذا يوسف فقيل يا رسول الله كيف رأيته؟ قال كالقمر ليلة البدر». وقيل كان يوسف إذا سار فى أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من السماء عليها وقيل كان يشبه آدم يوم خلقه ربه. وهذا القول هو الذى اتفقوا عليه. وعندى أنه يحتمل وجهاً آخر وهو أنهن إنما أكبرنه لأنهن رأين عليه نور النبوة ولا سيما الرسالة وآثار الخضوع والاحتشام وشاهدن منه مهابة النبوة وهيئة الملكية وهى عدم الإلتفات إلى المطعوم والمشروب وعدم الاعتداد بشئ وكان الجمال العظيم مقروناً بتلك الهيبة والهيئة

فتعجبن من تلك الحالة (جرم أكبرنه وعظمنه ودفع الرعب والمهابة منه في قلوبهن وعندى أن حمل الآية على هذا الوجه أولى) [1].

قوله تعالى ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ كناية عن دهشتهن وحيرتهن والسبب في حسن هذه الكناية أن الواحدة منهن لما دهشت فكانت تظن أنها تقطع الفاكهة وكانت تقطع يد نفسها. ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ قرأ أبو عمرو: قلن حاشا لله بإثبات الألف بعد الشين وهى رواية الأصمعى عن نافع وهى الأصل لأنها من المحاشاة وهى التنحية والبعد، والباقون بحذف الألف للتخفيف وكثرة دورها على الألسن إتباعاً للمصحف. وحاشا كلمة تفيد معنى التنزيه، والمعنى هنا تنزيه الله من العجز حيث قدر على خلق جميل مثله. وأما قوله ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ فالتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله[2].

قوله ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ بشراً: خبر ما فهى عاملة عمل ليس فهى ترفع المبتدأ وتنصب الخبر واسم الإشارة اسمها مبنى على السكون فى محل رفع ولقد تحقق فى ما شروطها وهى أن يتقدم الاسم وأن لا يكون مسبوقاً بإن وأن لا تدخل إلا على الخبر ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ هذا أسلوب قصر بالنفى والاستثناء فـ«إن» بمعنى «ما» النافية. والملَك واحد الملائكة وهم خلق من نور لا يوصفون بالذكورة أو الأنوثة فطروا على الطاعة ﴿لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ وهم مطهرون عن بواعث الشهوة وجواذب الغضب ونوازع الفهم والخيال. فطعامهم توحيد الله وشرابهم الثناء على الله. ﴿كَرِيمٌ﴾ من كرم الشئ إذا نفس وعز.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ، ص١٢٤.

(٢) المرجع السابق .

قولـه تعـالى ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾. هذا القول من امرأة العزيز يدل على إبداء عـذره فى حبهـا ليوسـف عليه السلام، فاسم الإشارة للبعيد مع أن يوسف كـان حاضـراً فى المجلـس فاسـم الإشارة يدل على تعظيم يوسف من قبل امرأة العزيز فاسم الإشارة لتعظيم رتبتـه لا لبعده عن المجلس أو لبعد منزلته عن منزلة غيره من البشـر. والمعنـى: فـذلكن الذى لمتننى فى حبـه. ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ﴾ الـلام لام قسـم محـذوف. ولقـد طلبتُ منه ما تريده المرأة من بعلـها ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ فبـالغ فـى امتناعـه ولا يخفـى زيادة المبنى ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ اللام لام القسم و«إن» شرطية وجواب القسـم محـذوف لأن المتقـدم القسـم والشـرط مـا يلـى. والله ليسجنن وإن لم يفعل ما آمره ليسجنن ويكن من الصاغرين. والصـاغرين الـذليلين. ولقد سمعت النسوة الحوار فقلن ليوسف أطع مولاتك.

إيثاره السجن على المعصية

قال تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

المباحث العربية

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ قـال يوسـف داعيـاً ربـه ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ أى دخـول السـجن والمحبـوب دخولـه لا ذاتـه. وأفعـل

التفضيل أحب ليس على بابه لأنه ليس هناك حب للسجن ولا حب لما يدعونه إليه وأحدهما يفضل الآخر. وإنما هذان شران آثر أحدهما وهو السجن وفيه مشقة وترك الآخر مع ما فيه من لذة لأنه يغضب الله ﷻ. قوله ﴿ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ الفعل المضارع مبنى على سكون الواو والنون الأولى نون النسوة والنون الثانية نون الوقاية، فهو مثل النسوة يعفون، فالواو ليست ضميراً بل هى لام الكلمة فليس من الأفعال التى ترفع بالنون. وأضاف الفعل إليهن لأنهن جميعاً دعونه إلى أنفسهن أو لأنهن لما قلن له أطع مولاتك صح إضافة الدعاء إليهن جميعاً.

قوله ﴿أَصْبُ إِلَيْهِن ﴾ صبا صبواً[1] من باب قعد بمعنى مال. والصبوة الميل إلى الهوى ومنه ريح الصبا لأن النفس تستطيبها وتميل إليها. وقوله ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ «وإلا» مكونة من «إن» الشرطية و«لا» النافية، وتصرف فعل الشرط مجزوم وعلامة جزمة السكون. وجواب الشرط «أصب» مجزوم وعلامة جزمه حذف حرف العلة وهو الواو. ﴿ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فعل معطوف على الفعل أصب فهو مجزوم مثله وعلامة جزمه السكون ﴿ مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أى من المذنبين.

ومعنى قول يوسف ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ كأنه ﷺ يقول «اللهم اصرف عنى كيدهن لأجل لا أصير من الجاهلين لأنك إن لم تصرفه عنى صرت منهم إذ لا قدرة لى على الامتناع إلا بإيمانك وإسعافك لى » وإذا سبرنا غور النص وجدنا يوسف قد فزع والتجأ إلى الله ولقد جرى يوسف على سنن الأنبياء والصالحين فى قصر نيل الخيرات والنجاة

---

(١) أنظر المصباح المنير.

عن الشرور على جناب الله وعدم الاعتماد على القدرة الذاتية ولقد فعل يوسف فِعْل المستغيث بالله أدركني يا رب وإلا هلكت.

قوله تعالى ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ فأجاب الله دعاءه فصرف عنه خداع النسوة ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لمن دعاه ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأموره وأحواله، والجملة لا محل لها من الإعراب مستأنفة وهى مؤكدة بـ «إن» واسمية الجملة، وفيها أسلوب قصر بتعريف الطرفين المبتدأ والخبر السميع. وفى الجملة صيغتان من صيغ البلاغة على زنة فعيل.

ظلم ووأد الإشاعة

قال تعالى:

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

المباحث العربية

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم ﴾ ثم ظهر لهم بعد ما عاينوا براءة يوسف بدا لهم سجنه إلى أجل معين وهو سبع سنين وقيل اثنتا عشرة سنة. وقوله ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾. اللام موطئة لقسم محذوف والتقدير. ظهر لهم سجنه حتى يئدوا الخبر ويستأصلوا شأفة الإشاعة فإيداعه السجن يتوارى عن الناس فلا يذكره الناس

بخلاف ظهوره بين الناس ورؤيتهم له. ففاعل بدا يؤخذ من السياق يدل على قوله ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾، والتقدير «بدا لهم سجنه».

معانى الآيات

انتشر الخبر خارج القصر وأصبح حديث نساء مصر بأن امرأة العزيز مفتونة بفتاها بلغ حبه شغاف قلبها وهى السيدة الكبيرة زوج العزيز كيف تفتن بفتاها ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ فلما سمعت بمكرهن أقامت لهن مأدبة فى قصرها اعتدت لهن الوسائد والفرش وقدمت لهن الطعام وآتت كل واحدة منهن سكيناً تستعملها فى الطعام وبينما هن منشغلات بتقطيع اللحم أو تقشير الفاكهة فاجأتهن بيوسف فلما رأينه أكبرنه فبُهِتْنَ لطلّته ودهشن فجرحن أيديهن بالسكاكين. لدهشة المفاجأة وقلن ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ ورأت المرأة أنها انتصرت على نساء طبقتها فقالت ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ ثم تعجبت ولم تعبأ بالجهر بنزواتها الأنثوية ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ .

ويسمع يوسف قولها فى وجود النساء المبهورات المبديات لفاتنهن ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ فأضرع إليك أن تصرف عنى كيدهن فإن لم تصرف عنى كيدهن أقع فى الزلل وأكن من الجاهلين. فأجاب الله دعاءه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع لدعاء من يدعوه عليم بأحواله.

و كعادة أجواء القصور فبعد أن عاينوا الآيات الناطقة ببراءة يوسف وبعد أن تعلن المرأة فى مجمع النسوة دون حياء أنه إن لم يفعل ما يؤمر به يلق

فى السجن. واختار الصِّدِّيق حياة السجن ففيها بُعد عن معصية الله ثم ظهر لهم من بعد ما رأو الآيات ليسجننه حتى حين.

أيام السجن ومعالمها

قال تعالى:

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ (٣٧) ﴾

المباحث العربية

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ ﴾ الفتيان مثنى فتى وهو الشاب الحدث واستعير للعبد المملوك ولقد وردت آراء مختلفة فى اسمهما فقيل كان اسم أحدهما وهو ساقى الملك "سرهم" والآخر وهو صاحب طعامه واسمه "برهم" وسبب سجن الفتيين أن جماعة من أهل مصر أرادوا قتل الملك فجعلوا لهما رشوة على أن يدسا السمّ فى طعامه وشرابه، فأجابا ثم إن الساقى ندم ورجع والخباز قبل الرشوة وسمّ الطعام فلماحضر الطعام بين يدى الملك قال الساقى لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم فقال الخباز لا تشرب أيها الملك فإن الشراب مسموم فقال الملك

للساقى اشرب من الشراب فشرب. وقال للخباز كل من الطعام فأبى فأطعم من ذلك الطعام دابة فهلكت فأمر بحبسهما فاتفق أنهما دخلا مع يوسف السجن ولما دخل يوسف السجن استمال الناس بحسن حديثه وفضله ونبله وكان يسلى حزينهم ويعود مريضهم ويسأل لفقيرهم ويندبهم إلى الخير فأحبه الفتيان ولزماه وأحبه صاحب السجن والقيم عليه وقال له كن فى أى البيوت شئت فقال له يوسف:

(لا تحبنى يرحمك الله فلقد أدخلت إلىّ المحبة مضرات، أحبتنى عمّتى فامتحنت بمحبتها وأحبنى أبى فامتحنت بمحبته وأحبتنى امرأة العزيز فامتحنت بمحبتها، وعن قتادة: كان فى السجن ناس قد انقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يقول: اصبروا تؤجروا إن لهذا لأجراً فقالوا بارك الله عليك ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك لقد بورك لنا فى جوارك فمن أنت يا فتى قال: يوسف بن صفى الله يعقوب) [1]. ولقد رأى كلاهما رؤيةً تعلقت بحاله وبمستقبله قوله ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ وهو ساقى الملك ﴿إنى أرانى﴾ عبر بالمضارع فى قوله ﴿أرانى﴾ مع أن الرؤية وقعت فى الماضى إما لحكاية حال ماضية أو لاستحضار الصورة فى الذهن وأرى تنصب مفعولين الأول الياء وجملة أعصر خمراً هى المفعول الثانى وهى فى محل نصب وقوله ﴿أعصر خمراً﴾ مجاز مرسل علاقته اعتبار ما كان. وقد يكون القول أجْرى على الحقيقة وأن الخمر هو العنب بلغة غسان أو بلغة أهل عمان. وقوله ﴿ وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الآخر: هو خابز الملك والتعبير بالمضارع كالتعبير السابق لقد رأى فوق رأسه ثلاث سلال فيها

---

(١) البحر المحيط جـ٥ ، ص٣٠٨.

الخبز وأنواع الأطعمة المختلفة وسباع الطير تنهش منها. قوله ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي إنا نراك من العالمين بالرؤيا والذين أحسنوا أقوالهم وأفعالهم. فلقد كان يعود المرضى ويقوم الليل ويصوم النهار ويصبر أهل السجن.

قوله ﴿ قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ هذا القول يحتمل وجهين:

الأول: أن المراد إتيان هذا الطعام فى المنام والمعنى أى طعام رأيتماه فى المنام وأخبرتمانى به فسرته لكما قبل أن يقع فى اليقظة ووقع كما أخبرتكما به. وخص يوسف ذكر الطعام دون غيره لأن رؤياهما تتعلق بالطعام. وقول يوسف هذا يدل على أنه يلفت انتباههما إلى أنه يخبرهما بعلم غيبى وهذا من نور النبوة.

الثانى: أن المراد إتيان الطعام فى اليقظة والمعنى لا يأتيكما طعام ترزقانه من منازلكما وتأكلانه إلا نبأتكما بتأويله بقدره وكيفيته والوقت الذى يصل فيه قبل أن يأتيكما أى قبل أن يصل إليكما. وهذا مثل معجزة عيسى عليه السلام، حيث قال ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أوحاه إلىّ وعلمنيه ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ إن هذا الذى أخبرتكما به وحى من الله، قوله ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ ﴿إنى تركت﴾ الترك هو عدم التلبس بالشئ وعدم الالتفات إليه ﴿ملة﴾ أى إنى تركت دين قوم لا يصدّقون بالله وهم بالدار الآخرة جاحدون منكرون.

معنى الآيات

ابتلى يوسف عليه السلام بدخول السجن ودخل معه السجن فى توقيت واحد فتيان ساقى الملك وخابزه واتهما بالمؤامرة على الملك وقتله وأودعا السجن

حتى تجمع الدلائل على العقوبة أو البراءة فرأى الساقى والخباز الرؤيا على يوسف فلقد أخبرهما بأنه رزق تعبير الرؤيا، قال الساقى: إنى أرانى أعصر خمراً وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه أخبرنا يا يوسف بتفسيره. فكشف لهما قبل أن يخبرهما بالتأويل عن أن الذى يخبر به وحىٌ من الله لم ولن يلتبس بشئ من دين القوم وهم أهل مصر فى ذلك الوقت فهم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة منكرون.

إعلان يوسف عن عقيدته

قال تعالى :

﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

مناسبة الآية بما قبلها:

لقد سبق أن قال يوسف ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ فذكر أنه رفض ملة القوم ثم كشف عن ملته فى هذه الآية ليريهما أنه من بيت النبوة بعد أن عرفهما أنه نبى يوحى إليه وهذا ما ذهب إليه بعض العلماء بأنه نُبِّئَ فى السجن وهو دون الأربعين وقيل نُبِّئَ على رأس الأربعين.

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ولقد ذكر ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب لشهرة نبوتهم عند الأمم. وكيف قال واتبعت ملة آبائى إبراهيم وهو نبى والنبى يكون مختصاً بشريعة نفسه؟

والجواب عن ذلك: لعله أراد أنه اتبعهم فى أصول الأديان وهى الدعوة إلى التوحيد وإثبات الرسالة. والعبادة. وإثبات البعث والدعوة إلى مكارم الأخلاق.

﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر هو اسم كان ومن حرف جر مزيد للتوكيد، شئ خبر كان منصوب وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

و معنى الجملة ما كان لنا الشرك بالله شيئاً ووقوع النكرة «شئ» فى سياق النفى «ما» أفاد العموم. ومعناه ما يلى: إن أصناف الشرك كثيرة منها عبادة الأصنام ومنها عبادة النار. ومنها عبادة الكواكب ومنهم من يعبد الحيوان وغيره. فأتت النكرة فى سياق النفى لتفيد عموم الشرك ونفيه ولا ينبغى إلا التوحيد.

﴿ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ ذلك اسم الإشارة مشار به إلى نفى الشرك وحصول الإيمان بالله من فضل الله على المؤمنين. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ وهم الكفرة ﴿لاَ يَشْكُرُونَ﴾ الله ويشركون به.

معنى الآية

يهتبل يوسف فرصة ليعلن عن عقيدته بين السجناء فكونه سجيناً

لا يمنعه من الإعلان عن عقيدته الصالحة القائمة على إعطاء الرب حقه. وعقيدته هى ملة التوحيد الخالص الذى سار على دربها أجداده وأبوه. و الهداية إلى التوحيد فضل من الله على المهتدين. وهو فضل فى متناول الناس جميعاً لو اتجهوا إليه.

وفى رسالات الرسل بيانه وتقريره ولكن أكثر الناس هم الذين لا يعرفون هذا الفضل ولا يشكرون الله تعالى.

مناقشة أهل السجن فى عقيدة الشرك و دحضها

قال تعالى:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٠﴾

مناسبة الآيات لما قبلها:

لما تحدث يوسف عن عقيدته وأنه اتبع ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب شرع فى هذه الآيات فى مناقشة أهل السجن فى عقيدة الشرك التى يعتنقونها فدحضها بالأدلة العقلية ليغرس فيهم عقيدة التوحيد.

قوله ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ﴾ نداء باسم الصحبة فى المكان الشاق الذى تخلص فيه المودة وهذا القول يحتمل أن يكون من باب الإضافة إلى الظرف والمعنى ياصاحبى فى السجن يحمل أن يكون من إضافته إلى السجن كأنه قيل يا ساكنى السجن كأصحاب النار وأصحاب الجنة وجعلهما صاحبى السجن لكثرة الملازمة وطول المكث.

﴿ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ لقد أبرز الاستفهام حتى لا تنفر طباعهما من المفاجأة بالدليل على بطلان عبادتهما. وهذا هو الأوجه فى محاجة الجاهل يؤخذ أولاً بدرجة يسيرة من الاحتجاج فيقبلها فإذا قبلها أخذ إلى درجة أخرى فوقها إلى أن يصل إلى الإذعان بالحق. ولقد أفادت المقابلة فى الأرباب المتفرقين على الواحد المتصف بالقهر التنبيه على أنه تعالى له هذا الوصف الذى معناه الغلبة والقدرة التامة وما سواه عار عن هذا الوصف فالله وحده هو الجدير بالعبادة دون غيره وهل يجوز التفاضل بين الأصنام وبين الله تعالى حتى قال يوسف ﴿ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾لقد خرج الكلام على سبيل الفرض والمعنى لو سلمنا أنه حصل منها خير فهى خير أم الله الواحد القهار ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً ﴾ أى من غير الله فالضمير فيه يعود على الواحد القهار، وهذا أسلوب قصر ﴿سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ المعنى ما تعبدون إلا ألفاظاً أحدثتموها أنتم وآباؤكم فهى فارغة لا مسميات تحتها ولقد ذهب بعض الناس إلى أنهم يعبدون تلك الأصنام لا على سبيل أنها الخالقة الرازقة ولكن على سبيل أن الله أمر بعبادتها فوردت الآية لترد عليهم.

﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ السلطان هو الحجـة وموقعهـا مـن الإعـراب مفعول به منصوب وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد للتوكيد ونكّر ليفيد العموم فهو واقع فى سياق النفى. والمعنى ما أنزل الله أى حجة تؤيد فساد عقولهم فى عبادة غير الله.

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ إن بمعنـى مـا النافيـة وهـذا أسلوب قصـر بـالنفى والاستثناء والمعنى ما الحكم فى العبادة من أمر ونهى إلا لله وحده وليس للأصنام ولا لغيرها من المعبودات التى عبدوها.

قولـه ﴿ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ ألاّ مكونـة مـن أن ولا، و يجـوز أن تكـون مصدرية ناصبة ولا نافية. وتعبدوا فعل مضارع منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة ويجوز أن تكون «أن» مفسرة و«لا» ناهية والفعل المضارع مجزوم وعلامة جزمه حذف النون. وهذا أسلوب قصر. وهو قصـر العبـادة على الله دون غيره.

﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ اسم الإشارة مشار به إلى عبادة الله وحده فهـذا يـدل على أنها فى المنزلة الشريفة العالية ومعنـى القيم الثابـت. ﴿وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ولكن أكثر الناس وهم الكفرة، لا يعلمون: لا يدركون ذلك.

معنى الآيات

لقد دخل يوسف مدخلاً لطيفاً على صاحبيه فدخل خطـوة خطـوة فـى حـذر ولين ثم يتوغل إلى قلبيهما وناقشهما فقال ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ﴾ أآلهـة متفرقـون

لا خير فيهم وعلى سبيل الفرض أنهم فيهم خير فهل هم خير أم الواحد القهار. ثم خاطبهم بقوله: ما تعبدون من غيره إلا ألفاظاً أحدثتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ما الحكم فى أمر العبودية إلا لله والله أمر أن لا يعبد إلا هو وذلك الدين القيم الثابت بيد أن أكثر الناس من الكفرة لا يعلمون.

تأويل يوسف لرؤيا صاحبيه

قال تعالى:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾

مناسبة الآية بما قبلها:

لما ألقى إليهما ما كان أهم وهو أمر الدين رغبة من يوسف فى إيمانهما ناداهما ثانياً لتجتمع أنفسهما لسماع الجواب.

المباحث العربية

قوله ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗا﴾ أما حرف يفيد التفصيل والفاء واقعة فى جواب الشرط المستفاد من «أما»، وكلمة «ربّه» أى سيده والمراد به الملك. ومعنى الجملة أما أحدكما فبعد ثلاثة أيام يخرج ويعمل فى بيت الملك

ويسقى الخمر للملك وأما الآخر فيصلب بعد ثلاثة أيام وتأكل الطير من رأسه ﴿قُضِيَ الأَمْرُ﴾. أى وجب حكم الله عليكما بالذى أخبرتكما به وتم. وأفرد الأمر مع أنهما مختلفان لأن المقصود مفرد وهو الحكم والمعنى قضى الحكم ﴿الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أى الذى سألتما عنه.

معنى الآيات

بدأ يوسف يؤول رؤيا صاحبه فقال أما أحدكما وهو الساقى فيسقى سيده خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه انتهى الأمر الذى فيه تستفتيان.

لطيفة:

لم يكن يوسف قاسياً عندما كشف لهما عن التأويل ولكنه كان صادقاً ومع ذلك لم يحدد لأحدهما أنه سيخدم الملك ويسقيه الخمر ولم يحدد للآخر الصلب بل قال أما أحدكما وأما الآخر دون تعيين.

تطلع يوسف لعرض قضيته على الملك

قال تعالى:

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢)﴾

مناسبة الآية بالآيات السابقة:

لقد سبق فى الآية السابقة أنْ وضّح يوسف الحق للساقى وصاحبه وفى هذه الآية قال للساقى الذى ظن أنه ناج ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ ليتوصل إلى هداية الملك إلى الإيمان بالله تعالى.

المباحث العربية

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا ﴾ فاعل الظن إما أن يكون يوسف ويكون حينئذ معنى الظن اليقين والمعنى وقال للذى أيقن يوسف أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك. وتفسير الظن باليقين لأن يوسف علم تأويل الرؤيا عن طريق الوحى بدليل قوله ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ ، ومثال تفسير الظن باليقين قوله تعالى ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيهْ ﴾ وقوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ويجوز أن يكون الظن الشك ، قال الراغب الأصفهانى[1] : (الظن: اسم لما صحل عن أمارة و متى قويت أدت إلى العلم).

ويحتمل أن يكون فاعل ظن ضميراً مستتراً يعود على الساقى تقديره هو وعند ذلك يكون الظن بخلاف اليقين. وتفسير الظن بخلاف اليقين مع يوسف مستبعد. وقوله ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ أى اذكر مظلمتى عند سيدك.

و لقد تناول هذا النص فريقان: فريق قال: الضمير المفعول به يعود على الناجى فيكون المعنى: أنسى الشيطان الناجى ذِكْرَ يوسف لربه.

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص٣١٧.

وذلك بما يوسوس إليه من اشتغاله حتى يذهل عما قال له يوسف، لما أراد الله بيوسف إجزال أجره بطول مقامه فى السجن.

وفريق آخر قال: الضمير يعود على يوسف: والمعنى: أن الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه حتى ابتغى الفرج من غيره واستعان بمخلوق مثله وذلك غفلة عرضت ليوسف عليه السلام فإن الاستعانة بالمخلوق فى دفع الضرر وإن كانت جائزة إلا أن يوسف نبى والنبوة أعلى المقامات ورتبتها أعلى المراتب ويوسف مؤاخذ بهذا القدر، فحسنات الأبرار سيئات المقربين والرأى الأول هو الصحيح وهو الأولى فعود الضمير على الساقى الناجى لأمرين:

الأول: إن أقرب مذكور للضمير هو ﴿ناج منهما﴾ فى قوله ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ .

الثانى: كيف نقول على نبى إن الشيطان أنساه ذكر ربه. هناك الرأى الأول يسمو بيوسف فى وجاهة عظيمة.

﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ فمكث يوسف فى غياهب السجن بضع سنين وكلمة بضع بكسر الباء وبعض العرب يفتحها استعماله فى العدد من الثلاثة إلى التسعة أى أنها تدل على العدد من ثلاثة إلى تسعة ولها حكم العدد من الثلاثة إلى التسعة فى الإفراد والتركيب أى أنها تذكَّر مع المعدود المؤنث فقوله فى الفصل بضع فتيات. وتؤنث مع المعدود المذكر فتقول بثت الإذاعة بضعة برامج — وهنا ذكرت مع المعدود المؤنث سنة. والمدة التى لبثها يوسف هى سبع سنين وقيل ثلاث سنين.

معنى الآية

وقال يوسف للذى أيقن أنه ينجو من السجن والقتل اذكر حال وحقيقتى عند سيدك الذى تقوم بخدمته ونسى الناجى ذكر ربه فى زحمة حياة القصر وملهياتها فمكث يوسف فى السجن بضع سنين.

رؤيا الملك فتح لباب الفرج

قال تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَـٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَـٰتٍ ۖ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَـٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَـٰمِ بِعَـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

مناسبة الآية بما قبلها:

لقد سبق أن تحدثت الاية السابقة عن قول يوسف للناجى ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ ثم تحدثت هذه الآية الأولى عن دُنُو الفرج الذى يقطع أيام السجن برؤيا الملك فرؤياه كانت فرجاً.

المباحث العربية

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ هو ملك مصر وهو الريان بن الوليد ﴿إِنِّي أَرَى﴾ التعبير بالمضارع لأمرين: إما لحكاية حال ماضية، وإما لاستحضار الصورة فى الذهن

﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ العجاف جمع عجفاء وهى الهزيلة وجمع عجفاء عُجْف بضم العين وسكون الجيم. ولكن الجمع أتى مخالفاً للقياس لأنه حمل على سمان لأنه نقيضه وقد يحمل النقيض على النقيض كما يحمل النظير على النظير.

﴿وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ التقسيم السابق فى البقرات نقيض التقسيم فى السنبلات. وحذف العدد من قوله ﴿وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ لدلالة قسيمه عليه وهو ﴿وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾ دلالة ما قبله عليه أيضاً ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

الملأ هم أشراف دولته وأعيانها الذين يحضرون مجلسه ﴿أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ بينوا لى غموض رؤياى ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ إن حرف شرط يجزم فعلين الأول فعل الشرط والثانى جوابه وجزاؤه. و«كان» فعل ماض مبنى على السكون لاتصاله بتاء الضمير وهو فى محل جزم فعل الشرط وجواب الشرط محذوف تقديره: إن كنتم للرويا تعبرون فأفتونى.

﴿تَعْبُرُونَ﴾ عبارة الرؤيا مأخوذة من عبر النهر إذا جازه من شط إلى شط فكأن عابر الرؤيا ينتهى إلى آخر تأويلها وعَبَرَ الرؤيا بالتخفيف ثلاثياً هو المشهور وأنكر بعضهم تشديد الباء.

﴿قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ أضغاث جمع ضغث بكسر الضاد وسكون الغين. ومعناها بالجمع أخلاط. وأحلام جمع حُلم بضم أوله وسكون ثانيه ويجوز ضمه. وجمعوا أضغاث وأحلام للمبالغة فى وصف الحلم

بـالبطلان أو لتضـمُّنه أشـياء مختلفـة. ويريـدون بـالأحلام النامـات الباطلـة ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ مـا نافيـة وهـى تعمـل عمـل لـيس وخبرهـا بعالمين والباء فيه حرف زيد للتوكيد ولا يخفى المعنـى الـذى يترتـب علـى وقـوع النكرة عالمين فى سياق النفـى وهـو العمـوم فنفـيهم العلـم بتأويـل الرؤيـا مطلقـاً أو المراد بعموم نفيهم العلم بتأويل الأضغاث. وما نحن بتفسير الأحلام بعالمين.

معنى الآيات

دنا الفـرج وفـتح بابـه برؤيـا رآهـا الملـك ، فلقـد رأى سـبع بقـرات سمـان يبتلعهن سبع هـزيلات ، ورأى سـبع سـنبلات خضـر وسـبعاً أخـر يابسـات قـد استحصدن فالتوت اليابسات على الخضر حتى علون عليهن ولم يبق من خضرتهن شئ، فقلق الملك واضطرب مما رأى من استيلاء الضعيف على القـوى فقـصَّ مـا رآه على حاشيته من الكهنة وغيرهم فقالوا أخـلاط أحـلام ومـا نحـن بتأويـل الأحـلام بعالمين. وسمع الذى نجا من السجن والقتـل برؤيـا الملـك وتـذكر يوسـف وتأويلـه للرؤى. فقال لهم جميعاً أنا أخبركم بتفسيره فأرسلون.

الناجى يدل على يوسف

قال تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) ﴾

مناسبة الآيات لما قبلها:

لقد تحدثت الآيات السابقة عن طلب الملك من الملأ تفسير رؤياه وشق على الملأ التأويل وفى هذه الآيات يتذكر الناجى يوسف بعد أن علم عجز الملأ عن تفسير الرؤيا فقال أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون.

المباحث العربية

قوله ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ جملة «وادكر» إما حال من اسم الموصول أو الواو حرف عطف والفعل ادّكر معطوف على الفعل نجا. فيكون من عطف الجمل حيث عطفت الجملة الفعلية بفاعلها «وادّكر» على جملة نجا.

«وادّكر» أصله «اذتكر» بتاء بعد الذال وقلبت التاء دالاً فاجتمع متقاربان بأن أبدل الول من جنس الثانى وأدغم فيه وصارت وادكر. قوله ﴿ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ لفظ مشترك بين معان عدة فتطلق الكلمة على العالِم وحيد دهره المنفرد بعلمه كما فى قوله تعالى ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وتطلق ويراد بها أشياع النبى المعتنقون لدينه ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾. وتطلق ويراد بها الحين كما فى الآية التى نحن بصددها. والمدة التى أُنسيها الناجى قيل سنتان أو سبع سنين أو تسع سنين.

﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ أنا أخبركم بتفسيره والضمير المضاف إلى تأويل ذكر ليعود على الحلم «فأرسلون» جمع مع أن الذى يرسله واحد للتعظيم. وفى الكلام إيجاز بالحذف والتقدير فأرسلوه فأتى يوسف فقال، فالمحذوف

ثلاث جمل ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

و ناداه بقوله يوسف أيها الصديق أى كثير الصدق ولقد قال له الناجى ذلك لأنه جربه فى السجن فى تعبير الرؤيا وغيره ﴿ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ على رجائى أن أرجع إلى «الناس» أى الملك وأصحابه.

﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ لكى يعلموا أو على رجائهم أن يعلموا. ومعنى العلم إدراك حقيقة الشئ والمعنى لكى يدركوا حقيقة الرؤيا.

لطيفة:

لقد علَّم الناجى الناس الأدب فى النداء ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾. وعلم الناس الأمانة والدقة فى نقل الحديث وهو أنه نقل كلام الملك فى رؤياه دون زيادة أو نقصان لأنه يطلب تأويله فكان دقيقاً فى نقلها وليجئ التأويل ملاصقاً فى السياق لذكرها.

المباحث العربية

و قال الناجى بعد أن تذكَّر يوسف الذى كان يعبِّر الرؤيا لهم فلقد سقط من ذاكرته مُدة من الزمن قال أنا أخبركم بتفسير حلم الملك فابعثونى فأتى يوسف فقال له يا يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لكى يدركوا حقيقة الرؤيا.

تأويل يوسف لرؤيا الملك

قال تعالى:

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

مناسبة الآيات بما قبلها:

لما انتهت الآية السابقة بقول الناجى ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ إلى آخر الآيات، فالناجى قص رؤيا الملك على يوسف وطفق يوسف يفسِّرها.

المباحث العربية

قوله تعالى ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ هذا أسلوب خبرى يُراد به الأمر، وخرج الأمر فى صورة الخبر للمبالغة فى إنجاز المأمورية، والمعنى ازرعوا سبع سنين، ﴿ دَأَبًا﴾ مصدر وقع موقع الحال ومعناه متتابعة. وهى تأويل السبع السمان.

﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ فما حصدتم أى فالذى حصدتموه فدعوه فى سنبله لئلا يفسد فلا يأكله السوس كما هو شأن غلال مصر ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ إلا قليلاً مما حصدتموه فادخروه للطعام ولا تتركوه فى سنبله.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ اسم الإشارة مشار به إلى السبع المخصبات و ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ السبع المجدبات الصعاب وهى تأويل السبع العجاف ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ يأكلن أى السبع الشداد يأكلن الذى قدمتم لهن من الحب المزروع فى السنين المخصبات والمعنى تأكلونه فيهن ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ إلا قليلاً من الذى تدخرون ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أى من بعد السنوات المجدبات ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ عام فاعل يأتى ﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ يغاث إما من الغوث وهو الفرج وزوال الكرب أو من الغيث وهو المطر والمعنى فيه يزول كرب الناس ويفرج عنهم بنزول المطر وتتابع الخير عليهم وفى هذا العام يعصرون الأعناب وغيرها.

لطائف:

تضمن كلام يوسف ثلاثة أنواع من القول:

أحدها : تعبير بالمعنى لا باللفظ.

والثانى: عَرْضُ رأى وأمْرٌ به وذلك فى موطنين: «تزرعون» وأمرَ به على سبيل المراد من الأسلوب الخبرى، والعرض الثانى «فذروه فى سنبله».

و الثالث: الإعلام بأمر غيبى ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ فلقد عَرَضَ وفسَّر وعالج، وهذا يوحى بأن الله أراد بأهل مصر خيراً،

فلقد قيّضه الله لأن يقوم بحلول مشاكل أرض الكنانة فى السنوات العجاف. وهذا من منن الله على هذا البلد.

ومن جهة أخرى لقد أشار الرسول ﷺ إلى قسوة هذه السنوات العجاف روى البخارى أن رسول الله ﷺ كان يدعو فيقول (اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف)

معنى الآيات

لقد أوّل يوسف الرؤيا وليس التأويل المباشر المجرد إنما هو التأويل والنصح بمواجهة العواقب وهذا أكمل، قال: ازرعوا سبع سنين متتالية وهى السنوات السبع السمان المرموز لها بالبقرات السمان فما حصدتم فاتركوه فى سنابله لأنه يحفظه إلا قليلاً منه فجردوه من سنابله لتأكلوه واحتفظوا بالبقية للسنوات الأخرى المجدبة المرموز لها بالبقرات العجاف وهى السبع الشداد التى لا زرع فيها ولا خير وكأن السنوات العجاف هى التى تأكل بذاتها كل ما يقدم لها لشدة نهمها وجوعها فإذا انقضت السنوات العجاف والتى أتت على ما ادخروا من سنوات الخصب يعقبها الخير عام فيه يغاث الناس بالزرع والماء والضرع وتنمو كرومهم، وسمسمهم وزيتونهم فيعصرونهما زيتاً.

يوسف يبرهن على براءة نفسه

قال تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ

ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّـٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ٥١ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢

۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾

مناسبة الآيات بما قبلها:

تحدثت الآيات السابقة عن تأويل يوسف لرؤية الملك فلما سمع الملك التأويل من الناجي واستحسنه قال ائتوني به وهو ما تحدثت عنه هذه الآيات.

المباحث العربية

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ الضمير عائد على يوسف والرسول هو الناجي أو غيره بعد أن دلَّه الناجي. فأتى الرسول إليه قائلاً أجب الملك. فأبى يوسف أن يخرج من السجن إلا بعد إن ينكشف أمره على أهل مصر وتزول التهمة الكاذبة ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾.

وهذا سلوك مدحه الرسول ﷺ في يوسف قال عليه السلام «يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم أتاني الداعي لأجبته»[1].

(١) رواه البخاري.

﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ أى ارجع إلى سيدك ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ أى فسل الملك بأن يسأل ما شأن تلك النسوة وما حالهن. ليعلم براءتى من تلك التهمة والمراد بالنسوة اللاتى قطّعن أيديهن اللاتى حضرن وليمة امرأة العزيز وقطّعن أيديهن حين أطل عليهن يوسف عليه السلام.

﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ تفسير الرب يحتمل أمرين: الأول: أن المراد به الله ﷻ فهو العالم بخفيات الأمور ومنها كيد النساء. الثانى: أن المراد بالرب هو العزيز وجعله يوسف رباً له لكونه مربياً والمراد بكيد النساء فى حق يوسف يحتمل وجوهاً:

١- أن كل واحدة من النسوة ربما طمعت فيه فلما لم تجد المطلوب أخذت فى نسبته إلى القبح.

٢- لعل كلّ واحدة منهن بالغت فى ترغيب يوسف فى موافقة سيدته على مرادها وهذا كيد.

٣- أو أن المراد من كيدهن أنهن قبحن يوسف عند الملك.

قوله تعالى ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ فى الكلام مجاز بالحذف تقديره فرجع إليه الرسول فأخبره بما قال يوسف فجمع الملك النسوة وامرأة العزيز وقال لهن: ما حالكن إذ راودتن يوسف عن نفسه «إذ» ظرف بمعنى الوقت، راودتن أى طلبتن منه فعل شئ ولقد نزه الملك يوسف عن كل قبيح فقال ﴿إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ لأمرين:

١- أنَّ مفسر هذه الرؤيا صاحب حكمة وصاحب مكارم الأخلاق. وأن هذا التفسير يكشف عن أمر غيبي يتعلق بالمستقبل ولا ينبئ عن ذلك إلا نبي فهو منزه عن القبيح.

٢- يجوز أن يكون قد عرف عفة يوسف من أحد حاشيته.

قوله ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ لقد سبق معنى حاش لله، ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ قال ابن عطية: «أجاب النسوة بجواب جيد تظهر فيه براءة أنفسهن جملة وأعطين يوسف بعض البراءة»[1].

وأقول: لقد نفى النسوة أي سوء عن يوسف في قولهن ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ والمعنى: تنزيهاً لله عن العجز حيث خلق مثل يوسف ولقد بالغن في إتمام هذا المعنى حين قلن ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ و﴿ سُوءٍ﴾ نكرة ومن حرف جر مزيد للتوكيد. ووقوع النكرة في سياق النفي يفيد العموم وليس معنى حرف الجر﴿مِن﴾ التبعيض. وهذا أنسب وأولى مما ذهب إليه ابن عطية.

﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ﴾ ما أشجع هذه المرأة التي استيقظ ضميرها وأعلنت عفة يوسف واعترفت بأنها هي التي راودته عن نفسه وآثرت كلمة ﴿ حَصْحَصَ ﴾ على «وضح» أو «بان» للمبالغة في الوضوح حيث إن وضح أو بان فعل ثلاثي وحصحص فعل رباعي وزيادة المبنى يدل على زيادة المعنى ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ حيث نفى التهمة عن نفسه قائلاً ﴿هي راودتني عن نفسي﴾ ولقد أكدت كلامها بمؤكدات هي:

---

(١) البحر المحيط جـ ، ص٣١٧.

١- إن ٢- أسمية الجملة

٣- لام التوكيد التى دخلت على حرف الجر. والصدق هو مطابقة الخبر للواقع.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ هذا الكلام كلام امرأة العزيز فما زال حديثها ممتداً وذهب كثير من المفسرين إلى أنه من كلام يوسف ومعناه أى طلب البراءة ليعلم العزيز أنى لم أخنه فى أهله وحيث لم يطلع على ذلك أحد إلا الله.

و الذى أراه: أن الكلام من قوله تعالى ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾ إلى نهاية قوله تعالى ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هو أولى أن نرده إلى امرأة العزيز فإن ألفاظ النصوص تهتف بأنها من كلامها وأيضاً ما كان هذا المقام مقام يوسف فيوسف كان لا يزال فى سجنه والدليل على ذلك أنه بعد أن قالت تلك النصوص قال الله تعالى ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ .

وقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ الملك أنى لم أخن العزيز بالغيب. أو ذلك ليعلم العزيز أنى لم أخنه فى الخفاء ﴿بِالْغَيْبِ﴾ جار ومجرور حال. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ جمع خائن والخائن هو الذى لم يحفظ ما اؤتمن عليه. ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ والذين ذهبوا إلى أن الآيتين السابقتين هما من قول يوسف قالوا عن الآية الثانية قال يوسف ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ على سبيل التواضع والأولى كما سبق أنها من جملة كلام امرأة العزيز.

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ هذا اعتذار عما وقع من امرأة العزيز من مراودة يوسف عن نفسه فهذا مما يقع فيه البشر من الشهوات والنفوس مائلة إلى الشهوات أمارة بالسوء ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ﴾ .

هذه جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب مؤكدة بإن واسمية الجملة واللام و ﴿أَمَّارَةٌ﴾ كثيرة الأمر «بالسوء» بما يسوء الإنسان من الأفعال القبيحة ﴿إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي﴾ ما موصولة والتقدير إلا من رحم ربى. والتقدير إلا الذى رحمه ربى والنفس الأمارة بالسوء (هى أن النفس الإنسانية واحدة، ولها صفات منها الأمارة بالسوء ومنها اللوامة ومنها المطمئنة فهذه الثلاث مراتب هى صفات لنفس واحدة. فإذا دعت النفس إلى شهواتها ومالت إليها فهى النفس الأمارة بالسوء، فإذا فعلها أتت النفس اللوامة ولامتها على ذلك الفعل القبيح من ارتكاب الشهوات فتحصل عند ذلك الندامة على ذلك القبيح وهذا من صفات النفس المطمئنة)[1].

قوله ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذه جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب والأساليب البلاغية فيها التوكيد واسمية الجملة وصيغتا المبالغة فعول وفعيل. أى كثير المغفرة كثير الرحمة.

معنى الآيات

حمل الناجى تفسير الرؤيا من يوسف وأداها للملك وبطانته فبهر بها فقال ائتونى به فلما جاءه رسول الملك قال ارجع إلى ربك فاسأله يسأل النسوة، ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم. لقد رد يوسف الأمر

---

(١) الفتوحات الإلهية جـ ٢ ، ص٤٦٠.

للملك وهو السجين المتعطش للحرية وحتى يستوثق ويتحقق الملك من شأن النسوة ولقد فعل ذلك لأنه واثق من نفسه واثق من براءته مطمئن إلى أن الحق لا يخفى طويلاً ولا يخذل طويلاً. وأحضر الملك النسوة يستجوبهن وقد استقصى الملك هذا الأمر فعلمه فقال ما شأنكن إذ راودتن يوسف عن نفسه وأمام هذا الاتهام من الملك يبدو أنه لم يكن هنالك مجال للإنكار فتشجعت امرأة العزيز وأعلنت أن الحق ظهرت أماراته وأنها هي التي راودت يوسف عن نفسه وإنه لمن الصادقين وهذه شهادة كاملة بنظافة وبراءة يوسف، فلم تبال المرأة بما وراءها مما يلم بها (ذلك ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ولست أبرئ نفسي من تهمة مراودة يوسف فهذه رغبة بشرية وإن النفس لأمارة بالسوء إلا الأنفس التي رحمها ربها والله غفور للمذنبين التائبين رحيم بهم).

لطائف:

لقد أقرت امرأة العزيز بأنها التي راودت يوسف عن نفسه لواحد من هذه الحوافز الثلاثة:

١- لقد لاحت في الأفق أن الجريمة لم تقع واعترفت النسوة على أن يوسف لم يقع منه سوء ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ ويوسف اعترف بأنه لم يقع منه شئ فالجريمة لم تقع وقالت امرأة العزيز ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ فالمراودة تغفر لها بخلاف جريمة الزنا.

٢- لقد أقرت امرأة العزيز لحرصها على أن يحترمها يوسف المؤمن الذى لم يعبأ بفتنتها الجسدية ويظل احترامه لها كسيدة القصر.

٣- شجاعتها على الاعتراف بعد أن أحست بظلم يوسف فاستيقظ ضميرها. ولم تعبأ بما وراء اعترافها شجاعة منها.

قال تعالى :

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

مناسبة الآيات بما قبلها:

لقد ساقت الآيات السابقة حديث النسوة عن يوسف بقولهن ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ وأقرت امرأة العزيز بأنها هى التى راودته عن نفسه وأنه لمن الصادقين. فلقد رأى الملك فيه الصدق ورأى فيه الأمانة على الأعراض، فالأمانة على الأعراض أندر من الأمانة على الأموال وغيرها ثم تحدثت هذه الآيات عن اختيار الملك له لهذه الأمانة ولعلمه فقال ﴿ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾.

المباحث العربية

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ ، أستخلصه: الاستخلاص طلب خلوص الشئ من جميع شوائب الاشتراك أى أجعله خالصاً لى دون شريك

فجاءه الرسول وقال أجب الملك فقام وودَّع أهل السجن. وأستخلصه فعل مضارع مجزوم لوقوعه في جواب الأمر إئتوني. وإنما طلب الملك أن يستخلص يوسف لنفسه لأن عادة الملوك أن ينفردوا بالأشياء الثمينة فعلم أن يوسف يجمع الكمالات الإنسانية.

﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ هذه العبارة تدل على سمو يوسف على الملك فلقد بدأ الملك بالحديث على خلاف المعهود من ملوك ورؤساء البشر. فإنهم الذين يبدأون بالكلام. (روى أن الرسول جاءه فقال: أجب الملك، فخرج من السجن ودعا لأهله: اللهم عطِّف عليهم قلوب الأخيار ولا تعم عليهم الأخبار فهم أعلم الناس بالأخبار في الواقعات. وكتب على باب السجن هذه منازل البلوى وقبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثياباً جدداً فلما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بك بعزتك وقدرتك من شره ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية فقال ما هذا اللسان فقال لسان آبائي وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً فكلمه بها فأجابه بجميعها فتعجب منه وقال أيها الصديق إني أحب أن أسمع رؤياي منك) [1].

﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ مكين أمين أى ذو مكانة وأمانة. وكلمة «الدينا» تدل على قرب يوسف من الملك ولا يفوته حضور مجلس من مجالس الملك لأن معنى الكلمة لدى ظرف مكان بمعنى عند ولا يستعمل إلا في الحاضر.

---

(١) البحر المحيط جـ ٥ ، ص٣١٩.

و لقد اشتملت الجملة على التوكيد بإن واسميته الجملة واشتملت على كلمتين على وزن فعيل صيغة مبالغة.

﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ أى اجعلني على خزائن الطعام والأموال. والمراد بالأرض أرض مصر فتكون «أل» للعهد وليست للجنس. ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ هذه الجملة لا محل لها من الإعراب مستأنفة وهي مؤكدة بإن واسمية الجملة وفيها صيغتا مبالغة ومعنى حفيظ أى حفيظ للخزائن عليم بوجوه مصالحها وقيل إن معنى حفيظ عليم أى إنى حاسب كاتب، وقيل حفيظ لما استودعتنى عليم لما وليتنى. وقيل حفيظ للحساب عليم بلغة كل من يأتينى.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ وكإنعامنا على يوسف بالخلاص من السجن له فى أرض مصر ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا ﴾ جملة فى محل نصب حال من يوسف ومعناها يسكن ويتمكن من أى جزء من أرض مصر ﴿ حَيْثُ يَشَاءُ ﴾ حيث يريد.

﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ﴾ نمن ونخص بفضلنا على من نريد من عبادنا ومن الفضل النبوة. ﴿وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ولا نضيع جزاء المحسنين الذين أحسنوا أقوالهم وأفعالهم، أو ولا نضيع جزاء الذين يعبدون الله كأنهم يرونه. ﴿وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ اللام جواب قسم محذوف والتقدير والله لأجر. والأجر الجزاء والآخرة مؤنث الآخر والمراد بها الدار الآخرة يوم القيامة. ولأجر الآخرة أعظم. ﴿ لِّلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ هم المحسنون السابقون فى قوله ﴿وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ و أظهر فى موضع الإضمار وكان السياق يقضى

ولأجر الآخرة خير لهم ولقد أفاد الإظهار إضافة وصف الإيمان إلى الإحسان. ﴿آمَنُوا﴾ صدقوا بقلوبهم ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ عبّر بالمضارع ليدل على التجدد والحدوث ومعنى يتقون يجعلون بينهم وبين عذاب الله وقاية.

لطائف:

الأولى: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ ﴾ لقد بدأ الملك بقوله ﴿ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ ليت الذين يطلبون السلطة الذين يركعون على أقدام الحكام ويتهافتون على نظرة رضى وكلمة ثناء، يا ليتهم يعرفون أن الكرامة والإباء والاعتزاز أعظم من التزلف والانحناء لأن المناصب لن تدوم وأنهم لا محالة هالكون فهذا يوسف.

الثانية: لقد طلب يوسف الإمارة حين قال للملك ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ والرسول ﷺ: نهى عن طلب الإمارة فلقد صح عن عبد الرحمن بن سمرة قال قال رسول الله ﷺ: «لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها عن مسألة وُكِّلت إليها وإن أعطيتها من غير مسألة أُعِنْت عليها» أخرجاه في الصحيحين.

و الجواب على ذلك: إنما يكره طلب الإمارة إذا لم يتعين عليه طلبها، فإذا تعيّن عليه طلبها وجب ذلك عليه ولا كراهة في ذلك فأما يوسف عليه السلام فكان واجباً عليه الإمارة لأنه مرسل من الله والرسول أعلم بمصالح الأمة من غيره. وقد علم يوسف عن طريق الوحي بأنه يتولى خزائن مصر فطلبها.

الثالثة: ما مصير امرأة العزيز بعد اعترافها، قال محمد بن إسحاق لما قال يوسف للملك ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ قال الملك قد فعلت. فولاه فيما ذكر أعمال أطفير وعزل إطفير عما كان عليه.

يقول الله ﷻ ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (قال: فذكر لى والله أعلم أن إطفير هلك فى تلك الليالى وأن الملك الريان بن الوليد زوج يوسف امرأة إطفير: راعيل وأنها حين دخلت عليه قال أليس هذا خيراً مما كنت تريدين؟ قال: فيزعمون أنها قالت: أيها الصدّيق لا تلمنى فإنى كنت امرأة كما ترى حسناء جميلة ناعمة فى ملك ودنيا وكان صاحبى - زوجى - لا يأتى النساء وكنت كما جعلك الله فى حسنك وهيئتك على ما رأيت. فيزعمون أنه وجدها عذراء فأصابها فولدت له رجلين أفرآيم بن يوسف وميشا بن يوسف وولد لإفرآيم نون والد يوشع بن نون ورحمة امرأة أيوب عليه السلام. وقال الفضيل بن عياض: وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق حتى مر يوسف فقالت الحمد لله الذى جعل العبيد ملوكاً بطاعته والملوك عبيداً بمعصيته)[1].

معنى الآيات

و قال الملك ائتونى به أجعله مستشاراً خالصاً لى دون أى عمل آخر. فلما كلمه يوسف قال له الملك إنك اليوم عندنا ذو مكانة وأمانة ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ولم يطلب يوسف هذا لشخصه بل أراد أن

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ، ص٣٢١.

يضطلع بالواجب المرهق الثقيل ذى التبعة الضخمة فى أوقات الأزمة المقبلة وليكون مسئولاً عن إطعام شعب كامل وشعوب ستأتى إلى مصر فى أوقات سيعصف بها القحط والجدب.

ومثل إنعامنا على يوسف بالخلاص من السجن مكنا له فى الأرض ينزل فى أى بقعة من بقاعها حيث يشاء فالله يختص بفضله ما يشاء من عباده ولا يضيع جزاء المحسنين الذين أحسنوا أقوالهم وأفعالهم. ولجزاء الآخرة لهم أعظم.

لقاء يوسف بإخوته

قال تعالى :

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

مناسبة الآيات بما قبلها:

لقد تحدثت الآيات السابقة عن تمكين الله ليوسف فى أرض مصر وملك خزائن أرضها وعم القحط البلاد وأصاب البلاد المجاورة تحدثت هذه الآيات عن مجئ إخوة يوسف إلى مصر يريدون الطعام بثمنه فدخلوا على يوسف عليه السلام.

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾ جاءوا إلى مصر إلا بنيامين. ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ دخلوا على يوسف وكان من دأب يوسف أنـه إذا وصل إلى بابـه من البلاد البعيدة جماعات تفحصـهم فظهـر لـه أنهـم إخوتـه فعـرفهم ﴿وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ لا يعرفونه وسر عدم معرفتهم ما يأتي:

١- أنهم حين ألقوه في الجب كان صغيراً ثم أنهم رأوه بعد وفور اللحيـة وتغـير الزى والهيئة ووجوده فى كوكبة حكام مصر وهو على السرير وعلى رأسه التاج.
٢- العرفان والتذكير يكونان من الله فلعل الله لم يخلق فيهم العرفان والتذكير.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ ولما إذا دخلت على الفعل الماضى للعلماء فيها رأيان: الأول أنها حرف وجود لوجود أى أنها تقتضـى جملتين وجدت الثانية عند وجود الأولى.

و نهب جماعـة إلى أنهـا حينئـذ ظـرف بمعنـى حـين، ومعنـى ﴿جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ هيأ لهم الطعام. ﴿قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ فى الكـلام حـذف تقديره وقد كان استوضح منهم أنهم لهم أخ قعد عند أبيهم (روى أنه لما عـرفهم أراد أن يخبرهم بجميع أمرهم فباحثهم بأن قال لهم ترجمانـه أظـنكم جواسـيس فاحتاجوا إلى التعريف بأنفسهم فقالوا نحن أبنـاء رجـل صـديق وكنـا اثنـى عشـر رجلاً ذهب منا واحد فـى البريـة وبقـى أصـغرنا عنـد أبينـا وجئنـا نحـن للمـيرة – أى للطعام –)[١].

---

(١) البحر المحيط جـ ، ص٣٢٩.

﴿ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ لقد قال يوسف ﴿ بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ ولم يقل ائتونى بأخيكم من أبيكم لقد قال قوله زيادة فى إيهامهم فى عدم معرفته بهم ومبالغة فى التعمية عليهم. وتجد الفرق فى هذين القولين مررت بغلامك ومررت بغلام لك. فإن القول الأول يقتضى أن عندك كثير معرفة بالغلام وأن القول الثانى يقتضى عدم المعرفة الكثيرة بالغلام.

﴿ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ غرض يوسف من هذا القول الترغيب فى عودتهم مرة أخرى فتكون «ألا» للتحضيض والعرض. ومن معانيها أيضاً التنبيه.

﴿ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ ﴾ أى أتمه من غير بخس ولا نقص ﴿ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ أى خير من يكرم الضيفان ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ ﴾ وهدف يوسف من قوله هذا هو الترهيب وجواب الشرط «إن» قوله ﴿فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي ﴾ واقترنت جملة الجواب بالفاء لأنها صدرت بحرف نفى والمراد بقوله «فلا كيل» أى فلا طعام لكم عندى. وهذا نهاية التخويف لأنهم محتاجون إلى الطعام. ﴿وَلاَ تَقْرَبُونِ﴾ «لا» ناهية. والمعنى ولا تدنوا من بلادى ولا تدخلوها. والفعل مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة وهذه النون المثبتة هى نون الوقاية وحذفت ياء المتكلم على سبيل التخفيف، وأصل الفعل «تقربوننى» فالنون الأولى نون الفعل وهى المحذوفة للجزم والنون الثانية نون الوقاية وحذفت ياء المتكلم تخفيفاً.

﴿قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ السين للاستقبال ومعنى ﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ﴾ سنجتهد فى طلبه منه ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ هذه الجملة مؤكدة

لجملة ﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا﴾ وهى مؤكدة بمؤكدات إنَّ، وإسمية الجملة، واللام.
ومعناها وإنا لفاعلون ما فى وسعنا من الاجتهاد وفى طلبه والاحتيال فى نزعه منه.

معنى الآيات

اجتاح الجدب والجوع كثيراً من البلاد فاتجه إخوة يوسف من أرض كنعان إلى أرض مصر فلقد سمع الناس بفائض الغلال التى حفظوها من السنوات السمان فدخلوا على يوسف ولا يعرفونه بيد أنه عرفهم فهم لم يتغيروا كثيراً أمّا هم فإن خيالهم لا يتصور قط أنه هو ذلك الغلام العبرانى الصغير الذى ألقوه فى الجب منذ عشرين عاماً أو تزيد فهو عزيز مصر شبه المتوج فهم لا يتخيلونه وهو فى سنه وزيه وحرسه ومهابته وخدمه وحشمه.

﴿فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ وتركهم يوسف يأنسون إليه واستدرجهم فى الحديث حتى ذكروا له هويتهم على وجه التفصيل وإن لهم أخاً من أبيهم قام فى خدمة أبيه لأن أباه يحبه ولا يطيق فراقه فلما هيأ لهم الطعام قال لهم إنه يريد أن يرى أخاهم هذا وقال لهم لقد رأيت أننى أوفى الكيل للمشترين فسأوفيكم كيلكم حين يجئ معكم ورأيتم أننى أكرم النزلاء فلا خوف عليه بل سيلقى منى الإكرام المعهود. فإن لم تأتونى به فلا طعام لكم عندى ولا تقربون بلادى فردوا عليه قائلين سنجتهد فى طلبه وإنا لفاعلون.



سخاء يوسف لإخوته رجاء عودتهم

قال تعالى:

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢) فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥)﴾

مناسبة الآيات بما قبلها:

لقد سبق في الآيات السابقة أن إخوته قالوا له ﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ وفي هذه الآيات صنع بهم ما يحثهم على الاجتهاد في عودة أخيهم وعودتهم إليه مرة أخرى.

المباحث العربية

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ﴾ أى غلمانه أى العبيد والخدم ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ البضاعة هى الثمن الذى أتوا به ليشتروا به الطعام وكان دراهم وقيل

كان جلوداً. وغير ذلك والأولى أنـه كـان دراهـم لأن الـدراهم يسـهل إخفاؤهـا فـى الرحال. ﴿ فِي رِحَالِهِمْ﴾ الرحال جمع رحل وهو كل شئ يعد للرحيـل مـن وعـاء المتاع ومركب للبعير وحلس ورسن[1].

﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾. ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا ﴾ على رجاء أن يعرفوها ﴿ إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ ﴾ إذا رجعـوا إلى أهلـهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أى لكى يرجعـوا أو علـى رجـاء أن يعـودوا. فلعـل إمـا أنهـا للترجـى أو أنها بمعنى كى.

أسباب جعل البضاعة فى الرحال:

لقد رد يوسف ثمن الطعام لإخوته وأعطاهم الطعام دون مقابل ووضعها فى أوعيتهم دون علمهم بها فعل ذلك لسبب من هذه الأسباب:-

الأول : أنهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه علموا أن ذلك كان كرماً من يوسف وسخاء فيبعثهم ذلك على العودة إليه.

الثانى : خاف أن لا يكون عند أبيه من الورق – الفضة – ما يرجعون به مرة أخرى.

الثالث : أراد به التوسعة على أبيه لأن الزمان كان زمان قحط.

الرابع : رأى أن أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع شدة حاجتهم إلى الطعام لؤم.

الخامس : قال الفراء أنهم متى شاهدوا بضـاعتهم فـى رحـالهم وقـع فـى قلـوبهم أنهم وضعوا تلك البضاعة فى رحالهم علـى سـبيل السـهو وهـم أنبيـاء وأولاد أنبياء أو رجعوا ليعرفوا السبب فيه.

---

(١) الحلس: كساء يوضع على ظهر البعير وجمعه أحلاس . و الرسن: هو الحبل وجمعه أرسان.

السادس : أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم به عيب ولا منة.

السابع : مقصوده أن يعرفوا أنه لا يطلب الأخ لأجل الإيذاء والظلم ولا لطلب زيادة في الثمن.

الثامن : أراد أن يعرف أبوه أنه أكرمهم وطلبه له كمزيد الإكرام فلا يثقل على أبيه إرسال أخيه.

التاسع : أراد أن يكون ذلك المال معونة لهم على شدة الزمان وكان يخاف اللصوص فوضع تلك الدراهم في رحالهم حتى تبقى مخفية إلى أن يصلوا إلى أبيهم.

العاشر :أراد أن يقابل مبالغتهم في الإساءة بمبالغة في الإحسان إليهم[1].

قوله ﴿ فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ سبق الحديث عن «لما» وقوله ﴿ مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ للعلماء في معنى هذا القول رأيان:

١- منع منا الكيل في المستقبل وبعد هذه المرة وهذا إشارة لقول يوسف فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون.

٢- منع منا الكيل إشارة إلى منعه بغير بنيامين.

والذي يرجح الرأي الثاني ما يأتي:

١- حمل مُنع على الفعل الماضي كما هو لفظاً ومعنى.

٢- قول الإخوة لأبيهم ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ ﴾ .

٣- هناك قراءة تؤيد هذا الاتجاه ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا يَكْتَلْ ﴾ .

---

(١) تفسير الفخر الرازي بتصريف جـ ٥ ، ص١٤٤ ، ١٤٥.

قوله ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الفاء واقعة في جواب شرط محذوف والتقدير أنه إذا كان الأمر كذلك فأرسل معنا أخانا، نكتل فعل مضارع مجزوم في جواب الأمر «أرسله» وهذا يدفع رأى من يقول إن أخا يوسف هو نكتل فلو كان كذلك لنصب بدلاً من أخانا. والمعنى فأرسل معنا أخانا نكتل – أى نأخذ الطعام – ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ هذه الجملة مستأنفة معللة لإرساله أخاهم وهى مؤكدة بإن واسمية الجملة واللام والمعنى وإنا لصائنون راعون له.

﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ المراد بالاستفهام هو الإنكار، و«هل» بمعنى ما النافية، والكاف فى «كما» بمعنى مثل وهى صفة لمصدر محذوف والتقدير: هل آمنكم عليه مثل ائتمانكم على يوسف والمعنى كيف آمنكم على ولدى بنيامين وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم وأنكم ذكرتم مثل هذا فى شأن يوسف حيث قلتم ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾فلما لم يحصل الحفظ هناك فكيف آمنكم هنا ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ هذا استسلام من يعقوب فحفظ الله بنيامين خير من حفظكم له وحافظاً تمييز وقرئ فالله خير حفظاً ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ هذه الجملة معطوفة على قوله ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أى هو ذو رحمة واسعة فأرجو منه حفظه وأن لا يجمع علىَّ مصيبتين. قال كعب الأحبار: (لما قال يعقوب ذلك، قال له: لأردن عليك كليهما حيث توكلت علىَّ واستحفظتنى عليه)[1].

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ ولما فتحوا متاعهم بحضرة أبيهم ﴿وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾ ثمن الميرة ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ عادت إليهم مع

(١) الصاوى على الجلالين جـ ٢ ، ص٢١٢.

الطعام فلم يدفعوا ثمناً. ﴿قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ «ما» استفهامية والمعنى أى شئ نطلب من إكرام الملك أعظم من هذا. و﴿هَـٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ ورد أنهم قد ذكروا ليعقوب إحسان ملك مصر إليهم وحثوا يعقوب على إرساله بنيامين معهم فلما وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا أى شئ نطلب بعد هذا الإكرام أوفى لنا الكيل ورد لنا الثمن لو كان رجلاً من أولاد يعقوب ما أكرمنا كرامته فقال لهم يعقوب إذا رجعتم إلى مصر فأقرئوه منى السلام وقولوا له إن أبانا يصلى عليك ويدعو لك بما أوليتنا) [1].

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ نأتى بالميرة لهم وهى الطعام ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ حتى يصل إلى مصر ويعود منها ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ لأخينا بنيامين الذى لم يذهب معنا هذه المرة ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ على الملك لسخائه.

معنى الآيات

وقال يوسف لعبيده وخدامه اجعلوا ثمن الطعام الذى أتوا به للشراء فى أوعيتهم مع الطعام على رجاء أن يعرفوا إذا عادوا إلى أهلهم كى يرجعوا مرة أخرى وترك الإخوة أخاهم يوسف دون علمهم أنه هو فلما عادوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع من الكيل فأرسل معنا أخانا حتى نأتى بالطعام مرة أخرى فلقد أنذرنا العزيز بمنعه الطعام عنا إذ لم يذهب أخونا ليكتل معنا فإنا له لحافظون فرد يعقوب بقوله ما آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على يوسف من قبل فأمرى مفوض إلى الله فهو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين وحين فتحوا متاعهم بحضور أبيهم

(١) المرجع السابق جـ ٢ ، ص٢١٢.

قالوا يا أبانا أى شئ نطلبه من إكرام العزيز لنا فهذا ثمن الطعام رجع معنا فى وسط الطعام فإذا عدنا إلى مصر مرة أخرى سنحفظ أخانا ونزداد كيل بعير له ذلك كيل يسير على الملك لسخائه وكرمه.

شرط يعقوب لإرسال ابنه
ووصيته لأبنائه

قال تعالى:

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

مناسبة الآيات بما قبلها:

لقد انتهت الآيات السابقة بإقناع إخوة يوسف أباهم بإرسال بنيامين إلى مصر فهم يحفظونه وتزداد الأسرة كيل بعير بذهابه وفى هذه الآيات يبين الله تعالى شرط يعقوب فى إرساله وهو أخذ الميثاق على الإخوة. وحقق الأولاد شرط الأب.

المباحث العربية

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ ﴾ قال يعقوب لن أبعثه معكم إلا أن تعطونى فالنفى ليس على التأبيد ولكنه إلى غاية وهى إعطاء الميثاق ﴿مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ الموثق مصدر بمعنى الثقة ومعناها العهد الذى يوثق فهو مصدر بمعنى المفعول ويكون المعنى: لن ارسله معكم حتى تعطونى عهداً موثقاً به ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ أى عهداً موثوقاً به بسبب تأكد بإشهاد الله والقسم بالله عليه ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ اللام واقعة فى واجب قسم محذوف تقديره حتى تعطونى موثقاً من الله تحلفون بالله وتقولون والله لتأتننى به. ومعنى ﴿إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ معناه الهلاك. العرب يقولون أحيط بفلان إذا قرب هلاكه، كما قال تعالى ﴿وأحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ وقال تعالى ﴿وظنوا أنهم أحِيطَ بهم﴾.

﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ فلما أعطاه الأبناء عهدهم قال يعقوب: الله على ما نقول شهيد. المراد بالوكيل الشهيد وعبر بالوكيل دون الشهيد لأن الشهيد موكول إليه العهد فإن وفوا جازاهم بأحسن الجزاء وإن غدروا كافأهم بأعظم العقوبات.

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾
لقد أوصاهم يعقوب وصية وهى أنه نهاهم أن يدخلوا جميعاً من باب واحد وأمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة، ولقد اختلف العلماء فى وصية يعقوب لأولاده:

قال جمهور المفسرين: إنه خاف عليهم من العين وقالوا إن العين حق وأقام الفخر الرازى أدلة كثيرة لهذا الاتجاه منها:

الأول : إطباق المتقدمين من المفسرين على أن المراد من هذه الآية ذلك – أى العين –.

الثانى : ما روى أن رسول الله ﷺ كان يعوِّذ الحسن والحسين فيقول: أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة. ويقول هكذا كان يعوِّذ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق صلوات الله عليهم.

والثالث : ما روى عن عبادة بن الصامت قال: دخلت على رسول الله ﷺ فى أول النهار فرأيته شديد الوجع ثم عدت إليه آخر النهار فرأيته معافىً فقال: إن جبريل عليه السلام أتانى فرقانى فقال باسم الله أرقيك من كل شئ يؤذيك ومن كل عين وحاسد الله يشفيك قال فأفقت.

و الرابع : روى أن بنى جعفر بن أبى طالب كانوا غلماناً بيضاً فقالت أسماء يا رسول الله إن العين إليهم سريعة أفأسترقى لهم من العين فقال لها نعم.

والخامس : دخل رسول الله ﷺ بيت أم سلمة وعندها صبى يشتكى فقالوا يا رسول الله أصابته العين فقال أفلا تسترقون له من العين.

والسادس : قوله عليه الصلاة والسلام: العين حق ولو كان شئ يسبق القدر لسبقت العين القدر.

والسابع : قالت عائشة رضى الله عنها كان يؤمر العائن أن يتوضأ ثم يغسل منه العين الذى أصيب بالعين)[1].

وقال فريق من العلماء إننا ننكر هذا المعنى وهو أن للعين تأثيراً وعلى رأس هؤلاء أبو على الجبائى وقال عن سبب وصية يعقوب لبنيه إن أولاد يعقوب اشتهروا بمصر وتحدث الناس بهم وبحسنهم وكمالهم فقال لا تدخلوا تلك المدينة من باب واحد على ما أنتم عليه من الهيئة والعدد فلم يأمن عليهم حسد الناس أو يقال: لم يأمن عليهم أن يخافهم الملك الأعظم على ملكه فيحبسهم.
وقال آخرون: إن يعقوب كان عالماً بأن عزيز مصر هو ولده يوسف إلا أن الله تعالى ما أذن له فى إظهار ذلك فلما بعث أبناءه إليه قال: لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وكان غرضه أن يصل بنيامين إلى يوسف وقت الخلوة.
وفسروا قوله ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ بأنه يراعى الأسباب المعتبرة فى هذا العالم والإنسان مأمور بالاعتقاد بأنه لا يصل إلا ما قدره الله.
وقوله ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ والمعنى ما أدفع عنكم بقولى ذلك ﴿ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ لا أدفع به ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ أى من قضاء الله ﴿مِن شَيْءٍ﴾ من مزيدة للتوكيد وشئ مفعول به منصوب وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد. أى لا أدفع شيئاً قدره الله عليكم. ولقد أوصاهم شفقة ورأفة بهم. ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ ما الحكم إلا لله وهذا أسلوب قصر ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدت ووثقت به ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فليعتمد المعتمدون عليه.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ، ص١٤٦ ، ١٤٧.

لطيفة: لِمَ أمر يعقوب بنيه هذه المرة بتلك الوصية دون المرة السابقة؟ ويمكن الجواب على ذلك بأمرين:

الأول: إن بنيامين سيذهب معهم وهو عزيز عليه ويتسلّى به عن يوسف فخاف عليهم من أجل كونه معهم.

الثاني: أنهم اشتهروا فى مصر بأنهم أولاد رجل واحد وفيهم نور النبوة والشهامة والجمال سيما وقد أصبحوا بمنزلة بخلاف المرة الأولى.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ أى لكن حاجة فى نفس يعقوب قضاها أظهرها وهى إرادة دفع العين عنهم وهذا من شفقته ورحمته بهم.

﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ الهاء اسم إنَّ ضمير يعود على يعقوب واللام للتوكيد والتقدير وإن يعقوب لصاحب علم ﴿لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ «ما» يجوز أن تكون مصدرية، وإنه لذو علم لتعليمنا إياه والضمير المفعول به عائد على يعقوب. ويجوز أن تكون «ما» بمعنى الذى والمعنى «و إنه لذو علم للذى علمناه». ومعنى العلم أى الحفظ والمعنى لذو حفظ لما علمناه. ويجوز أن يكون بمعنى لذو علم بفوائد ما علمناه.

﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ولكن أكثر الناس أى الكفار ﴿لاَ يَعْلَمُونَ﴾ لا يدركون إلهام الله لأصفيائه. قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ ﴾ أى دخلوا عليه فى محل حكمه ﴿ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ أى ضم يوسف إليه أخاه بنيامين ﴿قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ الفاء واقعة فى جواب شرط

محذوف والتقدير إنى أنا أخوك وإن عرفت ذلك فلا تحـزن ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ما يجوز أن تكون مصدرية والباء للسببية والمعنى فلا تحزن بسبب عملهم ويجوز أن تكون موصولة والمعنى فلا تحزن بسبب الـذى كـانوا يعملونـه. وعبَّـر بالمضـارع للدلالة على التجدد والحدوث.

معنى الآيات

قال يعقوب لن أبعثه معكم حتى تقسموا لى بالله قسماً يربطكم أن تردوا علىَّ ولدى إلا إذا غلبتم على أمركم غلباً لا حيلة لكم فيـه. فأقسـموا وبعـد هـذا العهـد والموثق راح يوصيهم بوصية فى رحلتهم إلى مصر فنهـاهم عـن دخـولهم مـن بـاب واحد وأمرهم أن يدخلوا من أبواب مختلفة. ثم قال لهم وما أدفع عنكم قضاء الله ما الحكم إلا لله فـلا مفـر مـن قضـائه وبـالله وثقـت وعليـه اعتمـدت وعليـه فليتوكـل المتوكلون. ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يدفع عنهم هذا الفعل شيئاً من قدر الله لكن حاجة فى نفس يعقوب أظهرها لأولاده.

و إن يعقوب صاحب حفـظ لمـا علمـه الله ولكـن الكفـار لا يـدركون إلهـام الله لرسله. ولما وصلوا إلى مصر ودخلوا على محل حكم يوسف ضم إليه أخاه وقـال لـه إنى أنا أخوك فلا تحزن من الذى يعملونه.

حيلة يوسف لضم أخيه

قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)﴾

مناسبة الآيات بما قبلها:

انتهت الآيات السابقة بدخول إخوة يوسف عليه ومعهم أخوهم من أبيهم وانفرد يوسف ببنيامين وأخبره أنه أخوه. وفي هذه الآيات يبدأ يوسف بحيلته حتى يضم أخاه إليه ثم تأتي بقية الأسرة وعلى رأسها يعقوب عليه السلام وأخبر بنيامين بذلك.

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ الفاء عاطفة، عطفت هذا الحدث على الحدث السابق وهو ذهابهم ورجوعهم بأخيهم فهو ترتيب أحداث. ولقد سبق معنى هذه الجملة ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ السقاية هي صاع من ذهب مرصَّع بالجواهر وهي كأس الملك جعلها في رحل بنيامين وبعد أن تركوا مجلس يوسف وخرجوا وبدأو السير والرحيل. قيل إنهم وصلوا بلبيس بالشرقية ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ والتعبير بثم يدل على التراخي وأنهم قطعوا مسافة طويلة بعد انفصالهم عن مجلس يوسف. ومعنى ﴿ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادى مناد ﴿ أَيَّتُهَا الْعِيرُ ﴾ والعير بكسر العين هي الإبل التي تحمل الميرة ثم غلب على كل قافلة وسميت بذلك لأنها تعير أي تذهب وتجئ والمراد يا أصحاب العير ﴿ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ .

لطيفة:

لم يسرق إخوة يوسف ونودي عليهم ﴿ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ فإن كان هذا النداء بأمر يوسف فكيف يليق به وهو الرسول الحق أن يتهم قوماً هم بُرآء؟ وإن لم يكن النداء بأمره فلماذا لم يظهر براءتهم من تهمة السرقة؟ والجواب عن ذلك من وجوه:

(الأول: أنه عليه السلام لما أظهر لأخيه أنه يوسف قال له إني أريد أن أبقيك ههنا ولا سبيل إليّ إلا بهذه الحيلة فإن رضيت بها فالأمر لك فرضي بأن يقال في حقه ذلك وعلى هذا التقدير لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام.

الثانى : أن المراد إنكم لسارقون يوسف من أبيه إلا أنهم أظهروا هذا الكلام والمعاريض لا تكون إلا كذلك.

و الثالث: أن ذلك المؤذن ربما ذكر ذلك النداء على سبيل الاستفهام وعلى هذا التقدير يخرج أن يكون كذباً.

والرابع : ليس فى القرآن أنهم نادوا بذلك النداء عن أمر يوسف عليه السلام والأقرب إلى ظاهر الحال أنهم فعلوا ذلك من أنفسهم لأنهم لما طلبوا السقاية وما وجدوها وما كان هناك أحد إلا هم غلب على ظنونهم أنهم هم الذين أخذوها) [1].

قوله تعالى ﴿ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم ﴾ هذه الجملة فى محل نصب حال ﴿ مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ أى شئ ضاع منكم ﴿ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ ﴾ سبق أن كان المنادى مفرداً ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴾ ثم قال الله ﴿ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ ﴾ فالذى نادى أولاً واحد. وحينما ردوا بقولهم «قالوا» فكان المنادى وأصحابه ﴿ صُوَاعَ الْمَلِكِ ﴾ أى الصاع وهو آلة كيل وإنما اتخذوا آلة كهذه ليدل على عزة ما يكال به فى ذلك الوقت وفيه لغتان الصاع والصواع فألف اللغة الأولى منقلبة عن واو. قوله ﴿ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ أى وحمل بعير من الطعام للذى يدل على السارق. وعبّر بالماضى لتحقق مجئ الصواع من أمتعتهم ﴿ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ ﴾ قائل هذا هو المؤذن وقوله ﴿وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ﴾ وأنا به كفيل أى ضامن. ولقد جعل جعلاً له وهى الأجرة على إحضار الصواع وضمّنها للذى يدل على السارق.

﴿ قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ، ص١٥٠.

أقسم إخوة يوسف بالله وآثروا القسم بالتاء دون الواو لأن القسم بها يكون فيه التعجب غالباً كأنهم عجبوا من رميهم بهذا الأمر العظيم. ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُم ﴾ اللام موطئة لقسم محذوف تأكيد للقسم الأول ﴿ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ ﴾ «ما» نافية واللام لام التعليل والمراد بالأرض أرض مصر ﴿ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ «ما » نافية وسارقين جمع سارق وهو نكرة ووقعت فى سياق النفى فأفادت العموم والمعنى وما نسرق أى شئ صغر أو كبر. ﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ واو الجماعة فى قالوا يعود على المؤذن وأصحابه. والفاء واقعة فى جواب شرط محذوف والتقدير قالوا وإن عرفتم أن هناك سرقة فما جزاؤه والضمير فى «جزاؤه» يعود على السارق المستفاد من السياق ﴿ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ إن حرف شرط يجزم فعلين الأول فعل الشرط وهو «كان» فهو مبنى على السكون فى محل جزم والتاء اسمها وكاذبين خبرها. والكذب مخالفة الخبر للواقع. وجواب الشرط محذوف تقديره إن كنتم كاذبين فى نفيكم للسرقة فما جزاء السارق إن وجد فيكم.

﴿ قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ الضمير فى قالوا يعود على إخوة يوسف القائلين ﴿ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ «جزاؤه» مبتدأ والضمير المضاف إليه يعود على المسروق ﴿ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ ﴾ خبر المبتدأ ومعنى الجملة من وجد فى رحله يسترقه ومن اسم موصول ووجد صلته. ﴿ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ الضمير المبتدأ يعود على السارق «جزاؤه» خبر المبتدأ أو الضمير يعود على المسروق. وهذه الجملة مؤكدة للجملة الأولى أى أن السارق يُسترَق ويصير عبداً وكانت هذه سنة آل يعقوب والكاف بمعنى مثل ومعنى ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ ومثل ذلك الجزاء أى استرقاق السارق نجزى

الظالمين السارقين. فردوا ورجعوا من حيث أدركهم المؤذن وأصحابه إلى يوسف وأصحابه لتفتيش أوعيتهم بحضرته ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ ﴾ ففتشها والفاء عاطفة ﴿قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾.

قال قتادة: (ذكر لنا أنه كان لا يفتح متاعاً ولا ينظر في وعاء إلا استغفر الله مما قذفهم به حتى لم يبق إلا رحل بنيامين قال: ما أظن هذا أخذ شيئاً. فقال إخوة يوسف والله لا نتركك حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه)(١).

﴿ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ الضمير الفاعل يعود على يوسف ولما كان هو الآمر للخدم أسند الاستخراج إليه والضمير المنصوب يعود على الصواع ففيه التذكير والتأنيث. وقيل يعود على السقاية ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ ومثل ذلك الكيد ﴿ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ علمناه الاحتيال في أخذ أخيه ﴿ مَا كَانَ ﴾ يوسف ﴿لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾ رقيقاً من جزاء السرقة ﴿ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ في طاعة الملك وحكمه لأن جزاء السارق الضرب في مصر وليس الاسترقاق فما توصل إلى أخذ أخيه إلا بشريعة أبيه والتي قالها إخوته ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ إلا بمشيئة الله بإلهامه سؤال إخوته وإجابتهم بسنتهم ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاءُ ﴾ أي يرفع الله درجات الذي أراد الله رفع درجاته. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ خبر مقدم و﴿ عَلِيمٌ﴾ مبتدأ مؤخر. والمعنى وفوق كل ذي علم من المخلوقين عليم أي أعلم منه حتى ينتهي إلى الله تعالى.

---

(١) الفتوحات الإلهية جـ ٢ ، ص٤٧٠.

معنى الآيات

بدأت هذه الآيات بمشهد مثير حافل بالحركات والانفعالات والمفاجآت هذا المشهد يصوِّره القرآن بعرض حيٍّ أخَّاذ وراء الستار. فمن وراء الستار يدس يوسف كأس الملك وهو من ذهب في الرَّحل المخصص لأخيه ثم تمضي العير وتسير في طريقها قاصدة الشام ولما سارت مسافة طويلة تتبعها جماعة من مصر ثم ينادي عليهم مناد بصوت مرتفع ﴿ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ ويرتاع إخوة يوسف لهذا النداء الذي يتهمهم فيعودون أدراجهم يتبينون الأمر المريب. ﴿ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ فرد عليهم الغلمان قالوا نفقد صواع الملك ولمن دلَّ على سارقه حمل بعير وقال المؤذن وأنا به كفيل. فأقسموا أنهم ما أتوا ليفسدوا في هذا البلد ونفوا السرقة عنهم. قال الغلمان: فما جزاؤه إن كنتم كاذبين في نفيكم السرقة. قالوا جزاؤه الاسترقاق فهو جزاؤه فعادوا وحضروا مجلس يوسف فبدأ التفتيش بأوعيتهم قبل تفتيش وعاء أخيه ثم استخرج السقاية من وعاء أخيه بيد أن الله ألهم يوسف تلك الطريقة لضم أخيه إليه. ثم يقول الله تعالى ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ .

إتهام يوسف بالسرقة

قال تعالى:

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ۝٧٧ ﴾

مناسبة الآية بما قبلها:

لما أخرج يوسف صواع الملك من رحل أخيه وثبتت سرقة أخيه على زعم يوسف ورجاله. ووقف إخوة بنيامين الحالفين على أنهم لم يأتوا ليفسدوا فى الأرض وما كانوا سارقين.فلما أخرجوا الصواع من رحل أخيهم دهشوا من هول المفاجأة العنيفة لأنهم موقنون ببراءتهم من السرقة. متحدون كل من يذكر لهم شيئاً. فانفعلوا وعصف بهم انفعال الغضب على بنيامين ويوسف فرموا يوسف بالسرقة. ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾.

المباحث العربية

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ أتوا بإن الشرطية وهى مفيدة للشك لأنهم يثقون من عدم سرقته فهم أبناء نبى. وأتوا بفعل المضارع «يسرق» مع أن السرقة وقعت فى الماضى قبل كلامهم. لحكاية حال ماضيه. وجملة ﴿ فَقَدْ سَرَقَ ﴾ جواب الشرط. والمراد بالأخ هو يوسف وأتوا به نكرة لقصدهم التقليل والتحقير.

والضمير المنصوب فى ﴿ فَأَسَرَّهَا ﴾ يعود على كلمتهم ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ وقوله ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أى لم يظهرها لهم. ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ قال ذلك فى نفسه والمعنى: أنتم شر منزلة من يوسف وأخيه لسرقتكم أخاكم من أبيكم وظلمكم له ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ أفعل التفضيل ليس على بابه فليس فى كون الله شئ هو عالم به وغيره هو أعلم به فمعنى أفعل التفضيل «الله عالم» وقوله ﴿بِمَا تَصِفُونَ﴾ بما تذكرون من أمر أخيه الذى اتهمتموه بالسرقة.

معنى الآيات

قال أبناء يعقوب منفعلين من هول المفاجأة إن سرق بنيامين فلقد سار على درب أخيه الشقيق يوسف فقد سرق من قبله فأسر الكلمة يوسف فى قلبه وعقله ووجدانه ولم يظهرها لهم. وقال فى نفسه أنتم شر منزلة من يوسف وأخيه لأنكم سرقتم أخاكم من أبيكم وحاولتم قتله وألقيتموه فى الجب. والله عليم بما تذكرون.

لطيفة: ما الذى سرقه يوسف؟

الجواب: يوسف لم يسرق شيئاً بعد بلوغه حتى يعاقب عليه أو يلام ولكن الذى فعله يدل على نفسه المحبة للخير والطاعة والعلماء ساقوا أقوالاً فى المسروق:

القول الأول: كان قد سرق من أبى أمه صنماً كان يعبده فسرقه يوسف وحطمه لئلا يعبده.

القول الثانى: أنه جاءهم سائل فأخذ بيضة وتصدق بها على السائل، وقيل أخذ دجاجة وأعطاها السائل.

القول الثالث: كان يخفى طعام المائدة ويطعم به الفقراء.

كل ذلك مدح فى يوسف وإن كان فى نظر إخوته سرقة وقدح. وقيل لم يسرق أصلاً ولكنها تهمة ألصقها له إخوته الذين أعماهم الحقد عليه وشرعوا فى قتله.

رأى بعيد:

ساق المفسرون روايات متعددة فى هذا الأمر وهى التى سقناها ومما ساقه المفسرون وليس مقبولاً هذه الرواية:

(أن عمته حضنته بعد موت أمـه فأحبتـه حبـاً شديداً فلما ترعـرع وقعـت محبة يعقوب عليه فأحبه فقال لأخته يا أختاه سلمى إلىَّ يوسف فوالله ما أقـدر أن يغيب عنى ساعة واحدة فقالت لا أعطيكه فقال: والله ما أنا بتاركـه عنـدك فقالـت دعه عندى أياماً أنظر إليه لعل ذلك يسـلينى عنـه ففعـل ذلـك فعمـدت إلى منطقـة كانت لإسحاق عليه السلام وكانوا يتوارثونها بـالكبر وكانـت أكـبر أولاد إسـحاق وكانت عندها فشدت المنطقة على وسط يوسف تحت ثيابه وهو صغير لا يشعر ثـم قالت لقد فقدت منطقـة إسحاق ففتشـوا أهـل البيـت فوجـدوها مـع يوسـف فقـال يعقوب إن كان فعل ذلك فهو سلم لك فأمسكته عندها حتى ماتت)[1].

وهذا الرأى من الإسرائيليات غير المقبولة لما يأتى:

أولاً: لأن العمة بنت نبى، وأخلاقها لا تسمح بأن تلصق تهمة بطفل برئ.

ثانياً: إن يوسف كان صغيراً ولم يكلف بعد فكيف يصير عبداً لها بعد هذه السرقة.

ثالثًا: هذه من الإسرائيليات. والله أعلم.

تنفيذ العهد الذى أخذه يعقوب على أبنائه

قال تعالى:

﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ

(١) الصاوى على الجلالين جـ ٢ ص٢١٤.

إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾

مناسبة الآيات بما قبلها:

فى الآيات السابقة حديث عن وجود صواع الملك فى رحل بنيامين وكان هذا الموقف كفيلاً بأن يكون فى سمط السارقين. وكانت سنّة آل يعقوب إن سرق السارق فإنه يُسْتَرَقُّ ويصير رقيقاً فطُبِّقَ على بنيامين ودخل دائرة العبودية وبين الأبناء وأبيهم عهد ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ فقالوا ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ إلى آخر الآيات.

المباحث العربية

﴿ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ المراد بالعزيز يوسف عليه السلام ﴿ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا﴾ هو يعقوب. ومعنى «الشيخ» هو الذى استبانت فيه السن وظهر عليه الشيب

وقيل هو خمسين إلى آخره. وقيل هو من إحدى وخمسين إلى آخر عمره والجمع أشياخ وشيخان وشيوخ وشِيَخَة ومشيخة بفتح الميم وكسرها[1].

﴿ كَبِيرًا ﴾ صفة لشيخ ومعناها إما أنها تؤكد كلمة ﴿ شَيْخًا ﴾ أو أنها بمعنى عظيم القدر لأنه نبي من الأنبياء. ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي في أفعالك وأقوالك. ولا يقدح ما فعله يوسف بوضع الصاع في رحل أخيه وبندائه لهم ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ لأنه فعل ذلك بوحي من الله.

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ﴾

قوله تعالى ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ مصدر منصوب بفعل محذوف والتقدير نعوذ بالله والمعنى نتعوذ بالله تعوذاً أي نلتجئ إلى الله.

﴿ أن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ﴾ المراد بالمتاع: الصواع. وقال يوسف ﴿ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ﴾ ولم يقل إلا من سرق: تحرزاً من الكذب ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴾ إذن: جواب وجزاء لشرط محذوف على سبيل الإيجاز وتقديره إن أخذنا غيره إذن لظالمون. والظلم هو مجاوزة الحد. ولا يخفى ما في الآية من مؤكدات:

١- إنَّ. ٢- اسمية الجملة ٣- اللام في «لظالمون».

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ﴾، ﴿ اسْتَيْأَسُواْ ﴾ أي يئسوا. والسين والتاء مزيدتان للتوكيد ﴿ خَلَصُواْ نَجِيًّا ﴾ اعتزلوا المجلس يتناجون وهو الحديث في سرية، ونجيا: حال.

---

(١) أنظر لسان العرب جـ ٤ ص٢٣٧٣ مادة «شيخ».

﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ ذكر المفسرون أنه: سناروبيل أو رأيا يهوذا ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾، ﴿ أَلَمْ ﴾ لها معنيان:

١- التنبيه والتذكير: كما في هذه الآية وغيرها كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[1].

٢- التعجب من أمر فيه غرابة كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ﴾ [2].

وقوله تعالى ﴿ مَّوْثِقًا مِّنَ اللّهِ ﴾ العهد الذى سبق ذكره. ﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾ و«ما» يجوز أن تكون زائدة للتوكيد ويجوز أن تكون مصدرية. والمعنى: وتفريطكم فى أمر يوسف كائن من قبل تفريطكم فى بنيامين. أو من قبل أخذكم العهد فى شأن بنيامين.

﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي ﴾.
﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ ﴾ الفاء واقعة فى جواب شرط محذوف والتقدير «إن عرفتم وتذكرتم الموثق فلن أبرح» ومعنى أبرح: أفارق وهى تامة وليست ناقصة وفاعلها ضمير مستتر وجوباً تقديره أنا والأرض مفعول به، والمراد بالأرض أرض مصر.

---

(١) سورة لقمان آية ٢٠.
(٢) سورة النور آية ٤٣.

﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ فى العودة إليه ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ بخلاص أخى.
وفى نصب هذا الفعل وجهان:

الأول: العطف على الفعل «يأذن» فهو منصوب بحتى.
الثانى: أنه منصوب بإضمار «أن».

﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ أى وهو أعدل الحاكمين.

﴿ ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ﴾ ارجعوا وعودوا إلى أبيكم ﴿ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ﴾ نسبوه للسرقة مع أنه لم يسرق حقيقة لأنهم شاهدوا الصواع وقد أخرج من متاعه فظنوه سرق.

﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا ﴾ أىَ وما شهدنا عليه إلا بيقيننا من مشاهدة الصاع فى رحله ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ ﴾ أى لما غاب عنا وقت إعطاء الموثق ﴿ حَافِظِينَ ﴾ أى ما كنا واعين لما يقع مستقبلاً من أنه يسرق. ولو علمنا ذلك لم نأخذ الموثق على أنفسنا.

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾، سؤال القرية وال... يحتمل ثلاثة أوجه:

١- أن الكلام على حذف مضاف والتقدير واسأل أهل القرية وأهل العير وهو مجاز شائع.
٢- أنه مجاز ولكنه من باب إطلاق اسم المحل على الحالّ للمجاورة كالزاوية.

٣- أنه حقيقة لا مجاز فيه وذلك أنه يجوز أن يسأل القرية نفسها والإبل فتجيبه لأنه نبى يجوز أن ينطق له الجماد والحيوان[1] والمراد بالقرية مصر والعير كانت من قوم كنعان.

﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فى قولنا وفيما نقلناه لك. فرجعوا إلى أبيهم فأخبروه.

معنى الآيات

قال أبناء يعقوب ليوسف ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ أى بدلاً منه ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فى أقوالهم وأفعالهم ولكن يوسف أبى لأنه يريد أن يُلقى عليهم درساً ويفاجأهم بشئ يعده لهم ولأبيهم ليكون وقعه على النفس أعمق وأشد أثراً فى النفوس. وبين رفضه فى أخذ أخيه مكان أخيه بنيامين. فقال معاذ الله أن نأخذ بريئاً بجريرة سارق لأنه كان يعلم أن أخاه ليس بسارق فقال: معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴾ وما نريد أن نكون ظالمين وكانت هذه الكلمة الأخيرة فى الموقف وعرفوا أن لا جدوى بعدها فانسحبوا يفكرون فى موقفهم المحرج أمام أبيهم حين يرجعون إليه دون أن يأخذوا أخاهم معهم.

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ مذكراً لهم الموثق الذى أخذه أبوهم عليهم وقال لن أفارق أرض مصر حتى يأذن لى أبى بالعودة أو يحكم الله لى بخلاص بنيامين فهو أعدل الحاكمين. وقال لهم ارجعوا إلى أبيكم فأخبروه صراحة أن ابنه سرق فأخذ بسرقته وهذا ما شاهدوه وعلموه يقيناً وما كان وراء

(١) أنظر الدر المصون جـ٦ ص٥٤٤.

هذا الظاهر من البراءة والحيلة فهم لا يعلمونه وهم غير حافظين لما غاب عنهم. وإن كان الوالد فى شك من قولهم فليسأل أهل مصر وأصحاب العير التى كانوا فيها. ويطوى السياق عودتهم إلى أبيهم ويبدأ فى تصوير مشهد أبيهم المفجوع وقد ألقوا على مسامعه النبأ الفظيع فرد رداً قصيراً شجياً وجيعاً.

* * *

قال تعالى:

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

مناسبة الآيات بما قبلها:

انتهت الآيات السابقة بقول الأبناء ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فأدرك بفطرته أن ابنه لا يسرق وهناك حيلة مدبرة

ولده كحيلة يوسف فقال: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ .

المباحث العربية

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ «بل» حرف يفيد الإضراب وهو هنا [illegible] إبطالي. ولابد له من كلام متقدم عليه يضرب والتقدير: ليس الأمر كما ذكرتم حقيقة بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً. وهذا الأمر أنه خيلت أنفسكم أنه سرق وما سرق. ومعنى ﴿ سَوَّلَتْ ﴾ زينت.

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ صبر: خبر لمبتدأ محذوف تقديره فصبرى صبر جميل، وجميل صفة للخبر. والصبر الجميل هو الذى لا شكوى فيه ولا جزع. ولا يتحدث المبتلَى بمصيبته ولايزكى نفسه.

﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ ﴿ عَسَى ﴾ فعل جامد لا يتصرف ومن ثم ادعى قومٌ أنه حرف: ومعناه: الترجى فى المحبوب والإشفاق فى المكروه. وروى عن ابن عباس قال: كل «عسى» فى القرآن فهى واجبة. وقال الشافعى: يقال: عسى من الله واجبة)[1]. فهى هنا للترجى فهو يرجو من الله أن يرد عليه أبناءه. وأتى بضمير الجمع ﴿ بِهِمْ ﴾ وأكده بقوله ﴿ جَمِيعًا ﴾ لأنه أراد يوسف وبنيامين وابنه الذى قال ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾.

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن جـ٢ ص٢٤١ بتصريف.

و قال يعقوب هذه المقالة: إما لأنه لما طال حزنه واشتد كربه وضاق صدره وقلّت حيلته علم أن الله سيجعل له فرجاً ومخرجاً عن قريب فقال: ذلك على سيل حسن الظن بالله. وإما أن يعقوب علم بما جرى عليه وعلى أبنائه من أول الأمر من التأمل فى رؤيا يوسف. وإما بوحى من الله وقت أن أخبروه بما وقع لبنيامين يقول الشيخ سيد قطب فى سبب هذا القول الذى قاله يعقوب: (هذا الشعاع من أين جاء إلى قلب هذا الرجل الشيخ؟ إنه الرجاء فى الله. والاتصال الوثيق به والشعور بوجوده ورحمته ذلك الشعور الذى يتجلى فى قلوب الصفوة المختارة فيصبح عندها أصدق وأعمق من الواقع المحسوس الذى تلمسه الأيدى وتراه الأبصار) [1].

﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب مؤكدة بمؤكدات متعددة:

١- إنّ ٢- اسمية الجملة ٣- ضمير الفصل «هو».

٤- تعريف الطرفين اسم إنّ وخبرها.

وفى الجملة أسلوب قصر بتعريف الطرفين. وصيغتا مبالغة فى العليم والحكيم: على وزن فعيل.

والمعنى إنه العليم بحالى وحال خلقه، الحكيم فى صنعه وما يقدِّر. ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾ أى أعرض عنهم وقال ﴿ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ ﴾ الأسف: هو الحزن (والألف منقلبة عن ياء المتكلم. وإنما قلبت ألفاً لأن الصوت معها أتم ونداؤه على سبيل المجاز كأنه قال: هذا أوانك فاحضر. وقيل هذه ألف الندبة

(١) فى ظلال القرآن جـ ٤ ص٢٠٢٥.

وحذفت هاء السكت وصلاً. قال الزمخشرى: والتجانس بين لفظتى الأسف ويوسف مما يقع مطبوعاً غير متعمل فيملح ويبدع ونحوه ﴿ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم﴾، ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ ﴾ ﴿مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ﴾ قلت ويسمى هذا النوع «تجنيس التصريف وهو أن تشترك الكلمتان فى لفظ ويفرّق بينهما بحرف ليس فى الأخرى وقد تقدم» [1].

﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ أى عمى وفى سبب بياض عينه وجهان:

١- لما قال سابقاً ﴿ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ ﴾ غلبه البكاء وعند البكاء يكثر الدمع فى العين فتصير كأنها بيضاء من ذلك الماء.

٢- أن المراد ببياض عينه العمى وهذا قول مقاتل قال (لم يبصر بهما ست سنين حتى كشف الله عنه بقميص يوسف وقوله ﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾)[2].

ورغم أن الرازى مال إلى الوجه الأول قائلاً (و الدليل على صحة هذا القول — الأول — أن تأثير الحزن فى غلبة البكاء لا فى حصول العمى فلو حملنا الابيضاض على غلبة البكاء كان هذا التعليل حسناً ولو حملناه على العمى لم يحسن هذا التعليل فكان ما ذكرناه أولى) [3].

والذى أراه أن الرأى الثانى هو الأولى بالقبول لما يأتى:—

---

(١) الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون جـ ٦ ص٥٤٥

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص١٥٨.

(٣) المرجع السابق.

إن المراد بالبياض هو العمى بدليل قوله ﴿ ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ ﴾ والمعنى استوى سوادها ببياضها فصارت كلها بيضاء وبذلك يذهب إبصارها فتكون قد عميت ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى عن يوسف ﴿ اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي ﴾ فلو لم يكن قد عمى فلا معنى لقول يوسف ﴿ اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي ﴾ ولا معنى لقوله ﴿ يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ أى يرتد بصيراً بعد أن فقده.

قوله ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ كظيم هنا بمعنى ممسك على حزنه فلا يشكو للناس بل يشكوه لربه فمعنى كظيم «أى ممسك حزنه على نفسه».

قوله تعالى ﴿ قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ هذا قسم من الأبناء ﴿ تالله ﴾ والأصل فى القسم أن يكون بالتاء ﴿تَفْتَأُ﴾ أى لا تزال إنما قدرت «لا» قبل «تفتأ» عند التفسير (لأن القسم المثبت جوابه مؤكد بالنون أو اللام عند الكوفيين أو بهما عند البصريين فلما رأينا الجواب خالياً منهما علمنا أن القسم على النفى بمعنى أن جوابه منفى لا مثبت فلو قيل وا لله أحبك كان المراد لا أحبك وهو من قبيل التورية ومن ذلك إذا قال والله أجيئك غداً فيحنث بالمجئ بخلاف ما إذا قال لأجيئك فيحنث بعدمه) [1].

لماذا حلف الأبناء؟ وكيف يحلفون على شئ فى نفس يعقوب وهو داخلى ولا يعلمون حقيقته؟

الجواب: إنهم حلفوا لأبيهم تسلية له على ما نزل به من الحزن العظيم. وحلفوا على أمر داخلى لأنهم شعروا بآثار الحزن على وجه أبيهم وجسده فحلفوا لغلبة ظنهم وهو بمنزلة اليقين فهو من لغو اليمين الذى لا يؤاخذ به العبد.

---

(١) حاشية الصاوى على الجلالين جـ ٢ ص٢١٦.

﴿تذكرُ يُوسفَ حَتّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ أى لا تزال تذكر يوسف إلى أن تشرف على الهلاك فالحرض هو الإشراف على الهلاك وسمى بالمصدر للمبالغة. ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ أو تكون من الموتى. ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ الحزن هو ما يصيب النفس من الهم والغم. والبث: أشد الحزن.

و لقد أورد المفسرون روايات أظنها إسرائيليات حين قال يعقوب هذا القول السابق ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ (هذه المقالة قالها لجبريل عليه السلام لما ورد أنه كان ليعقوب شخص مؤاخ له فقال له ذات يوم يا يعقوب ما الذى أذهب بصرك وما الذى قوس ظهرك؟ قال أما الذى أذهب بصرى فالبكاء على يوسف وأما الذى قوس ظهرى فالحزن على بنيامين فأتاه جبريل فقال له يا يعقوب إن الله يقرئك السلام ويقول أما تستحى أن تشكو إلى غيرى فقال: إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله فقال جبريل الله أعلم بما تشكو وإنما عوتب يعقوب بهذا لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين)[1].

وهذا الذى ساقوه مردود بما يأتى:-

١- أن المدة التى خرج فيها أبناء يعقوب لمجئ الطعام من مصر وعودة كثير من الأبناء إلى أبيهم مرة أخرى وإخبارهم بسرقة بنيامين وعودهم إلى مصر مرة أخرى هذه المدة ليست سنوات حتى تقوّس ظهر يعقوب.

٢- أن يعقوب نبى فهو يعرف إطار العلاقة بينه وبين ربه وآدابها فلا يشكو الله إلى غير الله. فلا يليق بنبى أن يفعل ذلك.

---

(١) المرجع السابق.

٣- السياق لا يدل على أنه قالّ هذا القول لأخ مؤاخ بل القول قيل وهو بين أبنائه وفي جو من الضيق والكرب ولم يملك إلا أن يتجه إلى الله بشكواه، قال تعالى ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ قَالُواْ تَالله تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (١)

فالسباق واللحاق يدلان على أن الشكوى كانت بينه وبين الله وحوله أبناؤه وليس كما أورده المفسرون.

قوله ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ قول يعقوب هذا يدل على أنه علم من الله أن يوسف حي من طريقين:-

١- أنه علم من طريق الوحي فلذلك قال ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ ﴾.
٢- أنه علم أنه حي من تأويل الرؤيا التي رآها يوسف في صغره وطلب منه يعقوب إخفاءها على إخوته.

و لما قال لهم هذا القول أمرهم أن يتحسسوا من يوسف وأخيه وأن يطلبوا خبرهما. قوله ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ ﴾ ذكر المفسرون سبب قول يعقوب هذا القول:

---

(١) سورة يوسف آية ٨٤ – ٨٧

(أن أولاده لما أخبروه بسيرة ملك مصر وكمال حاله في جميع أقواله وأفعاله أحست نفس يعقوب وطمع أن يكون هو يوسف فعند ذلك قال ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾)[1]. والتحسس هو طلب الخبر بالحاسة، وغالباً ما يكون في الخير. والتجسس بمعناه وغالباً ما يكون في الشر. والمعنى: اذهبوا فاطلبوا خبر يوسف وأخيه. ووردت روايات أظن أنها من الإسرائيليات لما فيها من أن الذبيح إسحاق. ولقد دأبت الإسرائيليات على إلصاق شرف الذبح إلى إسحاق بدلاً من إسماعيل. ﴿ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ ﴾ هو القنوط وقطع الأمل والرجاء و﴿مِن رَّوْحِ اللّهِ ﴾ أي من رحمته.

﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ أي إن المؤمن عند البلاء يصبر ويحتسب منتظراً فرج الله فينال بذلك خيراً ويشكر ويحمد عند الرخاء والسراء والكافر بخلاف ذلك.

أو المعنى: إنه لا ييأس من الأمل في الله إلا القوم الكافرون. أما المؤمنون فإنهم يثقون في الله ولا تنقطع آمالهم فيه.

معنى الآيات

يطوى السياق الطريق بالأبناء حتى يقفوا أمام أبيهم المفجوع وقد أفضوا إليه بنبأ سرقة أخيهم وإذا أردت أن تتحقق يا أبانا فاسأل أهل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون. ورد الأب الكبير جريح القلب: قال بل زينت لكم أنفسكم أمراً ما يخفى عليّ فصبر جميل وهذه الكلمة قالها يوم فقد

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين جـ ٢ ص ٢١٦، ٢١٧.

يوسف بيد أنه أضاف إليها هذا الأمل أن يرد الله عليه يوسف وأخاه والابن الذى تخلف فى مصر لليمين الذى قطعه على نفسه أمام أبيه وأبى أن يترك أرض مصر. فالله هو العليم بكل شئ الحكيم فى أفعاله. ثم تولى عنهم مؤثراً الانفراد بنفسه طاوياً على مصيبته فهو الوحيد الذى أحرقته بلهيبها، لا تشاركه قلوب أبنائه ولا تتجاوب معه عقولهم. ويندب فجيعته التى لم تنسها السنون فقال كاظماً حزنه متجلداً ﴿ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ ورد الأبناء بكلمة دلت على خلو قلوبهم من الرحمة بأبيهم تالله تظل تذكر يوسف ويهدك الحزن عليه حتى تشرف على الهلاك أو تهلك أسىً عليه بلا جدوى وهو ميئوس من وجوده ولن يعود. ويرد عليهم أبوهم بأن يتركوه لربه فهو لا يشكو لأحد من خلقه بل قال كلمة يتجلى فيها أنها خرجت من قلب موصول بالله واثق فيه. طامع فى كرمه. وأن يوسف سيعود. ثم يوجه أبناءه إلى أن يذهبوا ويطلبوا أخبار يوسف وأخيه ولا يقطعوا آمالهم من رحمة الله فالكافرون هم الذين تنقطع آمالهم من رحمة الله لأنهم لا يثقون فيه ولا فى وجوده.

عودة أبناء يعقوب إلى مصر

قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

انطلق الأبناء نحو مصر كما أمرهم أبوهم ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ فيه حذف واختصار تقديره فخرجوا من عند أبيهم قاصدين مصر فلما دخلوا عليه ﴿ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ ﴾ يريدون يوسف وهم لا يعرفونه بعد فالمراد به العزيز. ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ أى أصابنا وأهلنا «الضر» المراد به القحط والفقر وكثرة العيال وقلة الطعام ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾ الإزجاء معناه الدفع والسوق والمعنى ببضاعة مردودة لأمرين:-

١- إما لرداءتها ٢- وإما لنقصانها

وهذه البضاعة هى دراهم قليلة. وقيل الصنوبر وحبة الخضراء وقيل الصوف والسمن والأقط وقيل النعال والأدم[١].

﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾ قولهم ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ﴾ أى أعطنا ما كنت تعطيه لنا تاماً بالثمن الجيد فإنا نريد أن تقيم لنا الناقص مقام الزائد. ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾ برد أخينا.

و ذهب سعيد بن جبير والسدى[٢] إلى هذا المعنى: تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة وتجوَّز فيها.

لطيفتان:

الأولى: (سئل سفيان بن عيينة هل حُرِّمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبى ﷺ؟ فقال: ألم تسمع قوله «فأوف لنا الكيل وتصدق علينا»)[٣].

---

(١) انظر تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص١٦٢.
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص٣٣١.
(٣) المرجع السابق ص٣٣١، ٣٣٢.

الثانية: (عن عثمان بن الأسود سمعت مجاهداً وسئل هل يكره أن يقول الرجل في دعائه: اللهم تصدق علي. فقال: نعم. إنما الصدقة لمن يبتغي الثواب)[1].

﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ هذه جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب أي يثيبهم بالجنة وإذا جازى الله فإنه كريم جواد.

يوسف يكشف عن نفسه ليعرفه إخوته

قال تعالى:

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)﴾

سبق هذه الآيات أنهم قالوا ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾.

---

(١) المرجع السابق ص٣٣٢.

فَرَقَّ عليهم وأدركته الرحمة بهم ورفع الحجاب بينه وبينهم (إنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجدب وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته وبدره البكاء فتعرف إليهم يقال إنه رفع التاج عن جبهته وكان فيها شامة) [1].

المباحث العربية

قوله ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ صدر يوسف كلامه مع إخوته بالاستفهام لتعظيم ما فعلوه في حقه من ضرب وقذف في غيابة الجب فيكون المعنى ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه وذلك كما تقول للمذنب هل تدرى ما فعلت في حق فلان وهل تعرف من خالفت.

﴿ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ إذ ظرف بمعنى الوقت وقت أنكم جاهلون بما يؤول إليه أمر يوسف من الولاية والسلطة.

- لقد قال يوسف ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ الذى فعلوه بيوسف معلوم ظاهر، فما الذى فعلوه بأخيه من المكروه حتى يضمه إليه؟

الجواب على ذلك: إنهم نغصوا عيشه وكانوا يؤذونه كلما ذكر يوسف وفرقوا بينه وبين أخيه وقيل «لما اتهم بأخذ الصواع قالوا ما رأينا منكم يا بنى راحيل خيراً» [2].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص٣٣٢.

(٢) الفتوحات الإلهية جـ ٢ ص٤٧٩.

﴿ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ قالوا هذا القول بعد أن بدت لهم شمائله وخصاله الحميدة. والمراد بالاستفهام التقرير. وأنت مبتدأ خبره يوسف والجملة في محل رفع خبر «إن» في ﴿ أَإِنَّكَ ﴾ واللام لام الابتداء ويجوز أن يكون الضمير «أنت» ضمير فصل وليس توكيداً لأن هذه اللام لا تدخل على التوكيد.

﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ قال ﴿ أَنَا يُوسُفُ ﴾ ولم يقل «هو أنا» فلقد صرح بالاسم وصرح بأخيه ﴿ وَهَٰذَا أَخِي ﴾ تعظيماً لما نزل به من ظلم إخوته وما عوضه الله من الظفر والنصر وذكر كلمة أخي مع أنه كان معروفاً لأن مقصوده أن يقول وهذا أيضاً كان مظلوماً كما كنت ثم أنعم الله علينا.

﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾ أي من يتق المعاصي ويصبر على البلاء وإيذاء الناس فإن الله لا يضيع أجرهم. قوله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وضع الاسم الظاهر «المحسنين» مكان الضمير. أي أظهر في موضع الإضمار لاشتمال الاسم الظاهر على المتقين والصابرين فمعنى «الإحسان» واحد من تفسيرين:

١- أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك كما ورد في حديث جبريل «ما الإحسان؟» ومن كانت هذه عبادته كان تقياً صابراً.

٢- التفسير الثاني: أن يحسن المرء أقواله وأفعاله. فإذا فعل ذلك كان تقياً صابراً.

قوله ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ اعترفوا بخطئهم وأقسموا قبله على أن الله فضّله عليهم ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ لم يذكروا جهة الإيثار ولا نوعه ليفيد العموم فيشمل العلم والحلم والعقل والفضل والحُسْن والملك.

و ذهب بعض العلماء[1] إلى أن إخوته ليسوا أنبياء لأنهم لو شاركوه في منصب النبوة لما قالوا ﴿ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ ولا سيما وأن جميع مناصب الدنيا كالعدم بالنسبة لمنصب النبوة.

و يمكن درء هذا بما يأتي:-

أن الله آثره عليهم في الملك وأحوال الدنيا وإن اشتركوا جميعاً في النبوة.

قوله ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ الخاطئ اسم فاعل من الفعل الثلاثي خطئ وهو الذي يفعل الخطأ عمداً والمخطئ اسم فاعل من الفعل الرباعي أخطأ وهو من يفعل الشئ خطأ عن غير عمد. واعتذارهم عن ثلاثة أمور: إلقائه في الجب. وبيعه. وتبعيده عن البيت والأب (وقال أبو علي الجبائي: إنهم لم يعتذروا إليه من ذلك لأن ذلك وقع منهم قبل البلوغ فلا يكون ذنباً فلا يعتذر منه وإنما اعتذروا من حيث إنهم أخطأوا بعد ذلك بأن لم يظهروا لأبيهم ما فعلوه ليعلم أنه حيّ وأن الذئب لم يأكله) [2].

و لقد ضعف الفخر الرازي اتجاه الجبائي فقال: (وهذا الكلام ضعيف من وجوه: الأول: أنا بينا أنه لايجوز أن يقال إنهم أقدموا على تلك الأعمال في زمن الصبا لأنه من البعيد في مثل يعقوب أن يبعث جمعاً من الصبيان غير البالغين من غير أن يبعث معهم رجلاً عاقلاً يمنعهم عما لا ينبغي ويحملهم على ما ينبغي. والثاني: هب أن الأمر على ما ذكره الجبّائي إلا أنا نقول غاية ما في الباب أنه

---

(١) تفسير الفخر الرازي جـ ٥ ص١٦٣.
(٢) المرجع السابق.

لا يجب عليهم الاعتذار عن ذلك إلا أنه يمكن أن يقال إنه يحسن الاعتذار عنه والدليل عليه أن المذنب إذا تاب زال عقابه ثم قد يعيد التوبة والاعتذار مرة أخرى فعلمنا أن الإنسان أيضاً قد يتوب عندما لا تكون التوبة واجبة عليه. واعلم أنهم لما اعترفوا بفضله عليهم وبكونهم مجرمين خاطئين قال يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم)[1].

قوله ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ التثريب: التعيير والتوبيخ والمعنى: لا تعيير ولا لوم ولا توبيخ (وقال الزجاج: المعنى: لا إفساد لما بيني وبينكم من الحرمة وحق الأخوة ولكم عندي الصلح والعفو وأصل التثريب الإفساد وهي لغة أهل الحجاز. وقال ابن الأنباري معناه قد انقطع عنكم توبيخي عند اعترافكم بالذنب)[2].

قوله تعالى ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ هذا طلب من يوسف ودعاء منه طالباً المغفرة قوله ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ أي والله ﷻ يرحم عباده رحمة لا يتراحمون بها فيما بينهم ولا يتصف به سواه فهو الذي يجازي المحسن على إحسانه ويغفر للمسئ إن تاب. بل يبدّل سيئاته حسنات بعد توبته.

لطائف:

الأولى: (روى أن الرسول ﷺ أخذ بعضادتي باب الكعبة يوم الفتح وقال لقريش ما ترونى فاعلاً بكم، فقالوا نظن خيراً أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت. فقال: أقول ما قال أخي يوسف ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾)[3].

---

(١) المرجع السابق

(٢) فتح القدير جـ٣ ص٦٤.

(٣) تفسير الفخر الرازي جـ ٥ ص١٦٣.

الثانية: (روى أن أبا سفيان لما جاء ليسلم قال له العباس إذا أتيت رسول الله ﷺ فاتل عليه ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ ففعل فقال رسول الله ﷺ: غفر الله لك ولمن علمك) (١).

الثالثة: (روى إن إخوة يوسف لما عرفوه أرسلوا إليه إنك تحضرنا فى مائدتك بكرة وعشياً، ونحن نستحى منك لما صدر منا من الإساءة إليك فقال يوسف عليه السلام إن أهل مصر وإن ملكتُ فيهم فإنهم ينظرونى بالعين الأولى ويقولون سبحان من بلَّغ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلغ ولقد شُرِّفت الآن بإتيانكم وعظمتُ فى العيون لمَّا جئتم وعلم الناس أنكم إخوتى وأنى من حفدة إبراهيم عليه السلام) (٢).

معانى الآيات

قال يوسف سائلاً إخوته ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ فيسمعون رنين صوت لعلهم يتذكرون شيئاً من نبرته أو لهجته ولاحت لهم ملامح وجه بقيت فيه بعض معالم الطفولة رغم أنهم يرونه فى سمت عزيز مصر فدعاهم ذلك إلى سؤاله ﴿ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ ففجّر مفاجأة عجيبة ﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ ﴾ ثم يوجز ما فعله الإخوة به وبأخيه ويذكّرهم ثم يذكر منَّة الله عليه وعلى أخيه معللاً هذه المنة بالتقوى والصبر وعدل الله فى الجزاء أما هم فتتمثل لعيونهم وقلوبهم صورة ما فعلوا به ويجللهم الخزى والخجل وهم

(١) المرجع السابق.
(٢) المرجع السابق.

يواجهونه محسناً إليهم وقد أساءوا إليه. ثم اعترفوا بخطئهم وأقروا بذنبهم واعترفوا بأن الله آثره عليهم بالمكانة والحلم والتقوى والإحسان. وأنهى يوسف الموقف المخجل بما يفعله الكريم ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ وانتهى الموقف بالصفح ودون تأنيب وانقطع الماضي بجذوره فلا مجال لذكره بعد ذلك.

الرجوع إلى يعقوب بقميص يوسف

قال تعالى:

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾

المباحث العربية

لما عرف يوسف إخوته وعرفوه وتحاوروا سألهم عن أبيه فقالوا ذهبت عيناه من الحزن عليك فأعطاهم قميصه فقال:

﴿ اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا ﴾ هذا القميص هو قميص إبراهيم عليه السلام (فإن نمروذ الجبار لما ألقى إبراهيم فى النار نزل عليه جبريل عليه السلام بقميص من الجنة وطنفسة من الجنة فألبسه القميص وأجلسه على الطنفسة وقعد معه يحدثه فكسا إبراهيم عليه السلام ذلك القميص إسحاق وكساه إسحاق يعقوب وكساه يعقوب يوسف فجعله فى قصبة من فضة وعلقه فى عنقه فألقى فى الجب والقميص فى عنقه فذلك قوله ﴿ اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا ﴾)[1].

﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لقد حمل يهوذا القميص ليبرأ أبوه مما أصاب عينه لأنه الذى حمل القميص الملطخ بالدم إلى أبيه وهو غير القميص الذى ورثه إسحاق عن إبراهيم فهو المحمول أخيراً لإلقائه على وجه يعقوب فأراد أن يكون سبباً فى سرور أبيه كما كان سبباً فى حزنه.

﴿ يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ الفعل مجزوم بحذف حرف العلة فهو جواب الأمر ألقوه فيرتد إليه بصره.

السر فى ارتداد يعقوب بصيراً:

للعلماء فى تحقيق ذلك اتجاهان:

١- إنما عرف يوسف أن إلقاء القميص على وجه أبيه يرد بصره عن طريق الوحى ولولا الوحى لما عرف ذلك لأن العقل لا يدل عليه.

٢- لعل يوسف عرف أنَّ أباه عَمِى من كثرة البكاء وضاق قلبه وضعف بصره من الحزن فإذا ألقى عليه القميص فإنه ينشرح صدره ويقع فى قلبه الفرح الشديد وذلك يقوى روحه فيزول الضعف فيقوى بصره.

(١) تفسير الرازى جـ ٥ ص١٦٤.

و الاتجاه الأول هو المقبول لأنهما أي يعقوب ويوسف من الأنبياء فهم يتحركون بوحي من الله.

قوله تعالى ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وهم بنو يعقوب وكانوا نحواً من سبعين إنساناً قاله الكلبي وقال مسروق كانوا ثلاثة وتسعين بين رجل وامرأة.

قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ أي خرجت من مصر متجهة إلى أرض كنعان مقر آل يعقوب. قال يعقوب لمن بقي عنده من بنيه وأهله ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ فلقد هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف فأخبر من حوله بأنه شم ريح يوسف واختلف العلماء في المسافة بين القميص والرائحة وبين يعقوب، قال بعضهم مسيرة ثمانية أيام. وقال بعضهم مسيرة عشرة أيام. وقال بعضهم مسيرة ثمانين فرسخاً.

قوله ﴿ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ أنكم تنسبوني إلى الفند وهو الخرف والهرم والكذب والسَّفه.

واختلف العلماء في كيفية وصول تلك الرائحة إلى يعقوب وهناك رأى تستريح إليه النفس دون سواه (قال مجاهد هبت ريح فصفقت القميص ففاحت روائح الجنة في الدنيا واتصلت بيعقوب فوجد ريح الجنة فعلم عليه السلام أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص فمن ثم قال إني لأجد ريح يوسف)[1].

---

(١) تفسير الفخر الرازي جـ ٥ ص١٦٤.

قوله ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ قالوا لوالدهم هذه الكلمة الغليظة قال ابن عباس: إنك لفى خطئك القديم. وهذا الضلال الذى يراه أبناؤه وأهله هو أمله فى عودة يوسف وهو لا ينساه ويوسف عند الأبناء والأهل قد هلك ومات. والضلال هو الذهاب عن طريق الصواب. والذى دفع الأولاد إلى القسم بهذا القول بعد العهد بأحداث يوسف فكانت المدة أربعين سنة وقيل ثمانين وقيل ثمانى عشرة سنة.

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ «أن» زائدة للتوكيد «فلما جاء البشير» فهى تزاد بعد لمّا كما فى هذه السورة، وكما فى سورة العنكبوت ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا ﴾.

و البشير هو يهودا كما مر، فقد سبق العير وفارقها بعد خروجهم من العريش والبشير هو الذى يأتى بالخبر السار. ولقد أحب يهودا أنْ يفرح أباه كما أحزنه سابقاً.

﴿ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ أى طرحه على وجه أبيه. ﴿ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ أى رجع بصيراً. وهى منصوبة على الحال. ويجوز أن يكون النصب على أنه خبر ارتدّ على معنى «صار» وهى من أخوات «كان». وبصيراً صيغة مبالغة والتعبير بها يوحى بأن بصر يعقوب عليه السلام قد ضعف ولم يذهب كله.

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ «ألم» تفيد معنيين:-

الأول: أنها تفيد التنبيه التذكير.

الثانى: أنها تفيد التعجيب من أمر فيه غرابة ودهشة.

وهى هنا تفيد المعنى الأول فهو يذكرهم بقوله ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ من حياة يوسف وعدم موته. وعرف ذلك من أمرين:

١- الرؤيا التى قصها يوسف على أبيه وهى رؤية أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رآهم له ساجدين.

٢- أنه علم ذلك عن طريق الوحى من الله.

﴿ قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ قالوا ذلك اعتذاراً عما وقع منهم. ﴿ اسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ السين والتاء للطلب أى اطلب لنا من ربنا غفران ذنوبنا. ﴿ إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ آثمين.

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ لقد أخّر يعقوب الدعوة بالاستغفار حتى يختار الأوقات التى يتجلى الله فيها على عباده بالفضل والمغفرة فأخّر الاستغفار؛ إما إلى وقت السحر، وإما إلى ليلة الجمعة ويومها. وجملة ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ مستأنفة. ولقد اشتملت على أساليب بلاغية:

١- التوكيد: وهو بإنّ واسمية الجملة.

٢- أسلوب القصر بتعريف الطرفين وضمير الفصل.

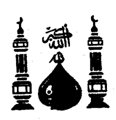
٣- صيغتا المبالغة: الغفور على زنة فعول. والرحيم على زنة فعيل.

والغفور: كثير ستر الذنوب للعباد والمراد به محوها. والرحيم: رقة فى القلب تقتضى الإحسان. والمراد بها فى حق الله تعالى: الإحسان إلى عباده.

معانى الآيات

قال يوسف لإخوته ﴿ اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ اتجهوا قِبَل الشام ولما خرجت قافلتهم من مصر وتركتها شم يعقوب رائحة القميص من هذا المدى البعيد أو كانت عند مفارق أرض كنعان. وشم منها يعقوب رائحة يوسف فأباح بذلك إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تقولوا شيخ خرف. ولكن المحيطين به لم يكن لهم ما له عند ربه فلم يشعروا بما شعر به أبوهم فقالوا حالفين له تالله إنك لفى خطئك القديم وهو رجاؤك فى لقائه على بُعد العهد بينكما.

و تقع المفاجأة البعيدة وتتبعها مفاجأة أخرى ﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ فالمفاجأة البعيدة مجىء البشير بالقميص وهذا دليل قُرْب لقيا يوسف. وتبعتها مفاجأة ارتداد البصر بعد ما ابيضت عيناه. ويفصح يعقوب بحقيقة ما يعلمه من ربه والتى أخبرهم بها من قبل فلم يفهموه. ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ فاعترف الأبناء بخطئهم وطلبوا منه أن يستغفر الله لهم. ونلمح فى رد يعقوب عليهم أنه لم يصفُ بعد فلقد فجعوه وجرحوا فؤاده فى محبوبه يوسف. ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ فعبارته بقوله ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ ﴾ لا تخلو من إشارة إلى قلب مكلوم مفجوع وإن كان وعدهم بالاستغفار لهم.



انتقال نبى الله يعقوب و أبنائه إلى مصر

قال تعالى:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (١٠٠)﴾

استقبل يوسف أباه وأهله (بمائتى راحلة وأربعة آلاف من الجند والعظماء وأهله بأجمعهم تلقوا يعقوب عيه السلام وهو يمشى يتوكأ على يهودا فنظر إلى الخيل والناس فقال يا يهودا هذا فرعون مصر قال: لا. هذا ولدك يوسف فذهب يوسف يبدأ بالسلام فمنع من ذلك، فقال يعقوب عليه السلام: السلام عليك وقيل إن يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى والمقاتلون منهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلاً سوى الصبيان والشيوخ) [(١)].

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص١٦٥.

قوله ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ الفاء للاستئناف. ودخلوا على يوسف فى مضربه فى خيمته التى نصبت له خارج المدينة ليستقبل والده وأهله ﴿ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ أى قربهما وضمهما إليه والمراد بأبويه أبوه واختلف فى أمه فقيل أبوه وأمه راحيل. وقيل إن أمه ماتت فى نفاسها ببنيامين والمراد بها خالته وكانت تسمى«ليا». وقيل إن «ليا» ماتت قبل أم يوسف وكان لهما أخت ثالثة تزوجها يعقوب وهى التى دخلت معه مصر. وقيل إن الله أحيا راحيل أم يوسف وهى التى دخلت معه مصر[1] ولا يخفى أن الخالة أم.

﴿ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ هذا هو الدخول الثانى وهو الأمر بدخول المدينة وأما الدخول الأول فكان دخول الخيمة والمحل الذى ضرب ليوسف.

قوله تعالى ﴿ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ أى آمنين من المكاره (والمشيئة متعلقة بالدخول مع الأمن لأن المقصود اتصافهم بالأمن فى دخولهم ونظيره قولك للغازى ارجع سالماً غانماً إن شاء الله، فلا تعلق المشيئة بالرجوع مطلقاً ولكن مقيداً بالسلامة والغنيمة مكيفاً بهما والتقدير «ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله دخلتم آمنين ثم حذف جزاء الشرط «إنْ» لدلالة الكلام عليه ثم اعترض بجملة الشرط والجزاء المحذوف بين الحال آمنين وصاحب الحال واو الجماعة فى « ادخلوا»)[2].

قوله تعالى ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ الرفع هو الانتقال إلى العلو، فلقد نقلهما وأجلسهما بجانبه ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ الخرور بالسجود الظاهر من النص

(١) أنظر الفتوحات الإلهية جـ ٢ ص٤٨٢

(٢) المرجع السابق بتصريف.

أنـه السـجود الحقيقـي وهـو وضـع الجبهـة علـى الأرض لأن اللفظـين ﴿خَرُّواْ﴾ و﴿سُجَّدًا﴾ ينصرفان معًا إلى الحقيقة. وقيل إن السجود كـان انحنـاءة علـى عـادة تحية الملوك. والذى تميل إليه النفس ويهتف به النص أنه السجود الحقيقى.

- ويترتب على الذهاب إلى الحقيقة سؤال وهو:

كيف أجاز يوسف لنفسه أن يسجد له أبوه وهو أكبر منه سناً وأعلى منه منصباً فى مقام النبوة فضلاً عن كونه له أباً وأن هذا السجود لا يكون إلا لله؟

و الجواب على ذلك:

أن السجود كان فى الحقيقة لله تعالى وليس ليوسف وهـو سجود شـكر لله على أن جمعه بابنـه الـذى غـاب عنـه سـنين طويلـة. فكـان السـجود لله ويوسـف كالقبلة كما كان فى سجود الملائكة لآدم. ويؤيد هذا قوله ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا ﴾ على العرش وخروا له سجداً.. فظاهر هذا النص يدل على أنهم لما صعدوا واستووا على السرير خروا سجداً، ولو كان السجود ليوسف لكـان قبـل الصعود إلى السرير. وسجودهم على السرير كان أبلغ فى التواضع.

و ينبثق عن هذا سؤال وهو: يدفع القول بالسجود الحقيقى قولـه ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ وقوله ﴿ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا ﴾ فالسجود ليوسف لأن الضمير يرجع إلى أقرب المذكورات وهو يوسف؟

والجواب من وجوه:

١- يحتمل أن يكون المعنى وخروا لله سجداً لأجل يوسف واجتماعهم به.
٢- يحتمل أن يكون يعقوب قد سجد هذه السجدة بوحى من الله لحكمة خفيت عنا وسجد معه أبناؤه وفعلوا فعل أبيهم فكان سجوده شكراً لله وكان يوسف كالقبلة. وسجودهم تواضعاً لأخيهم الذى ظلموه ويفوقهم فى مقام النبوة.
٣- أن هذا السجود كان جائزاً فى ملتهم ثم نسخ فى ملتنا.

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ التاء التى أضيفت إلى أب عوض عن ياء المتكلم. ﴿ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ ﴾ أى هذا تفسير رؤياى ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ جعلها الله «حقاً» صدقاً حيث وجدت وتحققت فى الواقع.

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ أى أنعم علىَّ. وعدَّى أحسن بالباء بدل «إلى» لتضمنه معنى «أنزل». ﴿ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ «إذ» ظرف بمعنى «وقت» وقد أنعم علىَّ وقت أخرجنى من السجن فالله هو الذى أطلقه من السجن بقدرته التى تتحير قبلها العقول.

﴿ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ هذا الكلام معطوف على ﴿ أَخْرَجَنِي ﴾ والمعنى وقد أنعم إلى وقت إخراجى من السجن ووقت مجيئكم من البادية من بعد أن أفسد الشيطان بينى وبين إخوتى ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ﴾ اللطيف هو الرفيق المحسن وهو هنا بمعنى «مدبر» ولذلك عداه باللام فى قوله ﴿ لِّمَا يَشَاءُ ﴾ أى لما يريد. ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ هذه الجملة اشتملت على أساليب بلاغية وهى:

١- التوكيد بإن واسمية الجملة.
٢- أسلوب القصر بتعريف الطرفين وضمير الفصل أى هو العليم الحكيم دون سواه.
٣- صيغتا مبالغة فى العليم والحكيم وهما على وزن واحد فى العليم والحكيم.

و«العليم» كثير العلم بخلقه. كثير الحكمة فى أموره وصنعه. والحكمة: هى إصابة الحق فى القول والفعل.

لطيفتان:

الأولى: المدة التى كانت بين الرؤيا وبين وقوعها اختلف العلماء فيها (قيل ثمانون سنة. وقيل سبعون. وقيل أربعون. وهو قول الأكثرين ولذلك يقولون إن تأويل الرؤيا إنما صحت بعد أربعين سنة وقيل ثمانى عشرة سنة وعن الحسن أنه ألقى فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وبقى فى العبودية والسجن ثمانين سنة ثم وصل إلى أبيه وأقاربه وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة فكان عمره مائة وعشرين سنة. والله أعلم)[1].

الثانية: ذكر يوسف مصيبة السجن ولم يذكر مصيبة إلقائه فى الجب لما يأتى:

١- إما لطول مدة السجن ولمصاحبته فى السجن الأوباش والأشرار والمجرمين. وأعداء الدين. بخلاف مدة الجب فكانت قصيرة وآنسه جبريل والملائكة.
٢- وإما لأنه كان يتمتع بالأدب الجم والذوق حتى لا يجرح شعور إخوته بعد أن قال لهم ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾.
٣- و إما لأن نعمة الله عليه فى إخراجه من السجن كانت سبباً لوصوله إلى الملك.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص١٦٧.

معانى الآيات

يمضى السياق فيسوق المشهد النهائى المؤثر. فياله من مشهد بعد كر الأعوام وانقضاء الأيام وبعد اليأس والقنوط والألم والضيق وبعد الامتحان والابتلاء وبعد الشوق المضنى والحزن الكامد والظمأ الشديد دخل الوالد والأهل على يوسف خارج المدينة فضم أبويه إليه وقال لأهله وعشيرته ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين من كل مكروه. ورفع أبويه على سريره الذى يجلس عليه وخروا له ساجدين فقال يوسف يا أبت هذا تأويل رؤياى التى رأيتها فى طفولتى كانت مناماً فصارت واقعاً. ثم يذكر نعمة الله عليه وقد أطلقه من السجن وجمعه الله بأهله وأتى بهم من البادية من بعد أن أفسد الشيطان بينه وبين إخوته ويذكر لطف الله فى تدبيره لتحقيق مشيئته لأنه العليم بكل شئ الحكيم فى أموره.

دعاء يوسف واعترافه بفضل الله عليه

قال تعالى:

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾

مناسبة الآية بما قبلها:

قبل أن يسدل الستار على المشهد الأخير المثير وهو مشهد اللقاء بعد الفراق الذى طال أمده ينزع يوسف عليه السلام نفسه من اللقاء والعناق والفرحة

والابتهاج والجاه والسلطان والرغد والأمان ليتجه إلى الله في دعاء يعترف فيه بالفضل والمنّ فقال ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾.

المباحث العربية

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ «رب» منادى حذف منه حرف النداء وهو مضاف إلى ياء المتكلم وحذفت الياء وكسرت الباء المشددة للدلالة على الياء المحذوفة وهذه لغة في المنادى المضاف إلى ياء المتكلم. ومن اللغات فيه إثبات الياء الساكنة كما في قوله تعالى ﴿يَا عِبَادِي لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ [1]. ومن اللغات حذف الياء الساكنة وإبقاء الكسرة دليلاً عليها كما في قول يوسف ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي ﴾ وقوله تعالى ﴿ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [2]. ومن اللغات في المنادى المضاف إلى ياء المتكلم: إثبات الياء وفتحها كما في قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ [3].

ومن اللغات فيه: قلب الكسرة التي قبل الياء المفتوحة فتحة فتنقلب الياء ألفًا لتحركها وانفتاح ما قبلها قال الله تعالى ﴿ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾[4]. وقال تعالى ﴿ يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ ﴾[5] أصلهما: يا حسرتي ويا أسفي.

---

(١) سورة الزخرف آية ٦٨.
(٢) سورة الزمر آية ١٦.
(٣) سورة الزمر آية ٥٣.
(٤) سورة الزمر آية ٥٦.
(٥) سورة يوسف آية ٨٤.

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾ يا رب قد أعطيتني ﴿ مِنَ الْمُلْكِ ﴾ من تبعيضية أى بعض الملك وهو ملك مصر إذ لم يملك جميع الأقطار لأنه لم يملكها إلا أربعة: مؤمنان: ذو القرنين وسليمان بن داود ، وكافران: النمروذ بن كنعان وهو الذى حاج إبراهيم فى ربه. وبختنصّر. و قيل بختنصر وشداد بن عاد [1]. وقيل إن «من» زائدة . وقيل هى لبيان الجنس .

﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ أى وعلمتنى من تعبير الرؤيا وتأويلها، وسمى الرؤيا أحاديث لما يقع فيها من الأحاديث.

﴿ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أى منشئهما من العدم ابتداء وعلى غير مثال سابق. (عن ابن عباس قال: كنت لا أدرى ما فاطر السموات والأرض حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها أنا بدأتها فقال ابن عباس أيضاً ﴿ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ بديع السموات والأرض) [2].

﴿ أَنتَ وَلِيِّي ﴾ أنت متولى مصالحى وآخذ بناصيتى.

﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ لقد مر آنفاً أن هذا الدعاء كله كان بعد أن اجتمع بأبيه وإخوته ويحتمل أنه دعا بهذا الدعاء عند احتضاره. ويحتمل أنه دعا هذا الدعاء وسأل الوفاة على الإسلام عندما تحين وفاته.

ولا يعترض على الاتجاه الأول وهو أنه دعا بهذا الدعاء عندما تمت له النعم. ولقد نهى الرسول ﷺ عن طلب الموت (لايتمنين أحدكم الموت لضر نزل به

---

(١) انظر الفتوحات الإلهية جـ ٢ ص ٤٨٤.
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص٥١٩

إما محسناً فيزداد وإما مسيئاً فلعله يستعتب ولكن ليقل اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى)[1].

قد يكون طلب الموت كان سائغاً فى ملتهم. وقوله ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ من آبائى. واختلف فى وفاته فقيل مات بعد أسبوع من هذا الدعاء، وقيل عاش مائة وعشرين[2].

موت يعقوب عليه السلام

فلما حضر يعقوب الموت أوصى ابنه يوسف عليهما السلام أن يحمل جسده حتى يدفنه عند قبر أبيه إسحاق فى الأرض المقدسة بالشام فلما مات يعقوب بمصر فعل ما أمره به أبوه فحمل جسده فى تابوت من ساج حتى قدم به الشام فوافق ذلك موت عيصو أخى يعقوب وكانا قد ولدا فى بطن واحد وفى وقت واحد فدفنا فى قبر واحد وكان عمرهما مائة وسبعاً وأربعين فلما دفن يوسف أباه رجع إلى مصر[3].

موت يوسف عليه السلام

لما مات يوسف اختلف المصريون فى المكان الذى يدفن فيه فطلب أهل كل محلة أن يدفن فى محلتهم من أجل البركة حتى هموا أن يقتتلوا ثم اصطلحوا على أن يدفنوه فى أعلى النيل أى فى أقصاه من الجنوب من جهة الصعيد. لأجل أن

---

(١) متفق عليه.
(٢) أنظر الفتوحات الإلهية جـ ٢ ص٤٨٥.
(٣) أنظر المرجع السابق.

يجرى الماء ويمر عليه ويتفرق عنه بعد ذلك إلى جميع البلاد وتعم بركته البلاد كلها فجعلوه فى صندوق من المرمر وهو نوع من الرخام فدفنوه فى الجانب الأيمن من النيل فأخصب وأجدب الجانب الآخر فنقل إلى الجانب الأيسر فأخصب وأجدب الجانب الأيمن فدفنوه وسط النيل وقدروه بسلسلة فأخصب الجانبان فبقى أربعمائة سنة فلما أمر الله موسى بالخروج من مصر أمره بأخذ يوسف معه ودفنه فى الأرض المقدسة بقرب آبائه فلم يهتد إلى مكانه فدلته عليه عجوز من ولد يعقوب وشرطت عليه أن تكون معه فى الجنة فضمن لها ذلك وشرطت عليه أيضاً أن يدعو لها بأن ترجع شابة كلما هرمت فدعا لها فكانت كلما وصلت فى السن خمسين سنة رجعت بنت ثلاثين وعاشت ألفاً وستمائة سنة فحمله موسى فدفنه فى الأرض المقدسة فهو هناك الآن[1]. ولقد أنجب من امرأة العزيز ولدين وبنتاً: افراثيم — وميشا — ورحمة.

معنى الآيات

يا رب أعطيتنى من الملك سلطاناً وجاهاً ومالاً فذلك نعمة علىَّ أشكرك عليها. ومن نعمك علىَّ علمتنى إدراك تأويل الرؤيا وتعبيرها فذلك من نعمك علىَّ فإنى أذكرها واعدِّدها يا فاطر السموات والأرض بكلمتك وبأمرك وتملكهما وتدبر شئونهما. وأنت ناصرى فى الدنيا والآخرة فنعم الناصر والمعين. فأعطيتنى هذه النعم دون سؤال وإنى لا أسألك الآن سلطاناً ولا مالاً ولا جاهاً ولكن أسألك ما هو أبقى وأغنى توفنى مسلماً وألحقنى بآبائى وأجدادى الصالحين.

---

(١) المرجع السابق.

دليل على صدق الرسول واعراض قومه عنه

قال تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

المباحث العربية

بعد أن ساق الحق تبارك وتعالى قصة يوسف كاملة ولم تكرر فى القرآن لأمرين:

١- لأنها نزلت مستوفية الجوانب.

٢- أو لأنها تشتمل على ما يثير الغريزة لما فيها من مراودة المرأة للرجل. فأتت فى موقع واحد.

فبعد أن ساق الله هذه القصة عقب عليها بقوله ذلك أى ما قصه الله تعالى من الحديث عن يوسف وإخوته إخبار بالغيب فلم يكن يعرفه الرسول ﷺ ولا قومه وهذا دليل على صدق ما جاء به وأنه من عند الله تعالى.

أنواع الغيب:

الغيب هو: «مصدر غابت الشمس وغيرها إذا استترت عن العين، يقال غاب عنى»[1]. فالغيب هو ما غاب عنك، وهو أنواع:

أولاً: غيب الماضى: وهو ما لم يطلع عليه الإنسان فهى الأحداث التى سبقت ميلاد الإنسان ولم يشاهدها ولم يعايشها. وهى فى القرآن الأحداث القرآنية التى سبقت نزول القرآن ولم يشاهدها الرسول ﷺ من الحديث عن الملائكة وخلق السموات والأرض والأمم والأنبياء.

ثانياً: غيب الحاضر: وهو إخبار الله رسوله عن أحداث وقعت بعيداً عنه ولم تكن بحضرته فأخبره الله بها. كإخباره عن المنافقين وأقوالهم وما يدور بخواطرهم. وغير ذلك.

ثالثاً: غيب المستقبل: وهو إخبار الله تعالى عن أحداث وقعت مستقبلاً وعند إخبار القرآن لم تكن وقعت. كإخبار الله عن الروم بأنهم ينتصرون بعد هزيمتهم من الفرس. وكإخبار القرآن عن دخول المسلمين مكة فى عمرة القضاء. وبأن الله سيمكن لهم دينهم وينتشر فى الأرض وقد تحقق ذلك.

(١) المفردات فى غريب القرآن ص٣٦٦.

المحتويات